

ذكريات

على درب الكفاح والهنزية



ذكريات على درب الكفاح والهنزية

رياض المالكي

ذكريات
على درر الكفاح والهنم

رياض المايكي

الاهداء

الى ذاك الاعرابي الذي تصدى
للفاروق عمر بن الخطاب ، وهو أمير
للمؤمنين ، لا يشك في عدله ومثالية
حكمه أحد ، مثنياً ومنبهاً بقوله :
« والله يا عمر ، انا لو رأينا فيك
اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » ...

والى أولئك المحامين ، الذين
هبوا بشجاعة ، في وجه طاغية
مستبد ، يلقنونه درساً في معنى
الحرية ، عندما اعتقل زملاء لهم
أحراراً ، ومن بينهم كاتب هذه
الكلمات ..

والى كل عربي يكافح بجرأة
وثبات في سبيل مجابهة الاستبداد،
وتقويم الانحراف ، ومحاربة الطغيان
ومقارعة الاعداء ، في أي زمان ،
وعلى أية بقعة من تراب هذا
الوطن ..

المقدمة

« أوصيك أن تخشى الله في
الناس ، ولا تخشى الناس في
الله .. »

« عمر بن الخطاب »

أنا لا أطمح لتدوين وقائع التاريخ ؛ وليست رغبتى في أن أكون
ناقدا سياسيا أو اجتماعيا . واني لم أخرج في يوم من الايام في
تفكيري ، وفي نشاطي ، وفي شتى الميادين النقاية والحزبية والسياسية،
عن كوني مواطنا حرا ، يفضل دائما أن يبقى في صفوف مواطنيه ،
جنديا عاديا ، يكافح بعناد من أجل نصره الحق أو ما يعتقد أنه الحق؛
لا يتوانى عن السير وراء قيادة من يعتقد فيهم الصدق والاخلاص ،
يؤيد خطواتهم الصائبة ، ويساند مواقفهم السليمة ؛ فاذا بدا له أي
انحراف أو اعوجاج ، في خط سيرهم ، أو ساوره بعض من شك ،
في نواياهم ، واخلاصهم ، بادرهم بالنصح ، برفق وتروء ؛ حتى اذا
ما لمس منهم تماديا في الانحراف ، واصرارا على الغي ، رفع عقيرته
في مواجهتهم بالنقد الصريح ، وجاهر في مجابتهم بأخطائهم وعيوبهم،
دون مدهانة أو مهادنة ..

كلنا في الحقيقة بشر ، وليس فينا ملائكة أطهار ؛ ولكل منا في
الواقع مساوئه وهفواته ؛ وليس منا من هو معصوم عن الخطأ ،
حتى يملك حق الوصاية المطلقة على الشعب . فقد انقضى ، من زمن
بعيد ، عهد الملوك والاباطرة الذين كانوا يدعون استمداد سلطانهم

من العناية الالهية ، ويزعمون لأنفسهم الحصانة المطلقة ضد الخطأ
والمسؤولية والحساب •

ونحن اليوم ، في عصر الديمقراطيات ، حيث يجب أن تبقى الكلمة
الاولى والاخيرة للشعب ، بجماهيره الواسعة ، وصفوفه العريضة ،
لا تعلق على كلمته كلمة ، ولا تربو فوق سيادته سيادة ؛ وحيث يفترض
فيمن يتصدى للعمل العام ، أن ينزه نفسه عن الهوى ، ويحصن ذاته
ضد الغرور ، ويصون خطواته من الزلل ، ويحمي سلوكه من الشطط ؛
وحيث يشترط فيمن ينبري لحمل أعباء القيادة ، أن لا يجعل من
قيادته حكرا ، وأن يدع الفرصة الكاملة ، لسائر المواطنين ، للمشاركة
الوجدانية والفعلية ، في معالجة قضاياهم العامة ، في جو تام من الحرية
والديمقراطية ، وفق مبادئ دستورية مقننة ، يسنها الشعب بكافة
أبنائه ، وهم أصحاب السيادة والسلطة الحقيقيون ، وعليهم يقع واجب
ممارسة الرقابة الصارمة على سير أمورهم العامة ، وقضاياهم
الوطنية ؛ حتى اذا بدا لهم اعوجاج في سلوك قادتهم ، أو انحراف
في سيرة ممثليهم ، لم يتوانوا عن التصدي لهم ، بجرأة وثبات ، مقتنين
أثر ذلك الاعرابي الحر الذي لم يحجم عن مخاطبة الفاروق عسر ،
مؤكددا على حق المواطنين المطلق بتقويم الاعوجاج في أشخاص
الحكام ، مهما سمت منزلتهم ، وبتصحيح الانحراف في سير الامور
العامة ، أيا كان مصدره ، حتى ولو اقتضاهم الحال استعمال القوة •

والفصول المدونة في هذا الكتاب ، هي بعض من ذكريات وظيف
من خواطر ، تنساب في مخيلتي ، كل وقت وحين ، وكأنها شريط
سينمائي مفزع يعكس بعض ما عاناه المواطن ، وما قاساه شعبنا في
القطر العربي السوري ، خلال حقبة من الزمن ، ابتدأت منذ أن أعلن
في فجر الثلاثين من شهر آذار (مارس) عام ١٩٤٩ ، من اذاعة دمشق ،

البلاغ العسكري رقم (١) ، ونعى فيه الناعي النظام الدستوري في بلدنا ، حديث العهد بالاستقلال .

وقد مني شعبنا ، خلال المرحلة التي تلت ذلك الحدث الخطير ، بهزيمة مصطنعة ألصقت به ، وما زالت مسؤوليتها ، وستظل ، ملتصقة بوجودان كل من أسهم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بتهيئة الاسباب التي أدت للاحاقها بالوطن ، ليتحمل أبناءه البؤساء ، الفقراء منهم قبل الاغنياء ، والبسطاء قبل المثقفين ، والمدنيون قبل العسكريين ، عبء المأساة ، وآثار الكارثة ، التي ما كانت لتحل ببني قومنا جميعا ، لولا الهنات الخطيرة التي وجدها العدو في نفوسنا ، ولولا الثغرات العميقة التي اكتشفها في صفوفنا .

والصحائف التالية ، ان هي الا محاولة صادقة ومتواضعة ، للتنقيب عن بعض تلك الهنات ، وللكشف عن أخطر الثغرات التي كانت سبيل العدو للتسلل الى بلادنا ، وقهرنا في عقر دارنا .

وما الحافز لنشر الوقائع التي سردتها ، وتعرضت فيها لبعض النماذج من المسؤولين - كبارا وصغارا - هو الرغبة في التشهير بأسمائهم ، أو التشفي من أشخاصهم ، أو محاسبتهم عن أخطائهم ، فالشعب هو ، وحده ، صاحب الحق في اجراء الحساب ، وفرض العقاب ؛ وهو المرجع الاول والاخير ، واليه المحتكم في مراجعة تلك الاخطاء التي وصل بعضها الى درجة الجريمة ، وبلغ بعضها مرتبة الخيانة العظمى .

واني أقدر سلفا أن هؤلاء سيغضبون لما خطه قلبي حولهم من حقائق أكثر من غضبهم لهزيمة أمتهم ، وسيتأثرون من نشر هذه الكلمات أكثر من تأثرهم لما اجترحوه بحق شعبهم من آثام وجرائم .

واذا كان الكثير من تلك الجرائم قد تلاشى بسرور الزمن ،

وسقطت المسؤولية عنه بالتقادم ، فان التاريخ الديان هو القمين
بانصاف المحسن وادانة المسيء •

والقصد الوحيد من سرد هذه السير كلها ، وهي غيض من
فيض ، هو السعي لاستخلاص الدروس ، واستنباط العبر ، من الماضي
القريب ، وأحداثه الممضة ، علّ فيها فائدة ترجى ، لأبناء وطننا ،
ومستقبل أجيالنا ، خلال مسيرة الكفاح الشاق المرير الذي لا بد من
مواصلته ، بعزم وثبات ، حتى يتحقق لأمتنا النصر المبين •

دمشق ، صيف عام ١٩٧١ •

« رياض المالكي »

البيت الابوي

والسيف مالم تعر شفرته عبء ولا يغنيك في أمر

« عدنان مردم بك »

رأت عيني النور لأول مرة ، في مطلع عام ١٩٢٢ •

ولا أدري اذا كان قدومي الى الدنيا لاقى ترحيبا كافيا في محيط
الاسرة ، ذلك لأنني كنت القادم الثامن بين اخوتي وأخواتي •

وما زالت والدتي ، بالرغم من انقضاء نصف قرن على ذلك
الوقت ، تردد على مسمعي أنها عانت من حملها بي وولادتي ، أكثر
مما تعبت بسائر أولادها التسعة الآخرين • وهي تعزو ذلك الى مراسي
الصعب ، و « رأسي اليابس » ***

كان أول حادث هام في طفولتي ، هو اصابتي بحمى التيفوئيد،
عندما كنت في الرابعة من عمري • وكانت معالجة مثل هذا المرض
الويليل ، صعبة ، في ذلك الزمن ، وكانت تستغرق وقتا طويلا • وغالبا

ما كانت الاصابة به ، تخلف عاهة في الجسم أو الحواس • وقد
أورثني ، بعد أن برئت منه ، تعثرا في النطق ، تمكنت من التغلب عليه ،
بقوة ارادتي ، وبجدي واجتهادي ، في مراحل دراستي •



كان أبي مزارعا ••

أحب الارض منذ صغره ، والتحق بعمله الزراعي في وقت مبكر ،
يوم أن كان فتى يافعا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره • وقد عاش
يتيما ، اذ كان لم يبلغ السنة بعد ، عندما قضى جدي نجبه ، تاركا
لجدتي وأولاده منها ومن زوجته الاولى ، ارثا متواضعا من الارض ،
في قرية الافتريس القريبة من دمشق ، والواقعة في الغوطة الشرقية •
وكان لأبي شقيقان انخرطا في السلك العسكري كضابطين في
الجيش العثماني ؛ وقد احتل أحدهما رتبة عالية •

كما كان له اخوة من أبيه ، تطوع أحدهم ، يوسف ، للخدمة
في الجيش كضابط أيضا • ويروى عن هذا الضابط ، أنه كان فارح
الطول ، عريض المنكبين ، ذا بأس وشجاعة خارقين ؛ وكانوا يلقبونه
بالفارس العملاق • وقد ساهم في حروب البلقان ، وأبلى مع جنوده
البواسل بلاء حسنا ، وحقق لجيشه انتصارات باهرة ، أكسبته ترفيعا
استثنائيا وأوسمة رفيعة • وقد ثقل بعدئذ مع قطعته العسكرية الى
الاستانة ، للراحة والاستجمام • ولكن سوء طالعہ جمعه ، صدفة ،
في أحد مقاهي العاصمة التركية ، ببعض الضباط الاتراك الحاسدين •
وكانت بوادر الخلاف ، وقتئذ قد بدأت تلوح في الافق ، بين العرب
والاتراك •• تحرش به بعض أولئك الضباط وصرفوا بعض العبارات
المهينة بحق العرب ، ولكنه أغضى عنهم تفاديا للاصطدام ؛ فما كان

من أحدهم ، الا وأن اقترب منه ، وسأله متحديا : « جانم .. ألا تسمع ؟ أم أنك ، مثل سائر العرب ، جبان ؟ .. » فلم يسكت عمي عن التحدي ؛ نهض منتضيا حسامه ، ودعا زميله التركي للمبارزة . فما كاد الضابط التركي يستل سيفه من غمده ، ويستعد للنزال ، حتى كانت ضربة خاطفة من المهند العربي ، كافية لقطعه من جزعه الى نصفين ، أمسك المبارز المنتصر بشعر الرأس منهما ، وألقاه في الشارع ، وألحق به النصف الثاني ، وعاد الى مكانه ، متكئا على سيفه البتار ، وهو يقطر دما ، وجلس على مقعده ، يدخن « أركيلته » وكأن شيئا لم يكن ..

جرب ذلك الحادث المذهل ، على مرأى من رواد المقهى ، مدنيين وعسكريين ؛ وقد أفرعهم المشهد ، فلاذ معظمهم بالفرار ؛ بينما استجد البعض بالشرطة العسكرية . وعندما قدمت مفرزة منها ، تريد اللقاء القبض على الضابط العربي ، تريت أفرادها ، أمام منظر ذلك المقاتل المرعب الذي كان الشرر يتطاير من عينيه . واستعانت القيادة بقائد الفرقة ، رئيسه الاعلى ، فأتى اليه بنفسه ، ودعاه برفق لمرافقته الى مقر القيادة .

وكان القصاص بأن أقصي عمي عن العاصمة التركية ، وألحق بقطعة كانت تحارب في خطوط النار الامامية . ومن هناك ، ورد الخبر الى زوجته بأنه قتل ؛ وهي لم تعلم في الحقيقة ، ان كان مصرعه قد تم على يد الجنود الاتراك ، أم القناصة الاعداء .

★ ★ ★

وفي دمشق ذاتها ، وفي قرية لا تبعد عنها كثيرا ، تسمى بحوش الاشعري ، حيث مشى الصحابي الشهير ، أبي موسى الاشعري ،

كان يرباط فارس من نمط آخر ؛ وهو أحد أبناء عم والدي ، واسمه ابراهيم ، وكانوا يلقبونه « برو أفندي » ..

كان انسانا تضرب بشجاعته الامثال ، رغم أنه كان قصير القامة ، لا تملأ النظرة اليه العين . كان يحتل مركز الصدارة في محيطه ، يلتف حوله أنصاره الكثيرون وهم مدججون بالسلاح ، ويشكلون بقيادته قوة لا يستهان بها . وكانت السلطات التركية تحسب له ألف حساب ، وتسعى لكسب وده ومحالفته ؛ تارة تتوتر علاقاته معها ، فيتسرد عليها ، خاصة اذا ما التجأ اليه ، واحتسب في مزرعته ، بعض الوطنيين الجارية ملاحقتهم من قبل رجال الضابطة الاتراك ؛ وتارة يسود اللوثام بينه وبينها ، فتعتمده لمساعدتها في اخضاع من تعجز عن مطاردتهم من الاشقياء المجرمين .

نزعة فروسية متأصلة في نفوس معظم أبناء الاسرة ، يأبسون الضيم ، ويحاربون الظلم ، ويهبون لنصرة الحق ، والدفاع عن الكرامة ، وان كان معظمهم يولون اهتمامهم باتجاه العلم والفقه ؛ فكان منهم العلماء والفقهاء . وقد تولى بعضهم منصب الافتاء في مدينة دمشق ، كيوسف المالكي الذي نصب مفتيا قبل أكثر من مائتي عام ، وهو جد والدي ، وقد انتقل اليه هذا المنصب بعد وفاة أخيه أسعد المالكي ، وكان يشغله قبله .



يروى عن أحدهم ، أحمد المالكي ، أنه عاش في عصر الوزير ابراهيم باشا المصري ، وعين عضوا في مجلس الشورى المحدث آنذاك . وعندما تفاقمت النقمة ، وعم الاستياء الربوع السورية ، بسبب السياسة التي اتهجها قائد الحملة المصرية ، عمد هذا القائد ، الالباني

الاصل ، الى فرض جو من الارهاب ، وبدأ بالتكيد بعارضي سياسته من السوريين • وفي العاصمة السورية ، أمر ابراهيم باشا بقطع رقاب عدد من وجهاء المدينة وأعيانها ، وكان بعضهم من آل الحسيبي ، وآل المهاني ، وآل الكزبري • كان يأمر الجلادين بالقاء رؤوسهم ، من بعد بترها عن أجسادهم بحضوره ، في بحرة واسعة في الدار التي كانت مقرا له في حي الشاغور ، نزلة حمام القاضي ، ليتلذذ بنظر الجماجم تتقاذفها المياه المتدفقة في البحرة والمصبوغة بدماء الدمشقيين •

وقد تصدى السيد أحمد المالكي للفتاح المصري في مجلسه ، وانتقد تصرفه الجائر بحق أبناء البلد الهادئ الامين ، فما كان من الطاغية السفاح ، الا أن استشاط غضبا ، وثارته حفيظته ضد القاضي الجسور • ولكن التفاف الاهلين حول مثلهم في مجلس الشورى ، حال دون انفاذ الامر برأسه والحاقه بباقي الرؤوس الطافية على سطح البحرة الدامية •



من الارض الطيبة ، استقى والدي كثيرا من الصفات • أعطاها جهده ، فقابلته بخيراتها • كانت ، كلما جد في عمله ، تجود عليه بأكثر؛ وان كانت الطبيعة تقسو أحيانا ، فتحرمه من ثمرات تعبته ، وذلك عندما تسيل موجات الصقيع الربيعية ، لتتلف الازهار والشار وهي غضة ، أو لتقضي على براعم الكرمة ، وعندما تهب لفحات الجو الحار مبكرة لتخلق سنابل القمح والشعير قبل نضجها ، أو عندما تأتي أرجال الجراد لتقضي على الاخضر واليابس •

لقد تعلم من الارض الامانة والاستقامة ، كما وسمته الطبيعة بالقسوة والصلابة •



حدثني السيد موسى غناجة ، وهو تاجر دمشقي ثري كان يتعاطى مهنة الصيرفة ، بعد وفاة والدي ، قائلا : « لو وجدت بين المسلمين كثيرين مثل أبيك لارتضيت الاسلام لي دينا .. » وأوضح لي كلامه قائلا : « قصدني والدك ابان الثورة السورية في بدء الاحتلال وبعد أن حرقت المدافع الفرنسية أرزاقه مع أرزاق الكثيرين من المزارعين في غوطة دمشق ، انتقاما منهم لمساعدة الثوار ، وطلب مني اقراضه مبلغا من المال ؛ وكان التعامل آنذاك بالليرات الذهبية العشائية . ولكن نظرا لاضطراب الاحوال السياسية ، اشترطت كتابة السند بالليرات المصرية ، اعتقادا مني بأن مركز هذه العملة هو أقوى ، فوافق والدك على ذلك . ولكن لم تمض فترة قصيرة ، الا وهبطت قيمة العملة المصرية هبوطا محسوسا ، فقطع والدك عمله في القرية ، عند بلوغه الخبر ، وأتى الى داري ، سائلا عني ؛ فتهربت منه ، خشية أن يكون قد أحضر لي قيمة الدين بالليرات المصرية . ولكنه ترك لي خبرا بأنه سيعود ، في صباح اليوم التالي ، لابدال السند المحرر منه . ولما عاد في الموعد الذي حدده ، استقبلته في داري ، فأصرّ على تحرير سند جديد بالليرات العثمانية التي كان قبضها مني . وفي موعد الاستحقاق دفع لي المبلغ كاملا مع الفائدة المتفق عليها . ولما أردت مكافأته على جميله بحسم مقدار الفائدة ، رفض بإباء ، مؤكدا أن ما فعله هو الواجب » .



وكانت استقامته هذه ، مع خبرته الواسعة التي اكتسبها من عمله الزراعي ، جعلته مرجعا لفض منازعات الاهلين الذين كانوا يسعون اليه ، من كل حذب وصوب ، لمساعدتهم في حل مشاكلهم . كما أن المحاكم كانت تعتمد غالبا ، للاستفادة من خبرته ، في ما كان

يتعذر عليها حله من القضايا الزراعية العويصة المعروضة عليها ؛ وكان
والدي يقدم مثل هذه الخبرة تبرعا • قصده مرة المدير العام للاوقاف
راجيا موافقته على اختياره خيرا في قضية هامة معروضة على المحكمة
الاجنبية ، تتعلق بعقارات غالية عائدة لوقف مشهور « بوقف
العثمانية » كائن في مدينة حلب • وبعد الحاح شديد من المدير العام،
قبل والدي أداء المهمة • وعندما حضر الى المحكمة ، لاحظ رئيسها
أن والدي لا يتكلم اللغة الفرنسية ؛ فأظهر تأففه من اختيار ادارة
الوقف لخير لا يعرف لغة التخاطب أمام المحاكم الاجنبية • فلما
لاحظ والدي تبرم القاضي من لهجته ، واستوضح عن سبب ذلك ،
نعت رئيس المحكمة صراحة وعلنا بعدم الحكمة وقلة الفهم ، سائلا
اياه : « هل يظن سيادة القاضي أننا واقفون على أرض فرنسية ؟ ••
أم أن الخبرة المطلوبة في الدعوى تتعلق بعلم اللغة الفرنسية وآدابها
لا بنزاع حول الارض المختلف عليها ؟ » •

وبالرغم من أنها كانت أول زيارة ، من والدي ، لأراض زراعية
في حلب ، فقد توصل من دون باقي الخبراء الآخرين الذين كان أحدهم
فرنسيا والثاني مهندسا لبنانيا ، الى كشف التلاعب الخطير الذي
أجراه خصوم ادارة الاوقاف لتغيير تخوم الارض محل الخلاف ،
بقصد هضم حقوق الوقف ؛ فدهش القاضي الفرنسي من نباهة الخير
الدمشقي ، وأقبل عليه معذرا عما بدر منه من سوء تقدير •



ذهبت مرة صحبة والدي لعيادة أخي الذي كان يعالج في
المستشفى العسكري من مرض ألم به ، فلما دخلنا الى غرفته وجدنا
عنده ضابطا فرنسيا ، يحمل رتبة كبيرة ، وكان هو الآخر نزيل
المستشفى ، فعرفه أخي علينا ؛ ولكن الضابط لم يسكت بعد أدائه

التحية ولا لحظة ، وانسحب الى غرفته المجاورة ، ولم يعد الا بعد ذهاب
والدي ، حيث بقيت أنا قرب أخي ، الذي سأل الضابط الفرنسي :
« لماذا لم تبق معنا ولو قليلا ؟ .. » وأجاب الضابط الفرنسي :
« هل تريد الصراحة ؟ ، انني خفت من نظرة أليك الحادة ، والحق
يقال انني لم أشاهد في حياتي انسانا له نظرات مثله تبعث في النفس
الهيبة والهلع » .. ولما رويت القصة فيما بعد لزميلي الدكتور أسعد
المحاسني ، أكد لي نفس الانطباع الذي يحمله عن نظرات والدي
الحادة . وكثيرون من الاهل والاصدقاء كان يتسلهم شعور الهيبة
لدى مقابلته رغم ما كان يتحلى به من بشاشة دائسة وطيب معشر مع
الناس .



كان والدي صارماً جداً في معاملته لنا ، وبالرغم من سعيه
الدؤوب لتأمين جميع حاجتنا وطلباتنا ، كنا دائماً نخشى غضبه
ونسعى لكسب رضاه ، وكنا رغم غيابه عن البيت معظم أيام الأسبوع
في عمله الزراعي الشاق ، نحسب له كبير حساب . وكانت والدتي ،
بما حباها الله من رقة ووداعة ، تعوض علينا ، بقلبها الطيب وحنانها
الزائد ، ما كان يحرمنا منه والدنا من عطف ، وكانت هي واسطتنا
لنيل ما نحتاجه منه من مطالب لا حدود لها ، رغم سعيها لعدم الاكثار
منها ، خاصة عندما تكون الظروف الاقتصادية سيئة .



وكانت لوالدي ، رغم عدم اهتمامه بسمارسة السياسة ، ممارسة
يومية ، مواقف كنا نعزز بها ، وآراء لم نكن دائماً لنقتنع منه بها أو
تؤيده فيها .

في يوم ميسلون لم يكتف والدي بحمل السلاح بنفسه بل أخذ معه ابنه البكر فؤاد الذي كان آتئذ لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، والتحقا بالقوات التي توجهت لمقاتلة العدو ، بقيادة وزير الحربية الذي كان يقطن في نفس الشارع الذي تقع فيه دارنا في حي المهاجرين الجادة الثالثة .

ولكن لم يكد المتطوعان - الاب والابن - يصلان الى مكان المعركة ، حتى كان الجيش العربي الصغير قد اندحر أمام تفوق الجيش الفرنسي بالعدد والعتاد . وقد أسفر القتال القصير الذي دار في أرض المعركة ، عن استشهاد وزير الحربية القائد البطل يوسف العظمة وقد أثر أن يدخل الجيش الغازي على جسده حتى لا ترى عيناه مأساة احتلال أرض وطنه .

وابان الثورة السورية ، لم يأل والدي جهدا في دعم الثوار بالمال والسلاح والمؤن ، رغم الخسائر الكبيرة التي حلت به من جراء احراق القوات الفرنسية للمحاصيل الزراعية في قريته انتقاما من أصحابها الذين كانوا يمدون الثوار بالمساعدات على اختلاف أنواعها .

★ ★ ★

وقد اكتسب من عمله الزراعي خبرة واسعة ، وأحدث في ميدان العمل الزراعي مناهج وأساليب جديدة ، فأضحى بحد ذاته مدرسة يفيد ويقتبس منها سائر المزارعين في قرى القوطة .

ونظرا للثقة والاحترام للذين كان يتبع بهما في أوساط المزارعين الدمشقيين ، فقد انتخب رئيسا للغرفة الزراعية ، خلال عدة دورات انتخابية ، حيث كان يختاره زملاؤه اعتمادا منهم على خبرته وغيرته على مصالح الزراعة والمزارعين .

تعاقد ، في أول الثلاثينات ، أصحاب قرية البطيحة ، المتاخمة للحدود الفلسطينية ، مع شركة صهيونية على بيع أراضيهم الخصبية في القرية المذكورة . فتصدى والدي مع أعضاء الغرفة الزراعية لدعوة المزارعين في دمشق ، وعقدوا اجتماعا واسعا ضم عددا كبيرا من الاهلين ، وأثيرت فيه المخاطر والمحاذير الناجبة عن مثل هذا التصرف المريب . فأسفر الاجتماع عن اتفاق جناعي بالعمل والكفاح للحيلولة دون نفاذ عقد البيع . وسطرت برقيات الاحتجاج وعرائض الاستكثار الى المفوض السامي الفرنسي منذرة بسوء العواقب . كما وضعت الاسس لتأسيس شركة عربية مساهمة تتولى شراء واستثمار أراضي البطيحة . وكان بنتيجة الضغط الشعبي المتواصل ، والمراجعات المتعددة ، والاحتجاجات الصاخبة ، أن صدر قرار المفوض السامي بمنع بيع تلك الاراضي الغنية ، فظلت تحت ادارة أصحابها الى أن وقع العدوان الصهيوني صيف عام ١٩٦٧ ، فاستولى الاسرائيليون على أراضي القرية بكاملها بدون مقابل .



مرت الزراعة في البلاد السورية ، منذ بدء الاحتلال الفرنسي، وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، بظروف قاسية جدا ، منها الثورات المتعددة التي اجتاحت البلاد وأخسها بالذكر الثورة التي دارت رحاها في قرى الغوطة الشرقية ، وما رافقها من حرق المزارع والبيادر ، ثم الأزمة الاقتصادية العالمية وانعكاسها على أسعار المحاصيل الزراعية وانخفاضها والكساد ، وسياسة الافقار التي اتبعتها السلطات الفرنسية ضد البلد المحتل والناظر .

وقد تراكت على والدي الديون والهجوم ، الى أن جاءت

الحرب العالمية الثانية * وبالرغم من تدابير التمويل الشديدة ، فقد أدى ارتفاع الاسعار الى بعض الاتعاش في أحوال المزارعين * ولكن والدي عمى وبشكل مفاجيء ، وبعد عمل متواصل في الزراعة دام أكثر من نصف قرن ، الى بيع المزرعة الواسعة التي كان اشتراها قبل الحرب العالمية الاولى ، في قرية الريحان القريبة من دوما * وقد تكدر أفراد الاسرة جميعا من هذا التصرف غير المنتظر من مزارع عمت شهرته الآفاق * وتعرض والدي بسبب ذلك للوم الكثيرين من أهله وأصدقائه ؛ ولكنه ظل مصرا على رأيه الناتج عن ممارسته الطويلة ، وهي أن الارض لا يستحقها الا من يعمل فيها ، بانيا وجهة نظره على ملاحظة أن أولاده لا يسلون للعمل الزراعي ، وهم منصرفون لاعمالهم في الهندسة ، أو الجيش ، أو في حقل القانون *

وقد أراد بيعه المزرعة ، وبسعر منخفض ، أن يحلهم من عبء ادارتها الشاق العسير ، وأن لا يدعم أيضا عالة عليها * هكذا وقبل أن تغزو الافكار اليسارية عقول أبناء جيلنا ، كان يجذب والدي أيلولة الارض للعاملين فيها ، لأنهم الوحيدون القادرون على استتبات خيراتها *



كما لا تتفق دائما مع والدي حول آرائه وأفكاره الخاصة في القضايا العامة والحوادث السياسية * فهو مثلا كان يرى في الانقلاب الدستوري الكبير ضد نظام السلطنة العثماني وما رافقه من تصادم القوميتين العربية والتركية ، مؤامرة خطيرة ، من تدبير الدول الغربية الاستعمارية وعملائها الخونة من العرب والأتراك ، مهد بها المتآمرون السبيل لهجمة صليبية جديدة على البلاد العربية والاسلامية الموحدة

تحت نظام الخلافة ، بهدف تمزيق وحدتها والسيطرة على أجزائها ، في وقت كان فيه الرجل المريض بدأ ينفذ عوامل التراخي والمرض عن كاهله باتتهاج سياسة تحديثية في شتى مرافق الدولة وميادين الحياة .

وكان يردد على مسامعنا ، ونحن ما زلنا على مقاعد الدراسة ، أن الكثير من مظاهر التفسخ والانحلال ، والعديد من تصرفات الساسة وأخطائهم ، إنما هو تمهيد لسيطرة الصهاينة على هذه البلاد ، مع أننا كنا نرى ، في ذاك الحين المبكر ، أن اليهود قوم مستضعفون في بلاد العرب وفي العالم أجمع ، خاصة وأن الحركة النازية كانت تهدد وتعمل على محوهم من الوجود .



وعندما عمت البلاد السورية الاضطرابات بسبب خلاف الحكم الوطني الذي انبثق عن اعلان فرنسا الحرة على لسان قائدها الجنرال ديغول استقلال سورية ولبنان ، مع السلطات الفرنسية حول مستقبل الجيش ، كان والدي مع كرهه الشديد للفرنسيين ، يلاحظ أن استلام الجيش ، وزمام قيادته ، وإدارة شؤونه ، ليست مسألة بالسهولة التي يراها جيلنا المتحس لتحقيق أهدافه الوطنية ، لأن القيادة تحتاج لأناس صناديد لا يرقى الى وطنيتهم الشك ، ولا الى كفاءتهم وحنكتهم العسكرية الضعف أو الوهن . وكان يعيد الى أذهاننا سيرة الانكشاريين وغيرهم من العساكر الاتراك الذين رغم كونهم من أبناء البلاد العثمانية ، قد أنهكوا الدولة ، وعزلوا من حيث النتيجة على انهيارها ، لكثرة ما كانوا يتيرونه في وجه السلطنة ، من مشاكل ومتاعب ناتجة عن عصيانهم وتردهم ، ومحاولاتهم الانقلابية المتكررة . ولكننا كنا نرى ، على عكسه ، ان الجيش

العامل تحت العلم الوطني هو عنوان السيادة ، وبدونه لا يمكن أن يحقق الاستقلال الغاية المنشودة منه ، وأن الخبرات والكفاءات ستظهر وتتكون من خلال الممارسة والبناء . وكان هو بالمقابل يشير الى أن الاستقلال لن يكون الا شيئا صوريا ، في ظل نفوذ الدول الكبرى ، وأن الاجنبي لن يخرج من الباب حتى يعود الينا من النافذة ، « ولا تستغربوا يا أبناءني أبدا أن يفتح له العساكر هذه النافذة ويصبحوا مطايا للعودة الى السيطرة على دياركم » .



وبعد صدور قرار هيئة الامم بتقسيم فلسطين ، ولما لاحت في الافق بوادر قيام الدولة الصهيونية وبدأت في مطلع عام ١٩٤٨ قوافل اللاجئين الفلسطينيين العرب تتوافد الى سورية والاقطار العربية المتاخمة لفلسطين ، وعندما عمدت الحكومة السورية لتأسيس مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين التي أسندت مديريتها الى ابن عمي السيد منير المالكي ، وكانت المظاهرات آتتد تعم أنحاء البلاد العربية مطالبة بدخول الجيوش العربية لتحرير الاراضي المقدسة واعادتها سليمة سالمة لاصحابها الشرعيين ، ثارت نائرة والدي ، واستنكر اسهام ابن أخيه في عمل خطير لا يدرك ما يخفيه الساسة من ورائه من مقاصد ، ورأى في الجو مؤامرة ضخمة تستهدف اخلاء الاراضي العربية من سكانها العرب لتسليمها الى الصهاينة ، وحذر من الخدعة الكبرى التي لاحظ أن الشعب العربي سيذهب ضحيتها ، لأنه كان يرى أن العبء الأكبر في الذود عن حياض الوطن الفلسطيني انما يقع في الدرجة الاولى على عاتق الفلسطينيين أنفسهم الذين يجب منعهم من الخروج من ديارهم ، وأن على الحكومات العربية أن تمددهم بالمساعدات المالية والخبرات العسكرية لتشكيل فرق مقاومة ، وهي

لو فعلت ذلك وأعطتهم ولو عشر الاسلحة التي كانت الجيوش العربية مزودة بها ، لتسكنت المقاومة الفلسطينية من وضع العراقيل في وجه انشاء الدولة المصطنعة وعدم اعطائها فرصة للاستقرار *

كان يشيد بشجاعة الفلسطينيين وقدرتهم على القتال والمقاومة فيما لو شجعتهم الحكومات العربية على اتباع هذا الطريق الوطني الصحيح ، وكان يحذر سلفا من أن الجيوش العربية لن تحارب باخلاص وبهدف التحرير ، ما دامت الحكومات العربية خاضعة لسيطرة قوات الاحتلال الاستعمارية أو للنفوذ الاجنبي *

ولما كنا نرد على كلامه بأن المعركة قد تكلف الفلسطينيين كثيرا من الضحايا والدماء ، في حين أن قيام الجيوش النظامية بهذا الواجب القومي لن يكلفها أكثر من مناورة حربية أو نزهة عسكرية للقضاء على شراذم المعتدين الغاصبين ، كما كانت دعاية أجهزة الاعلام تزين للرأي العام العربي ذلك ، كان يرفض هذه الحجج بشدة ، منددا بعدم هضمنا لدروس التاريخ التي تلقيناها في المدارس ، مؤكدا أن كفاح الأمم لم يسجل حادثة واحدة ، خرج فيها الشعب من وطنه بأمل أن تأتي جيوش صديقة من الخارج ، لتحرر الارض المغتصبة وتعيدها لأصحابها الشرعيين *

وما كادت الجيوش العربية تتصدى بفعل السياسة العربية لاعادة الحق الى نصابه ، حتى انعكست الآية واستولى الصهاينة الدخلاء على جزء كبير من الاراضي العربية يفوق الحد الذي خصصه لهم قرار التقسيم الصادر عن هيئة الأمم المتحدة ، بالرغم من المحاولات اليائسة التي قامت بها بعض القطعات العسكرية العربية لدحر القوات المعادية *

★ ★ ★

وابان المعركة التي خاضها الجيش السوري في شمالي فلسطين في مناطق سسخ والحولة والجليل الاعلى ، كان أخي عدنان بناء على موافقة القيادة العامة وبعد الحاح منه ومن زملائه وطلابهم ، اختصر دورة الكلية العسكرية التي كان أمرا لها ذلك العام والتحق مع عناصر الكلية العسكرية بالجبهة السورية ، ولما قدم من حمص معرجاً على دمشق في طريقه الى خط النار ، وزار أهله مودعا والديه واخوته ، كان المشهد الرائع الذي لا ينسى ، مشهد الاب الذي يشجع ولده على خوض المعركة بثبات وشجاعة ، كما يبلّيه عليه الواجب الوطني وشرف السلاح واللباس العسكري ، محذرا من التراجع أو الانسحاب أمام هجمات اليهود الغادرة ، متوعدا اياه بأنه سيتبرأ منه ان عاد اليه منكسرا ، واضعا اياه أمام اختيار صعب ولكنه حلو في الحالتين، الشهادة في سبيل الوطن أو النصر على الاعداء المجرمين . فكان جواب الابن البار : « ليك ، يا أبتاه .. سأسير على الدرب الذي رسمته لي ، ولن أكون الا بارا بهذا الوطن الذي أعطاني الحياة ، وبهذا البيت الذي رضعت فيه الاخلاص مع اللبن » .

وبعد أن أخذ الضابط الشاب غفوة في سريره ليرتاح من وعثاء السفر بانتظار تحرك قطعته نحو خط النار ، كان المشهد الاكثر روعة، مشهد الأم الرؤوم ، وهي تلس جبين ولدها بكفها ، موقظة اياه بلطف وحنان ، وتناوله سلاحه بيدها الاخرى ، منادية اياه : « هيا يا عدنان ، حان الوقت ، حي على الجهاد » ..

ويتجه الضابط الشاب الشجاع الى جبهة القتال بخطى قوية ثابتة ليتسلم قيادة سرية مشاة مؤلفة بمعظمها من عناصر احتياطية كانت خدمت أيام الاحتلال ، وسيقت الى جبهة القتال ، على عجل ، وفي ظروف المعركة .

ولا تكاد الاوامر تصدر الى القطعة العسكرية الصغيرة ، حتى تندفع بقوة بقيادة آمرها الضابط الذي استطاع أن يوقد لهيب الحماس في نفوس جنوده البواسل ؛ ويخوض الجبيع معركة ضارية يتحقق في نهايتها انتصار عسكري باهر باحتلال موقع استراتيجي هام مشرف على مستعمرة مشسار هايردن في منطقة كعوش التي احتلها قبل فترة قصيرة الفدائيون الشراكسة بقيادة العقيد محمود بنيان •

ولا تلبث السرية نفسها أن تصد في مطلع فجر اليوم التالي ، هجوما مضادا شنه عدد كبير من المقاتلين الصهاينة بأمل استرجاع التل ، وتبيدهم عن بكرة أبيهم • فتعلن القيادة بعد ذلك عن تسمية هذا المرتفع المعروف باسم (تل أبو الريش) بـ (تل المالكي) ، تقديرا منها للعمل البطولي الذي قام به الضابط المغوار وجنوده الشجعان ، وضربوا بواسطته المثل على القدرة القتالية للجندي السوري •

ويعقب في المدينة ، بعد وصول خبر المعركة ، أريج البطولة ؛ ويملاً صدور أهل البيت الأبوي شعور بالاعتزاز والفخر •

أليس البيت هو المدرسة الأولى التي تخرس في نفس الابناء حب الوطن ومبادئ الاخلاص والتضحية ؟ فمن حق أصحاب هذه المدرسة أن يعجبوا لا انتصار واحد من أبنائها البررة المخلصين ...



وبعد انقضاء الهدنة الأولى المشؤومة ، والعودة لاستئناف القتال ، نال عدنان وساما رفيعا كان في نظر أهله ورفاقه ، أهم من سائر الاوسمة التي نالها في الماضي وبعد انتصاره في المعركة الاولى؛

وهو الجرح البليغ الذي انساب منه الدم الطاهر الزكي في مؤخرة رأسه بعد اصابة غادرة بنيران العدو .

وابتهج والدي بذلك مشيرا الى أنه بعد أن دنست قوى الاحتلال والاعتصاب أرض الوطن ، لم يعد ثمة طريق لتحريرها من براثن الاعداء ، الا سكب المزيد من الدماء على طريق الشرف والتضحية ، مشيرا الى أن الكفاح لا يكون بترديد الهتافات الرنانة والشعارات الزائفة التي يجترها تجار السياسة في خطاباتهم وتصريحاتهم عبر الصحف والاذاعات ، بل ان سبيل النصر هو الطريق الذي سار عليه عدنان وزملاؤه وجنوده الشجعان ورصفه قبلهم الشهداء الابرار بدمائهم وتضحياتهم .

★ ★ ★

وتمضي الايام وتحدث النكسة العربية عام ١٩٤٨ آثارها في صفوف العرب عامة والعسكريين منهم خاصة ، وتلحظ الدبلوماسية الاميركية تأجج البركان من تحت رماد غضبة الجماهير العربية ، وتضرب ضربتها المحكمة الاولى في مركز الخطر ، في سورية الحبيبة . فكان الانقلاب الاول ، انقلاب قائد الجيش السوري الزعيم حسني الزعيم .

وقد اشترك عدنان مع ضباط الجيش السوري في تنفيذ أوامر قائدهم ، يحفزهم في ذلك شعور واحد ، هو أن ما يقوم به الجيش هو في مصلحة وطنهم وأمتهم ، دون أن يدركوا خطورة الاجراء وما سيورثه لجيشهم ووطنهم من مضاعفات خطيرة .

وبعد غياب يومين أو ثلاثة بسبب حالة الاستنفار التي رافقت وأعقبت الانقلاب ، عاد عدنان الى البيت ليستقبله والده باللوم والتقريع مستكرا هذا الذي أقدم عليه الجيش بكامله .

لم يكن عدنان هو صاحب فكرة الانقلاب ، وان كان لم يعارض فيها لدى شروع الزعيم بتنفيذ خطته في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ • ولكن والدي لم يقبل من ولده أية حجة أو عذر فيما اجترحته أسلحة الجيش الفتى • وقد ندد بشدة بالانقلاب الذي لم يكن في نظره أرقى من انقلابات الانكشاريين الذين هدموا الامبراطورية العثمانية ، وأنه حسب تقديره سيكون فاتحة لسلسلة من الانقلابات العسكرية التي لن يكون لها آخر • وقدر أنه بعد هذه الخطوة المريبة ، لن تقوم لهذا الجيش ولا لهذه البلاد قائمة ، شاجبا بشدة تدخل الجيش في السياسة ، منذرا بأن انغماس العسكريين فيها وتدخلهم في شؤون الحكم وصراعتهم على السلطة سيؤدي من حيث النتيجة الى فقدان الزمام والانضباط داخل الجيش ، وسيطرة الفوضى في البلاد ، مع ما ستجرحه هذه الفوضى من فرص موالية لاعداء البلاد لفرض سيطرتهم عليها • وكنا ، نحن أولاده ، نحيط به آتئذ ، فالتفت إلينا قائلاً : « ولا تستغربوا أبدا ان رأيتم في المستقبل القريب هؤلاء الضباط يتساقطون صرعى على أيدي بعضهم بعضا ، لا في جبهة القتال ، بل في شوارع المدن السورية ، بعيدا عن خطوط النار ، نتيجة ما سينشأ بينهم من خصومات وما سيحكه لهم الأجنبي من دسائس ومؤامرات لالهائهم عن واجبهم الاساسي ، وهو الذود عن حياض الوطن وحماية حدوده وأمنه وسلامته » •

لقد أدرك والدي ، بحدسه الخاص ، عمق الهوة التي ستردى إليها أحوال البلاد ؛ ورأى في تحرك القطعات العسكرية من القنيطرة الى العاصمة ، وتركها الحدود المتاخمة للأراضي الفلسطينية المحتلة شبه خالية أمام القوات المعادية ، بادرة تشير الى أن العدو هو الطرف الوحيد الذي سيستفيد من هذا التحرك المعكوس الاتجاه ، والمشبوه القصد •

ولم يفته التنبيه الى أن أصابع الاجنبي هي وراء خطة الانقلاب
المشؤوم .

ولما ذكر عدنان أن مثل هذا الشك ورد على أذهان الضباط
الذين لم ينفذوا أوامر قائدهم بالتحرك ، الا بعد أن أقسم لهم على
القرآن وبشرفه العسكري بأن حركته خالية من أي تدخل أو علاقة
أجنبية ، وأن الجيش بقيادته لن يلبث الا أياما معدودات يقضي
خلالها على مكامن الفساد ، ليعود بعد ذلك الى ثكناته تاركا زمام
الحكم للشعب ولمثليه الشرعيين ، لم يقنع والدي بهذا الكلام مؤكدا
أن المستقبل سيكشف عكسه .



وعندما اغتيل أخي عدنان ، تنفيذاً لمؤامرة استعمارية لئيمة ،
وراح ضحية الواجب وشهيد الوطن ، أبدى بعض زملائه الغيورين
الاهتمام بتخصيص راتب مواساة لوالديه وشقيقاته العازبات ، كما
هي السنة المتبعة في مثل هذه الحالة ، خاصة وأنهم لم يستفيدوا من
قانون تقاعد العسكريين لنقص في نصوصه المطبقة آنذاك . كما
اقترح البعض الآخر عرض الموضوع على مجلس الوزراء الذي له
الحق ، حسب صلاحياته ، بتخصيص تعويض لمن يقضي من موظفي
الدولة أثناء قيامه بالواجب .

ولما أحطت والدي علما بتلك الاقتراحات ، رفضها بشدة ،
ونهاني عن متابعة البحث في هذا الموضوع ، وعن بذل أي مسعى
في سبيل تحقيقه ، وقال لي : « لقد كان أخوك يمد قدمه في مجابهة
جميع الاغراءات ، فكيف نقبل نحن أن نسط يدنا لأولئك الذين
كانوا دائماً يصطدمون بسواقفه الصلبة الثابتة التي لم يزحزحه عنها

الا مصرعه الذي لا يستبعد أن يكون بعض هؤلاء قد أسهم فيه بشكل أو آخر » •

وكان والدي ثاقب النظر عندما تنبأ ، في معرض رفضه لفكرة السعي لاستصدار قانون أو مرسوم يقضي بتخصيص راتب الموازنة لأسرة شهيد وهب دمه وحياته لوطنه ، بأن أولئك الذين في يدهم الحل والربط لن يلبثوا أن يخلصوا أنفسهم بالرواتب والعتاءات ، دون أن ينسوا مكافأة الذين سفكوا دم ابنه ••



وكان والدي قد أنف سابقا من مقاضاة الدولة للمطالبة بتعويض الطارئ عن وفاة ابنه البكر المهندس الكهربائي محمد فؤاد الذي كان يعمل في مصلحة الهاتف الآلي ، وتوفي عن ثلاثة وأربعين عاما بسبب ضربة شمس حادة أصابته ظهيرة يوم حار من صيف عام ١٩٤٩ لدى تعطل السيارة التي كان يقفه فيها سائق أرعن ترك الطريق المعبدة ليسير في الاراضي الوعرة الموصلة الى مركز البث الاذاعي في قرية الصبورة •

وقد أخذ والدي على عاتقه تربية أحفاده الاربعة الذين حرّمهم ديوان المحاسبات من التعويض الذي خصصته لهم الادارة عن وفاة والدهم في وقت لم تكن فيه أكبرهم تجاوز الرابعة من عمرها بينما كان أصغرهم طفلا رضيعا • وقد اكتفى والدي بشرف سقوط ابنه البكر في ساحة الواجب •

كما اكتفى بعدئذ ، لدى استشهاد ابنه الاوسط عدنان ، بوسام الشرف الذي صدر المرسوم بتخصيصه له بعد الوفاة ،

بدرجة فارس ، وهي أدنى مراتب هذا الوسام ، لأن الدرجة الاعلى
منه لا يمكن قانونا أن تمنح الا لمن حاز قبلها على الدرجة الادنى •



ولدى قيام الوحدة بين القطرين العربيين السوري والمصري
عام ١٩٥٨ ، وكان والدي في الرابعة والثمانين من عمره ، لم يظهر
تفاؤله بالحدث القومي الهام نظرا للشكل الذي سارت عليه الامور
لدى اعلان وحدة القطرين ، ولم يتوقع النجاح لهذه الخطوة الاولى
في طريق الوحدة الكبرى •

وكان رأيہ أن « الطبخة سلت سلقا » وأن الاسس التي بنيت
عليها واهية ولن تساعد على النمو والتطور والاستقرار • وتعجب
كثيرا لانجراف السياسيين والاحزاب مع موجة العاطفة والحساس
التي رافقت الخطوة ، وأعمتهم عن التبصر في عواقب الامور •

وكانت حجته في ذلك أن سورية تستع بنظام ديمقراطي برلماني،
ومصر تعيش في ظل نظام حكم عسكري ، وأن هذا النظام لن يلبث
أن يعم البلدين ويقضي على جميع ما حققه الشعب العربي في سورية
ضد نظام الحكم العسكري الدكتاتوري الذي أقامه الزعيم أديب
الشيكلي ، والذي ساهمنا نحن في محاربته واسقاطه • ولم يقنع
بالخطوات الدستورية التي أعلن عنها حكام البلدين لدى اتفاقهم
على اقامة الوحدة ، معتبرا أن ما يأتي عن غير طريق الشعب ، لا يكون
أبدا في مصلحة الشعب ، وكنا في محيطنا العائلي كغيرنا من أبناء
الشعب مندفعين بعاطفتنا القومية ، غير آبهين بما كان يصدر عن
والدنا المسن من آراء وتوجيهات يدعو فيها للتأني في معالجة القضايا
الكبرى وللحذر مما يكيدته الاعداء لشعبنا وأمتنا العربية • وكنا

نعزو مناقضة آراء والدنا لخطواتنا واتجاهنا الى عامل السن
والشيخوخة ، والى وضعه الصحي وبعده عن الممارسة السياسية ،
معتقدين بخطأ وجهات نظره ، وموقنين بأن ما تسير عليه الامور في
وطننا وعلى أيدي قادتنا المخلصين ، وبشاركتنا العاطفية والوجدانية،
هو الحق والصواب معا ♦

على مقاعد الدراسة

قيم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

« أحمد شوقي »

رافقت بعض اخوتي الى « الخوجا » التي كانت تعتبر بمثابة دار حضانة لمن هم دون السن التي تخولهم الالتساب الى المدارس الرسمية . ولكني لم أمكث في الحضانة مدة طويلة ، اذ انتسبت بعد ذلك الى المدرسة الابتدائية في حي المهاجرين ، وكانت مدرسة حكومية نموذجية كان يديرها مدير قدير ، هو الاستاذ توفيق ميخائيل افرام ، وكان فيها عدد من المعلمين الاكفاء الذين لمع نجم بعضهم في ميدان التعليم ، كالاستاذ محب الله النابلسي ، والاستاذ بكري قدورة ، والاستاذ جودت عصاصة وغيرهم .

وكان معلم الديانة الشيخ حامد التقي رجل علم وفقه ؛ وكان يؤم التلاميذ ، في مسجد « الشمسية » المقابل لبناء المدرسة ، لدى

أدائهم الصلاة التي كانت الزامية في عموم المدارس • وكان المعلمون يتناوبون مراقبة التلاميذ لدى أدائهم هذه الفريضة الاجبارية • والطريف أن معلم اللغة الفرنسية ، وهو شاب موسوي قصير القامة ، كثير الحيوية ، شديد الذكاء اسمه ناتان برسيادو ، كان أشد هؤلاء وطأة على تلاميذ المدرسة ، حيث أن واحدا منهم لم يكن يستطيع ، في فترة نوبته ، الافلات من الوضوء ، أو التهرب من أداء الصلاة ، أو الاتيان بحركات الطيش والشيطنة أثناء الصلاة • وكان التلاميذ يحتجون لدى الادارة لسماحها ليهودي بدخول المسجد ، والدفاع للاحتجاج لم يكن طبعا التعصب الديني ، بل الامل بالخلاص من سطوة ذلك المراقب الصارم •

★ ★ ★

في يوم من الايام وأثناء الفرصة التي تتخلل ساعات الدراسة في المدرسة ، رمى لي تلميذ الطربوش من على رأسي وألقاه على الارض ، وكان لبس الطربوش الزاميا في ذلك الوقت في عموم المدارس • فذهبت الى المراقب المناوب ، وكان الاستاذ برسيادو ، أشكو اليه التلميذ المعتدي ، فأجابني : « أليست لك يدان كزميلك ، وأليس يرتدي طربوشا مثلك ؟ اذهب اليه وقابله بالمثل • » ففعلت بتوجيهه ، وألقيت بطربوش رفيق الدراسة على الارض • وقد نبهني هذا الدرس الى أن اليهودي ليس عنصرا مستكينا مسالما ، كما كنا نتصوره ، بل هو يأخذ ببادئ شريعة الغاب ، حيث لا بد للقوة من أن تجابه بشلها ، والعنف من أن يرد عليه بالعنف •

★ ★ ★

دخلت أول الامر الى الصف التحضيري ، وكان يسى صف الشعبة • وفي صباح أحد الايام انطلق من مئذنه المسجد المقابل

للمدرسة صوت المؤذن ينعي وفاة الضابط المتقاعد السيد سليم المالكي ، ولما سألتني المعلم الاستاذ مسلم المصري عن القرابة التي تربطني بالمتوفى ، أظهرت جهلي بذلك ؛ فما كان منه الا أن «دحّني» بقبضة يده على ظهري مستنكرا تجاهلي قرابة عمي ، شقيق والدي ، الذي كان يعرفه حق المعرفة .

والسبب في كل ما جرى هو أن عمي ، كان قبل يوم واحد في زيارتنا ملء السمع والبصر ، وقد توفي صباح اليوم التالي ، فلم يخطر ببالي ، في تلك السن المبكرة ، أن المرء يموت بهذه السرعة والسهولة ؛ ولأول مرة في حياتي شعرت بالظلم يمكن أن يقع على الانسان بدون ذنب يقترفه .

★ ★ ★

تولى تدريسنا في الصف الاول والثاني الاستاذ جودت عصاصة، فكان لأسلوبه في تشجيع تلامذته المجدين منهم أثر كبير في تشويقهم للدراسة والاجتهاد . وكان كلما أجاد التلميذ في الاجابة على أسئلته، أعطاه من جيبه « سكرة مطعمة » . . . وكنت أنظر الى هذه المكافأة العينية نظرة معنوية خاصة ؛ فكنت أجمعها الى بعضها ، حتى تجمع لدي منها خلال السنة الدراسية ، كيس صغير كنت أفرح بحمله في البيت أيا فرح لأنه كان عنوان الفوز والنجاح .

كان من بين أترابنا في المدرسة الابتدائية تلميذ يقطن مع أهله بجوارنا ، وهم من آل المرستاني ؛ ولم ينه دراسته الثانوية ، حيث التحق بسلك الشرطة المدنية . وفي عام ١٩٤٨ تطوع في جيش الانقاذ، وقاتل بشجاعة ، حتى صرعه رصاص العدو الغادر ، وسقط في ميدان الشرف والتضحية وخط بدمه الطاهر الزكي ، وفي سجل الشهادة والخطود ، اسمه الكريم « مصباح المرستاني » .

★ ★ ★

ذهبت مرة الى سوق الكتب في المسكية ، المتاخمة للجامع
الاموي الكبير ، بقصد شراء كتيبي المدرسية ، بعد أن سمعت من
أترابي في المدرسة أن الكتب والدفاتر المدرسية تباع هناك بسعر
أرخص ، وقد استقلت حافلة الترام ذهابا وايابا في سفرتي هذه من
حي المهاجرين الى سوق الحديدية ، ووقفت عند بائع كتب ، وكان
شيخا مسنا ذا لحية كثة وخطها الشيب ، ويضع على رأسه عمامة من
نوع الاغباني ، وهي عبارة عن طربوش أحمر يلتف حوله بشكل
متصالب قماش بلون سكري ومطرز بخيوط ذات لون بني فاتح .

فاشترت حوائجي من الكتب والدفاتر ، وفقدته الشن ، وعدت
فرحا بصفتي الى الدار حيث نلت « علقة ساخنة » لتأخري عن الموعد
المحدد لي . وكانت خيبة الامل المرة عندما ذهبت ، في اليوم التالي،
الى المدرسة ، وعلمت من رفاقي ، أن السعر الذي اشترؤا به ذات
الكتب من مكاتب حي المهاجرين كان أرخص من السعر الذي
اشترت به كتيبي من السوق الرئيسية . فتسلكني الغيظ ، وعدت في
فترة الظهيرة لمقابلة الشيخ ، بائع الكتب في سوق المسكية ، محتجا
على ما لحق بي من غبن في الصفقة التي عقدتها معه ، وقد نددت
بطريقته في البيع وصارحته بأنها لا تتفق مع حرمة المظهر الذي يظهر
به ، والزي الذي يرتديه ، والعمامة المهيبة التي يخدع بها الناس .
فأجابني بتروا وبرود عجيبين : « يا بني لا تخطيء ، فهذه العمامة
حسابها ليس معك ، بل مع ربي ؛ أما بالنسبة للشن الذي تقاضيته
منك ، فهو حلال علي ، لأن تجارتي تقوم على الربح ، والبيع والشراء
يقومان على المساومة ؛ وأنت اشترت مني دون أن تساومني ؛ فهذا
درس كلفك بعض المال ، كما تكلفك الدروس التي تتلقاها في المدرسة ؛
فاذا وقفت مرة ثانية عند بائع أو تعاملت مع انسان ، فايالك أن تشق
بكلامه وحتى بسا يطلقه من قسم وأيسان مغلفة » . وكان هذا الكلام

درسا عمليا ، وان كنت لم أفد منه كثيرا في حياتي ، لأنني سرعان ما
كنت أثق بالناس ، ومظاهرهم ، وكلامهم المعسول ، وإيسانهم المقدسة .

★ ★ ★

ومرة أخرى كنت عائدا من سوق الحميدية لاستقل الترامواي
من ساحة الشهداء - المرجة - الى حي المهاجرين حيث كنت أقطن
مع أسرتي، فسرت في شارع السنجقदार ، وكانت تعم جوانبه الخرائب
المتخلفة عن الحريق الكبير الذي حصل في المدينة أيام ضربها من قبل
الجنود الفرنسيين . وفي إحدى هذه الخرائب شاهدت جمهورا غفيرا
من الناس يلتف بشكل دائري حول رجل ذي صوت جهوري ؛
فدفعني حب الاطلاع للتسلل من بين الناس المتجمهرين ، وتخطي
صنوفهم الى الامام . . . وطالعتني منظر ذاك الرجل الذي يشبه المارد،
بقامته الطويلة المديدة ، ووجهه العريض ، وجبينه العالي ، ولونه
الاسمر الداكن ، وحديثه الطلق ، وليجته المصرية المحببة . . . وكان
يمد على الارض قطعة من القماش وفوقها سلة من القصب . . .

وقد دهشت لما كان يقوم به من حركات ، وما يؤديه من أفعال
تبهير الانظار . أخرج من السلة الخالية أمامه ، كأسا فارغا من الزجاج
الشفاف ، ومد أصابعه الطويلة اليه ، فأخرج بيضة ، وفقس البيضة
على مرأى من الناس ، وأطل من بين قشرتها المحطمة أرنب أبيض
يعادل حجمه عشرين بيضة وأكثر ، حمله الرجل من أذنيه والحيوان
الصغير يزغق ، ويضرب بقدميه .

وبعد وضع الارنب والكأس الزجاجي الفارغ في السلة الخاوية،
يعود المارد لخراج سيف حديدي طويل من السلة ، وهو أطول منها
بمرات ، ويدخله في فمه ويتلع نسله بكامله ، والمتفرجون يلتقطون
أنفاسهم لهول المشهد . وفي هذه الغمرة يتجه المارد نحو بعض

الواقفين ، ويبدأ باخراج العملة الذهبية من آذانهم وأنوفهم ، وتنهزم
الليرات العشائية الصفراء البراقة بكثرة أمام عيون النظارة ، ويخطف
بريقها أبصارهم • ولكن المشهد ينتهي فجأة وبسرعة ، لدى قدوم
« دورية » الشرطة • ويلمح البصر ، يختفي المارد ، وتختفي معه
ليراته ، وسيفه ، وأرنه وسلته ، ولا يظهر له في الساحة أو الشارع
أي أثر • وأستغرب أنا بيني وبين نفسي كيف يطارد رجال الشرطة
رجلا ، لو وضعت الدولة تحت تصرفها أو بوائه سدة الحكم فيها ،
واستفادت من عبقرية الفذة ، لملأ خزائنها بالذهب ، ولزداد عن حياضها
بسيفه ، وأرهب أعداءها بامكاناته الخارقة ، وكسب تأييد رعاياها ،
بقدرته العجيبة على الكلام ، والاقناع •

ولكن ما أن أصل الى البيت وأروي لاختوتي الكبار ما شاهدته،
بأم عيني ، وما تركه المشهد الرائع في نفسي ، من دهشة وانطباع ،
حتى يسخروا من سذاجتي ويحذروني من التأثير بالمظاهر ، ويفهموني
أن المارد الذي امتلك حواسي ومشاعري ، ليس الا حاويا دجالا ،
يعتمد في حركاته على خداع النظر ، وأنه أجدى للسوء في حياته أن
يتفادى الوقوع في حائل أمثال هذا الانسان المخادع ، لأن من
تنطلي عليه الخديعة في أي شأن كان ، لن يجني من حيث النتيجة
الا الخيبة ، عندما تتكشف له الامور على حقيقتها وتنهض أمام عينه،
بدون طلاء أو تزييف •

★ ★ ★

كان المنظر مضحكا ، يوم اجتزت فحص الشهادة الابتدائية ،
فقد صدف أن أصبت بالتهاب شديد في اللوزتين ؛ وكان مثل هذا
المرض يعالج بلمصقة نشاء مطبوخ توضع عند الرقبة ، وتربط من
جهة الرأس • وقد حاول أهلي منعي من الذهاب الى الفحص خوفا

على صحتي ، لأن حرارتي كانت مرتفعة ، ولكني لم أسايرهم حرصا على عدم الرسوب ، واعدادة السنة الدراسية . فذهبت الى الفحص و « اللبخة » - كما كانوا يسمونها - تغمر وجهي ، والطربوش يربض فوقها على رأسي ، ولكن الحظ أسعفني ، فكنت من الناجحين . وبعدئذ انتسبت الى مدرسة الاخوة المريميين « الفرير » ، وكانت المدرسة الاولى في المدينة . وكان الاقبال عليها شديدا ، نظرا للنظام الصارم المتبع فيها . وقد كلفني الانتساب الى هذه المدرسة ، التراجع صفين ، لأنني كنت ضعيفا في اللغة الفرنسية ، وكانت جميع المواد تدرس بهذه اللغة ، فيما عدا اللغة العربية طبعا ، وكانت لها صفوفها الخاصة بها .

وقد تعرفت في تلك المدرسة ، على طالب تبدو عليه منذ حداثةه ، سيماء الفروسيه والشجاعة ، وهو السيد احسان كم الماز . وقد انتسب بعدئذ الى الكلية الحربية وتخرج منها ضابطا . وفي حرب فلسطين ، التحق بجيش الانقاذ ، وأبلى في القتال بلاء شديدا .

ومن مآثره المشهودة ، أنه درب في وقت قصير عددا من أهالي مدينة صفد على القتال ، وتولى معهم حماية المدينة ومرتفعاتها من هجمات الصهاينة الغادرين . ولكن أمرا مربيا صدر اليه وأقصاه عن المواقع الحصينة التي كان يحتلها مع رجال المقاومة الفلسطينيين الاشداء . ثم أقحم الضابط البطل في منطقة كان يكمن فيها الاعداء وسقط جريحا على مرأى من جنوده الذين اضطروا لتركه في أرض المعركة ، لغزارة النيران المنصبه عليهم من أسلحة العدو ، واختفى أثره بعد ذلك .

وصنفته سجلات جيشه الوطني ، في عداد شهداء الامة الابرار ، بينما ظلت والدته الشكلى ، وهي شقيقة الزعيم حسني الزعيم ، تعتقد

أن ابنها الغالي ما زال على قيد الحياة ، يعاني من جور أسريه
الاسرائيليين •

★ ★ ★

قررت ادارة مدرسة (الفرير) أثناء الاضراب الكبير الذي عم
البلاد عام ١٩٣٦ ، فصلي أنا وأخي من المدرسة وعدم السماح بعودتنا
ليها الا اذا حضر ولي أمرنا وتعهد بأن لا تقدم مرة ثانية على مثل
العسل الذي كان سبب التدبير المتخذ بحقنا والنتائج عن اخبار الادارة
من قبل بعض الطلاب ، بأتنا عرضناهم على الاضراب • كانت المدرسة
تتساهل مع المضرين ، أما من يحرض على الاضراب فكان عقابه لديها
الفصل المحتتم • وقد رفض والدي تنفيذ شرط المدرسة لعودتنا الى
متابعة الدراسة ، بعد أن كان ينهانا بقسوة عن الاضراب ، بحجة
أن اغتراف العلم أجدى من الامساك عنه • ولكن الادارة تراجعت
عن اجرائها الصارم ، بعد أن لاحظت تضامن الطلاب مع بعضهم ،
وتهديدهم لها بمقاطعة المدرسة نهائيا ، ان لم تعدل عن قرارها باعادة
جميع الطلاب المفصولين لمتابعة دراستهم •

★ ★ ★

كنت آنئذ في الرابعة عشرة من عمري ، وفي بدء تفتح وعيي
على حقيقة ما يجري على أرض هذا الوطن : الشعب من جهة يشكل
كتلة واحدة متراسة يسير وراء قيادته الوطنية وينافح عن كرامته
ويقارع المستعمر الباغي ، وتتصدى له قوى الاحتلال من جهة ثانية
وهي مدججة بأعتى الاسلحة الحربية الحديثة لتعن في اعتدائها على
الشعب الاعزل من السلاح •

كانت قوات الاحتلال أثناء فترة الاضطرابات والمظاهرات ، تنشر
قطعاتها المسلحة في شوارع المدينة دمشق ، بشكل واسع وكثيف

بقصد ارباب الاهلين وقمع حركة التمرد . كانت الدبابات والمصفحات تسأ الشوارع الرئيسية ، وكان أبناء المدينة البواسل يواصلون هجماتهم على الجنود الفرنسيين وقوات الامن الخاضعة لهم ، وسلاحهم الاساسي هو الحجارة ؛ وكانت الحراسة تبلغ لدى بعض شبان حي الشاغور المجاهد اقتحام بعض آليات العدو المدرعة وذبح سدتها بالخناجر والسكاكين . وفي شارع النصر الممتد من ساحة محطة الخط الحديدي الحجازي حتى سوق الحديدية ، تكررت مثل هذه الحوادث أكثر من مرة .

وفي حي المهاجرين ، حيث كنا نقطن ، كان يتعذر على القوات الآلية التوغل في جاداته المرتفعة ، وشعابه المتعددة والشديدة الانحدار ، حذر الوقوع في كسائن الاهلين .

فكانت القوات الفرنسية تعتمد ، بشكل خاص ، على مفارز من الجنود الخيالة يجوبون الطرقات بسرعة البرق ، شاهرين سيوفهم ، وملوحين بها في الفضاء لتشتيت تجمعات المتظاهرين . وكان مألوفاً منظر الخيال يتدحرج هو وحصانه وسيفه على الارض بفعل حجر يندفع بقوة من يد أحد المتظاهرين ليصيب الراحلة أو راحبها اصابة دامية مباشرة .



لقد ذاق الاجنبي الدخيل على هذا الوطن الذل والهوان على أيدي أبناء الشعب العربي في سورية ، ولم يكن في الاوساط الشعبية محل للاعتذار بأن المعركة غير المتكافئة تبرر للشعب الاعزل من السلاح بأن يستكين ويخضع أمام عدوه المدجج حتى أسنانه بالاسلحة الحربية الفتاكة . كان لهيب الحساس يتزايد ويتأجج كلما ارتكب الغاصب المحتل المزيد من اعتداءاته وحقاقاته . وكان الشعار المحب

الى النفوس والذي تردده حاجر الاهلين قبل قادة الكفاح (لا مفاوضة قبل الجلاء) . وقد خسر زعماء الكتلة الوطنية الكثير من اعتبارهم السياسي والمعنوي ، رغم جهادهم المتواصل وحسن بلائهم في معارك الكفاح والثورة ، عندما شرعوا باجراء المفاوضات مع السلطات الفرنسية في باريس بقصد الوصول الى عقد المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التي نكست الحكومة الفرنسية عن احترامها وتنفيذها فيما بعد . ان ارادة الشعوب لا تقبل ولا تسلم بمبدأ الحلول الوسط ، وهي ترى أن السياسي أو القائد الذي لا يجد في نفسه الكفاءة أو القدرة على مواصلة الكفاح ، لا يملك حق مفاوضة العدو مهما كانت ظروف المعركة ، حتى ولو كانت المفاوضة في حد ذاتها جزءا من الخطة السياسية أو محاولة تستهدف انقاذ ما يمكن انقاذه من حقوق الشعب المغتصبة أو أراضي المحتلة .



لقد أدان القضاء الفرنسي في أعقاب الحرب العالمية الثانية رئيس الدولة المارشال بيتان بالخيانة العظمى وقضى عليه بعقوبة الاعدام التي خفضت الى الاشغال الشاقة المؤبدة ، نظرا لشيخوخته وتجاوزه الثمانين من عمره ، وقد أنزلت به تلك العقوبة القصوى لاقدامه على مفاوضة العدو الالماني الذي احتل قسما من الاراضي الفرنسية ، ولم يكن رائد القائد الفرنسي سوى انقاذ فرنسا من دمار الحرب وحماية باقي أجزائها من الاحتلال . ولكن لم تشفع للقائد العجوز لدى قضاته ، نيته الحسنة ، وماضيه المجيد ، ورتبه العالية وأكائيل الغار والاوزمة التي كان يحملها بسبب بطولته وانتصاراته العسكرية الضخمة في الحرب العالمية الاولى ، التي حققت للشعب الفرنسي أمجادا فوق أمجاده الحرية السابقة ، لأن ارادة الشعوب لا ترحم من يتساهل بحقوق أبناء شعبه ويفرط بتراب الوطن ؛ وهذا

التراب هو فوق الرجال ، مهما بلغت عظمتهم ، وشرف الأمة أهم من التراب ذاته •



لم يكد يضي على وجودي في المدرسة الفرنسية عام دراسي واحد ، حتى كنت في نهايته الناجح الاول ، في كلا الصنفين العربي والفرنسي • وكان الطالب الفائز بالدرجة الاولى يكافأ بتعليق أوسمة النجاح على صدره في احتفال كبير يجري لدى انتهاء كل فحص • فغالبا ما كان نصيبي من الاوسمة ، العدد الكامل : اثنين للصف الفرنسي ، واثنين للصف العربي •

كما كان المدرسون يكافئون الطلاب الذين يبالغون علامات جيدة ، لدى تقديمهم فروضهم المنزلية ، أو لدى حسن اجابتهم على الاسئلة الشفوية ، بشئات مطبوعة على بطاقات خاصة ، كانوا يسمونها (فيكتور) أي النصر • وفي نهاية السنة الدراسية ، كانت ادارة المدرسة تنظم مزادا علنيا تباع فيه الجوائز والهدايا بالشئات التي كسبها الطلاب أثناء السنة • فمن يعرض عددا أكبر من هذه الشئات مقابل الشيء المطروح بالمزاد ، يحال عليه هذا الشيء ويظفر به •

وفي احدى السنوات الدراسية ، كنت حصلت على أكبر عدد من البطاقات بالنسبة لعموم طلاب المدرسة • وتنافست أنا وتلميذ آخر كان يتقدمني بسنة واحدة (وقد درس الطب فيما بعد وأصبح طبيبا ناجحا في المدينة بشار اليه بالبنان وأستاذا قديرا في جامعة دمشق) ، وكان الشيء الاول والاهم المطروح بالمزاد هو كرة قدم ، يسيل لها لعاب معظم طلاب المدرسة •

وكان واضحا سلفا ، أن الكرة ستكون من نصيبي ، لأنني أملك العدد الأكبر من الشئات •

ولكن سرعان ما أسعف المدرس الاخ (الفريز) أوجينيان تلميذه
النقيب ومنافسي الاول ، ببضعة بطاقات اضافية سلبه اياها أثناء
المزاد •

فكانت لعبة مكشوفة ، أمام جميع الطلاب ، قابلتها بالاحتجاج
الشديد ، وبالامتناع عن متابعة الاسهام في المزاد • وألقيت بالعدد
الكبير من البطاقات التي أحملها على الارض ، وانسحبت من المزاد ،
ولم أعد اليه ثانية ، رغم جميع المحاولات التي بذلها مدير المدرسة
المشرف على المزاد وسائر زملائه المدرسين •

وقد كشفت لي هذه الحادثة عن أن الاخوة المريسين ، الذين
كنا نتصورهم ملائكة في ثيابهم السوداء المهيبة ، وذقونهم الشقراء
الوقورة ، وصلبانهم المتدلية من أعناقهم ، ليسوا الا كسائر البشر
ليهم نزواتهم ، وأخطأؤهم ، وليسوا منزهين عن الهوى أو الغرض ••
وكان الحادث ، على قلة أهيمته ، اختبارا لقدرتي على مجابهة الظلم
والتعسف ، ورفض التسويات الجزئية والحلول الوسط •

وكان نتيجة هذه الغلطة العابرة التي بدت لي فظيعة في ذاك
الوقت ، أن صممت على ترك المدرسة ، وأصررت على الانتقال الى
الكلية العلمية الوطنية لمؤسسها الدكتور منيف العائدي شقيق الشهيد
شوكت العائدي الذي سقط برصاص الفرنسيين ابان الثورة السورية؛
وكسبت بهذا الانتقال سنة كاملة • وقد أفدت من هذا المعهد الوطني
الذي مكثت فيه سنة واحدة ، أيضا فائدة ، وخاصة في مواد الادب
واللغة العربية والتاريخ ، بالرغم من انعدام أي ميل لدي لدراسة
هذه المواد • وكان الفضل في ذلك لوجود عدد من الاساتذة القديرين،
كان من بينهم الشاعر الدمشقي الكبير الاستاذ خليل مردم بك ،
الذي كان بهدوئه وصفائه وسمو أخلاقه وغزير علمه وأدبه وروائع
شعره ، نفحة عطرة لا في جو المدرسة وحدها ، بل في المدينة نفسها،

وفي دنيا العروبة كلها . وكان يتولى التدريس أيضا الاستاذ عثمان الحوراني ، والدكتور أمجد الطرابلسي والشيخ بهجة البيطار . وكان الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق يدرّسنا مادة التربية الدينية ، وكنا نلتف مع أترابنا حوله في حلقات التدريس التي كان ينظمها في شهر رمضان في المسجد الاموي .

وكان من بين زملائي في الصف ، في تلك السنة ، الشاعر العاطفي الاستاذ نزار قباني . فقد كنا نطلع منه على بواكير شعره الجزل الغزير ، كما كنا نترجم بصوته الجميل الذي كان يحاكي فيه صوت المطرب السيد فريد الاطرش ، اذ كان مغرما بأغانيه وألحانه ، يرددها على مسامع الخلق من أصدقائه في فرص الاستراحة .



وباتهاء السنة الدراسية ، انتقلت مرة جديدة الى المعهد العربي الفرنسي (اللايك) ، لأن أهلي ، بعد أن تعودوا على نظام مدرسة «القرير» القاسي ، لم يرتاحوا كثيرا لجو الكلية العلمية الوطنية التي كان يديرها الدكتور عبد الكريم العائدي شقيق الدكتور منيف العائدي ، لأن نظام هذه المدرسة كان رخوا في نظرهم .

وكان المعهد العربي الفرنسي يتنازل بقله طلابه وكثرة المدرسين فيه ، وكانوا بسعظهم من الاساتذة الفرنسيين المختصين بالمواد التي يدرسونها . وكان يدرس الادب العربي فيه الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ويدرس اللغة العربية الاستاذ أبو الخير القواس ، كما يدرس مادة الجغرافيا العربية الدكتور عزة النص .

أما مادة تاريخ الحضارة العربية ، فقد درّسنا اياها الاستاذ ميشيل عفلق ، والحقيقة التي يجدر ذكرها هي أن محاضرات الاستاذ عفلق كانت من نوع خاص ، فهو بالرغم من انخفاض صوته ، وبطئه في

الكلام ، كان يسحر طلابه بحاضراته القيمة التي كان يلقي فيها الضوء على تاريخ الامة العربية وحضارتها السامية ، فكانت تبعث البهجة والغبطة في نفوسنا الغضة التواقفة لمعرفة تراث أمتنا المجيد ، وتاريخ حضارتها التليد ، نظرا لأن برامج التعليم كانت تهتم بتدريس التاريخ الفرنسي الذي أتخذنا به منذ مرحلة التعليم الابتدائي حتى نهاية مرحلة التعليم الثانوي •

كان الاستاذ عفلق يحدثنا ، في محاضراته القيمة ، عن الامة العربية ، مبرزاً شخصيتها وخصائصها وطابعها المميز بين الامم ، وعن حضارتها مثلة في معاركها وتعاليمها الروحية وتقاليدها ومفاهيمها وفلسفتها في الوجود والحياة ، وعن فنونها وثقافتها الثرة الغنية التي أضحت قوام وجودها الروحي •

وكان حديثه الممتع المفيد يتناول الوطن العربي ، وما يمثله في تاريخ الانسانية ، التي كان مهدا لها ، من قيم ؛ ويشرح بأسهاب تاريخ الامة العربية ، كيف نست ، وترعرعت ، وأخذت ، وأعطت ، وكونت لنفسها نظاما وفلسفة ، وكيف أثرت علومها وفنونها وآدابها في ثقافة العالم الحديث ، كما تشهد بذلك كتابات العلماء والمؤرخين •

وكان بعد القاء الضوء على كنوز الثقافة العربية ، لا يلبث أن يشير الى أن مرحلة الركود التي مرت بها الامة العربية ، قد انقضت، وأن الساعة أذفت ليستأنف العرب مسيرتهم الحضارية ويؤدوا رسالتهم الانسانية من جديد •

كانت تلك الاحاديث القيمة والمحاضرات الغنية تفعل في نفوسنا الغضة ، فعل الغيث في الارض العطشى ، وكانت تبعث فينا الامل والتفاؤل بمستقبل زاهر لوطننا العربي ••

وأعتقد أن هذا الاستاذ القدير ، لو اكتفى بتوجيه اهتمامه

لمتابعة وظيفة التدريس وبالانصراف الى تأليف الكتب الثقافية والتاريخية واغناء المكتبة العربية ، لكان خدم وطنه وأمه بشكل أوفى ، ولجئت منه أجيال الطلاب العرب فوائد أعظم .

والشيء البارز في حياة هذا الرجل السياسية ، أن زعامته كانت هشة ولم تكن لتصمد كثيرا أمام الاغاصير ، وان كان البعض يرون له العذر في ذلك ، لأن من مميزات السياسي الناجح في نظرهم ، هو اللين والمرونة والقدرة على الانحناء أمام العواصف ريثما تهدأ وتعود الامور الى مجراها الطبيعي .



عندما دخلت جيوش الحلفاء الاراضي السورية عام ١٩٤١ كنت في الصف النهائي من المرحلة الدراسية الثانوية أستعد لفحص البكالوريا (القسم الثاني - فرع الرياضيات) . وقد اضطرب سير الدراسة ، آنئذ ، في المعهد العربي الفرنسي ، بسبب سفر بعض المدرسين الموالين لحكومة فيشي .

وجرى تعطيل المدارس وتعليق الفحوص العامة لأجل غير مسمى . وقد ودعنا المدرسون المسافرون وداعا مؤثرا . وكانت آنئذ عواطف معظم الطلاب معهم تبعا لكونها مؤيدة لدول المحور المعادية للحلفاء وخاصة الانكليز لأنهم كانوا حلفاء للصهيونية ، ومسؤولين في نفس الوقت عن احتلال أراضى الوطن واقتسامها بعد تجزئتها الى دويلات في أعقاب الحرب العالمية الاولى .

وكان أحد هؤلاء المدرسين وهو السيد (بلليه) الذي كان يدرس مادة الرياضيات ، محبوبا جدا من الطلاب ، لكفاءته ، ولطفه ، وعطفه على العرب . وبالرغم من تحاشيه التدخل في الشؤون السياسية ، خلال قيامه بواجب وظيفته كدرس طيلة السنوات

السابقة ، فقد استفاد من فرصة الوداع وراح يحدثنا بصراحة تامة حديثا مسهبا عبر فيه عن حقيقة مشاعره نحو طلابه السوريين ونحو بلدهم . وكان من جملة ما قاله : « أنا لم أكن أسح لنفسي أثناء وجودي بينكم طيلة السنوات السابقة ، أن أتطرق للسواضيع السياسية التي تخص بلدكم ، لأن ذلك كان خارجا عن نطاق علي ؛ ولكني الآن وأنا على وشك مغادرة ربوع وطنكم ، أجد من واجبي نحوكم ، وأنا أنظر اليكم كما كنت أفعل دائما ، كأبنائي ، أن أصارحكم بحقيقة ما يجيش في صدري من هواجس وعواطف . ان فرنسا ، عندما احتلت أرضكم تحت ستار الانتداب على شعبكم ، لم تقم بواجبها الاساسي كما يليه عليها صك الانتداب . وقد اتبعت لدى معالجة شؤونكم السياسة الملتوية التي لم تكن تبغي منها رعاية مصالحكم ، ومن هنا كانت برامج التعليم التي طبقتها في مدارسكم ومعاهدكم مبتورة ومشوهة ولم تتح لكم فرصة تأسيس معاهد عليية وافية وهي غالبا ما تسعى لابعادكم عن سلوك السبل التي تساعدكم على النهضة بوطنكم الذي يتسع بخصائص ومزايا عديدة ، ويحتوي على ثروات دفيئة ، تحتاج لسواعدكم لتكشفوا عنها وتستغلوها . وهذا لن يتأتى لكم الا بتحصيل العلم والمعرفة وخاصة في ميدان العلوم التكنولوجية والهندسية . وأنا كدرس للرياضيات ، قد لاحظت تفوق الكثيرين من الطلاب الذين تعاقبت على تدريسهم هذه المادة ولمست كيف أنهم متفوقون ذهنيا ، وليسوا دون مستوى الطلاب الاوربيين . لذلك فعليكم وأتم أبناء هذه البلاد أن توجهوا اهتمامكم للاختصاص العالي ولدراسة العلوم على اختلاف فروعها ، وأن تشسروا عن سواعدكم لبنوا نهضتكم بعزائمكم وتعسروا بلادكم بأيديكم وبالاعتداد على أنفسكم .. » .

★ ★ ★

وطبعاً لم يكن رأي هذا المدرس الفرنسي مطابقاً لآراء جميع زملائه الآخرين الذين كان بعضهم خلال مرحلة وجوده في بلادنا استعماريًا متعصباً ، لا يخفي بغضه للعرب ، ولا يتورع عن معاملة الطلاب معاملة قائمة على أساس التمييز العنصري .

فالاستاذ (ميليه) مدرس الادب الفرنسي ، وهو عجوز متصاب ، كان لا يفتأ يتهكم على العرب ، وعندما كنا نتباهى أمامه بنجاحنا وتفوقنا على الطلاب الفرنسيين ، حتى في مادة اللغة الفرنسية ، كان يسلم بذكاء الفرد عندنا ، ولكنه يصر على رأيه بأننا شعب متخلف ما زال بحاجة للقيادة والتوجيه .



كانت جيوش الحلفاء مؤلفة من عناصر عديدة وجنسيات مختلفة ، منهم البريطانيون ، والفرنسيون الديغوليون ، وفيهم جنود المستعمرات كالهنود والاوزتراليين والنيوزيلنديين والافارقة ، ومن بينهم أيضاً جنود من أبناء دول أوروبا الشرقية كبولونيا وتشيكوسلوفاكيا . وكانت لكل فئة من هؤلاء طريقتهم الخاصة في سلوكهم ، في الطرقات وفي الاماكن العامة ، وفي تعاملهم مع الاهالي الوطنيين .

وبالرغم من اعلان فرنسا الحرة بلسان الجنرالين ديغول وكاترو لاستقلال سورية ولبنان صبيحة دخول الحلفاء الاراضي السورية واللبنانية ، فقد كانت التعبئة لنفوس المقاتلين الفرنسيين معادية لأماني الشعب في القطرين العربيين ، وظلت الأداة الفرنسية على ما كانت عليه في السابق ، من تسلط على مقدرات الشعب فيها .

وكان شعور العداء يتجلى ، أكثر ما يكون ، في سلوك الجنود الديغوليين ، فلم يكونوا ليتوردعوا عن تحدي شعور المواطنين بشتى السبل . وفي عصر أحد الايام ، ينسا كنت ماراً في شارع فؤاد الاول

(بور سعيد حاليا) ، كان ثلاثة من الجنود الافرنسيين يشنون وهم سكارى يترنحون في سيرهم على الطريق العام ، ولا يكفون عن التحرش بالاهلين . ولحظة مروري من جانبهم ، وملاحظتي لعربدتهم ، جربت الابتعاد عنهم بتركي الرصيف الذي كنت أسير عليه ، فما كان من واحد منهم الا أن اتجه نحوي ودفع بيده طربوشي الذي مال قليلا من فوق رأسي . كنت يومئذ في مطلع شبابي لم أكد أتجاوز الثامنة عشرة من عمري ، فصعب الامر علي ، وهجست عليه أصفعه بكلتا يدي . ولما حاول زميلاه المخوران مؤازرته ، صرت أدفعهما غني بقوة لكساتي وبقدمي ، وكانت كفتي هي الراجحة لتحفزي لصد أية حركة تصدر عنهم ، ولحالة السكر الشديد التي كانوا عليها جميعا ، لولا أن قدم من خلفهم خمسة جنود فرنسيين ؛ وكان هؤلاء في حالة صحو تام ، على عكس رفاقهم ، فانهالوا علي جميعا باللكم والضرب بشكل لم أستطع معه مقاومتهم ، لأن الضربات كانت تنصب على رأسي وجسمي من كل جانب .

وكان همي أن أحافظ على الطربوش ، وأنا مسك به بيدي ، لأن الطربوش في ذاك العصر كان بمثابة شعار وطني للاهلين . وكان الآباء أشد حرصا على عدم تخلي أبنائهم عنه لأنه كان في نظرهم رمزا للشرف ، وعنوانا لتسك العربي بعروبتة ، بالرغم من أن هذا الزي هو من صنع أوربي ، نقله الاتراك عن طريق أوربا الشرقية وفرضوه على الشعوب التي يحكسونها كزي قومي ورسبي .

كانت الضربات أليسة جدا ، والناس من حول المعتدين يشكلون حلقة كبيرة ، وفيهم بعض أفراد الشرطة المدنية ، ولكن لم يتجاسر أحد منهم لنجدتي خوفا من بطش السلطات العسكرية الفرنسية ، التي كانت ، نظرا لحالة الحرب ، تحاول تشديد الخناق على المواطنين بزعم حرصها على المجهود الحربي . ولم ينقذني من هذه « الورطة »

الخطيرة ، الا قدوم اثنين من الجنود الاوستراليين ، تدخلوا لاقاضي
من برائن الفرنسيين الشرسين ، مستخدمين من أجل ذلك قبضاتهما
الفلواذية التي جعلت الجنود الفرنسيين يتراجعون أمامهما ويهربون .
وقد لحقت بي من جراء الحادث رضوض شديدة وكدمات
واتفاخات عديدة في رأسي ووجهي ، فاتجهت وأنا بهذه الصورة الى
مقر مديرية الشرطة المدنية قرب سراي الحكومة ، حيث كانت ترابط
مفارز من الفوج الثالث التابع للجيش الخاص ، والمؤلف بأغليسته
من الجنود العلويين . وكانت تلك المفارز تتناوب في تشكيل دوريات
تجوب الشوارع للحفاظ على انضباط العسكريين الخاضعين للقيادة
الفرنسية . ولحسن حظي التقيت بالمساعد السيد الدوجي الصواف
الذي كان يعرفني تمام المعرفة ، فتأثر لحالي ، ولما رويت له الحادثة ،
أسرع بتسيير دورية من جنوده ، سار على رأسها ، واتجه معي الى
طريق الصالحية ، وأمله ضعيف بالعثور على المعتدين والقاء القبض
عليهم ، نظرا لاقضاء فترة من الوقت على الحادث .

وعندما وصلت الدورية الى بوابة الصالحية ، كان الجنود
الفرنسيون الثلاثة السكارى يواصلون الاعتداء على الاهلين ، وقد
ألقت الدورية القبض عليهم في اللحظة التي كانوا يعتدون فيها على
رجل كهل ويتقاذفون طربوشه ويسكون بتلاييه ، وهو يحاول
مذعورا التخلص منهم . ولما تردوا ورفضوا الانصياع ، انهال الجنود
السوريون عليهم بأعقاب البنادق ، وساقوهم الى مركز الشرطة بواسطة
عربة من العربات التي كانت تجرها الخيول وتجوب الشوارع لتأمين
النقل الداخلي في المدينة .

وقد لحقتهم أنا بعربة ثانية استأجرتها في الطريق ، وعند وصولي
الى مركز الشرطة ، كان صف الضابط السوري السيد الدوجي

وجنوده يقومون بتأديب الجنود الفرنسيين تأديبا قاسيا ساعد على شفاء غليلي ، وان كنت لم أشف من اصابتي الا بعد فترة طويلة تعطل خلالها سير دراستي واستعدادي للفحص النهائي ؛ وتبخرت جميع المعلومات من ذاكرتي ، ولم يكتب لي النجاح في فحص البكالوريا في تلك السنة الا في الدورة الثانية التي أجريت في شهر تشرين الثاني من العام نفسه .



كان ميلي شديدا أثناء فترة الدراسة الثانوية ، لمادتي العلوم والرياضيات ، وكنت مهتما نفسي لدراسة الهندسة الكيماوية والكيمياء الصناعية ؛ وكان لحديث أستاذ الرياضيات السيد (بلليه) لدى وداعنا لدى سفره قبل نهاية العام الدراسي ، أبلغ الاثر في توجيهنا في هذا الاتجاه . ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية التي كانت تحول دون السفر الى الخارج من جهة ، وعدم وجود معاهد علمية عليا في الجامعة السورية ، من جهة ثانية ، اضطراني مكرها لتغيير اتجاهي ، وقد أدى ذلك طبعا الى تغيير كلي في مجرى حياتي .

فقد وجدت نفسي أمام اختيار محدود ، دراسة الطب ، أو الحقوق . فاخترت أهون الشرين ، وانتسبت الى معهد الحقوق العربي ، بأمل أن تنتهي الحرب ، فأتمكن بعدها من السفر . ولكنني نلت اجازتي قبل نهاية الحرب .

كانت دراسة الحقوق ، رغم عدم ميلي اليها ، سهلة . وكان يدرسنا عدد من جهاذة الاساتذة ، كان من بينهم العلامة الاستاذ فارس الخوري وأخوه الاستاذ فائز الخوري ، والاستاذ محمد سعيد المحاسني ، والدكتور سامي الميداني ، والاستاذ عثمان سلطان ، والدكتور احسان الشريف ، والدكتور محسن البرازي ، والدكتور

أحمد السمان ، والدكتور منير العجلاني ، والدكتور فريد زين الدين ، والدكتور عدنان الاتاسي ، والاستاذ عبد الجواد السرميني، والدكتور محسن شفيق ، وشيخان جليلان هما الدكتور أبو اليسر عابدين والاستاذ مصطفى الزرقا •

ملاحق

١- بيان تاريخ صدور المراسم

٢- بيان

٣- بيان تاريخ صدور المراسم
٤- بيان تاريخ صدور المراسم
٥- بيان تاريخ صدور المراسم
٦- بيان تاريخ صدور المراسم
٧- بيان تاريخ صدور المراسم
٨- بيان تاريخ صدور المراسم
٩- بيان تاريخ صدور المراسم
١٠- بيان تاريخ صدور المراسم

١١- بيان تاريخ صدور المراسم
١٢- بيان تاريخ صدور المراسم
١٣- بيان تاريخ صدور المراسم
١٤- بيان تاريخ صدور المراسم
١٥- بيان تاريخ صدور المراسم
١٦- بيان تاريخ صدور المراسم
١٧- بيان تاريخ صدور المراسم
١٨- بيان تاريخ صدور المراسم
١٩- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٠- بيان تاريخ صدور المراسم

٢١- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٢- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٣- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٤- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٥- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٦- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٧- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٨- بيان تاريخ صدور المراسم
٢٩- بيان تاريخ صدور المراسم
٣٠- بيان تاريخ صدور المراسم

في رحاب العدالة

« حيث ينتهي القانون ، يبدأ الطغيان »

« وليام بت »

لدى تخرجي من معهد الحقوق العربي في دمشق ، عام ١٩٤٤ ، اخترت العمل في مهنة المحاماة خلافا لرغبة والدي ، وقد رجوته أن يحدث صديقه ، المحامي الاستاذ محمد سعيد المحاسني ، كي يقبلني متسرنا في مكتبه .

وكان الاستاذ المحاسني محاميا لامعا اكتسب شهرته الواسعة ، بذكائه الحاد ، وبراعته الفائقة ، ولسانه اللاذع الذي كان يحسب له القضاة والمحامون ألف حساب ، بالرغم من علة الثأثة التي رافقته من صغره ؛ هذا بالاضافة الى علمه الغزير ، وتعمقه في دراسة الفقه الاسلامي والقانون المدني . وقد ظل لسنوات طويلة أستاذا في جامعة دمشق يدرس الفقه المدني ومجلة الاحكام العدلية لطلابه ، وكنت واحدا منهم .

ولدى شروعي في ممارسة العمل في مهنة المحاماة وذهابي الى مبنى العدلية القديم الكائن في ساحة الشهداء ، صادفت محاميا

منا ، كان أبا لزميل لي في الدراسة الثانوية ؛ وقد تعرفت عليه سابقا ، عندما كنت أزور ابنه في داره . فسألني متعجبا « ماذا تفعل هنا ؟ » . قلت له : « لقد أصبحت زميلا لكم ، فهلا تقبلوني في صفوفكم ؟ » فقال لي : « لا يا بني ، انك لو أخذت رأيي سلفا ، لما شجعتك على اختيار هذا الطريق في حياتك العملية » . فظننت أنه لا يريد منافسين جددا في مهنته ؛ ولكنه تابع قائلا : « ان الانسان يبدو مثقلا بهومومه الخاصة في هذه الحياة ، فسا بال المحامي يضيف اليها هوم الناس الآخرين ويحملها فوق كاهله ؟ » .. فقدرت أن كاهل مخاطبي قد أثقلته السنون وأضناه الزمن ، وأن رأيه السلبي عن المحاماة ربما كان ناتجا عن وضعه الذاتي ، وهو يودع المهنة والحياة التي فارقها بعد حين قصير .

كان عدد المحامين قليلا نسبيا ، والقضاة معظمهم من أبناء دمشق ؛ وحتى قضاة الصلح كانوا كهولا ، وبعضهم كانوا على أبواب التقاعد ؛ وكنت مع زملائي المحامين المترنين نلقى منهم جميعا معاملة حسنة وكل تشجيع .

كان الاستاذ المحاسني قد مل ، على ما يظهر ، العمل في المحاماة ، بعد ممارسة دامت عشرات السنين . وكان ابنه الاستاذ أسعد المحاسني يعمل معه في مكتبه ، فلقيت من الاب والابن معاملة أخوية صادقة . وكان الاستاذ أسعد يحضر رسالة الدكتوراه بعد أن كان اجتاز فحوص الدبلوم بنجاح في المعاهد الفرنسية ، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .

وبعد أن نال شهادة الدكتوراه ، عين أستاذا في جامعة دمشق . وقد نصحني الدكتور أسعد المحاسني بأن أتابع دراستي بقصد الحصول على الدكتوراه أيضا ، ولكنني لم أفعل ، لأن العمل في

المحاماة لا يتطلب حبل مثل هذه الشهادة العليا ؛ وربما كان لجزء
الاستاذ المحاسني الاب وسخريته من المحامين « الدكاترة » ، بعض
الاثار في عزوفي عن اتباع نصيحة ابنه .

كان القضاء السوري آنذاك مؤلفا من نوعين اثنين من المحاكم:
المحاكم الوطنية وجميع قضاتها من الوطنيين ، والمحاكم المختلطة
ورؤساؤها فرنسيون يشترك معهم في تشكيلها قضاة سوريون
وفرنسيون .

وكان القضاة السوريون ، الذين يشكلون المحاكم الوطنية،
على قدر كبير من النزاهة والصلابة ؛ وكثيرة كانت القضايا التي
كانوا يجابهون فيها ضغط المستشارين والحكام الفرنسيين . ولذلك
كانت الوسيلة الشائعة بين بعض المتقاضين للاستفادة من نفوذ
الفرنسيين ودعهم ، هي نقل القضايا أمام المحاكم المختلطة ،
بادخال عنصر يحل الجنسية الاجنبية فيها . ومع ذلك كان القضاء
المختلط على قدر كبير من الكفاءة والنزاهة يتسم مناصبه قضاة
قديرون .

وكان جو المحاكم المختلطة متعا ومفيدا ، بالنسبة لمحام
مبتدئ يريد اكتساب الخبرة والمران . وقد تسنى لي حضور عدد
من قضايا مكتب الاستاذ المحاسني أمام تلك المحاكم ، وكانت تلقى
أمامها مرافعات قيمة ، باللغة الفرنسية ، من قبل عدد من المحامين
القديرين ، أمثال الاساتذة وديع البيطار وحنين شلهوب وجورج
شاهين ويوسف كحلا وفريد شحلاوي ورزق الله انطاكي ورودلف
كبيكاتي وموسى عرقنجي وجان عنحوري وغيرهم .

وفي القضايا المدنية ، وحتى أمام المحاكم الصلحية الادنى درجة،
كانت المرافعات الشفهية ، والمناقشات الفقهية تجري ، باللغة

الفرنسية ، وكأنها ندوات عليية ، تقارع فيها الحجة بالحجة ويشارك فيها القضاة بطرح أسئلتهم أو توجيه استيضاحاتهم أو بالتعقيب على أقوال السادة المحامين المترافعين . ولكن عهد تلك المحاكم لم يدم طويلا ، إذ أنه انقضى بجلاء الجيوش الاجنبية عن أديم هذه البلاد .

وكان على السوريين ، بعد نيل استقلالهم ، أن يدعوا سلطة القضاء تدعيا متينا ويصونوا استقلالها وحصانة أعضائها بشكل كامل .

ولكن ، وبالرغم من توفر النوايا الحسنة لدى بعض من تولوا المساهمة في حل مقدرات هذه السلطة ، كالسادة عارف النكدي وأسعد الكوراني وأسعد المحاسني وعبد الوهاب حومد ونهاد القاسم ، لم تجر الامور كما أرادوا ووفق ما تقتضيه المصلحة العامة ، لأن القادة الذين تعاقبوا على استلام السلطة السياسية في البلاد ، مدنيين كانوا أم عسكريين ، ومعظم وزراء العدل الذين تعاقبوا ، خلال خمس وعشرين سنة ، على رئاسة السلطة القضائية وكان معظمهم من القضاة أو المحامين ، لم يحرصوا دائما على تعزيز جانب القضاء ، بل انهم على العكس قد دأبوا على اخضاعه لسلطانهم ، وتسييره بشيئتهم ، لخدمة أغراضهم ، وتعزيز نفوذهم ، وتدعيم مراكزهم وتقوية سلطانهم ؛ ولكنهم أخطأوا باتباع ذلك النهج خطأ مزدوجا :

أولا - بحق أنفسهم ، عندما شوهوا عهودهم وسعتهم بتدخلهم المشين في شؤون القضاء .

ثانيا - بحق شعبهم ، إذ أسهموا عن قصد أو بدونه ، في

اضعاف هية القضاء والانتقاص من قدرته التامة على اقامة العدل
بين الناس بالقسط والميزان •



ان التدخل في شؤون القضاء ، من قبل القائمين على رأس
السلطة التنفيذية ، كان يتجلى بشكل سافر ، أكثر ما يتجلى ، في
القضايا ذات الصبغة السياسية •

وحادثة واحدة رافقت انبثاق فجر الاستقلال ووقعت يوم عيد
الجلاء عام ١٩٤٦ كانت نقطة البداية ، في الخط المتعرج الذي أخذت
تسير عليه الامور العامة في هذا الجزء العالي من الوطن •

ففي اللحظة التي كانت يد السيد شكري القوتلي أول رئيس
للجمهورية السورية الفتية المستقلة تناول يد ضابط مخلص شجاع
من ضباط الجيش العربي السوري الفتى ، العلم الوطني ، في
مظاهرة وطنية رائعة ، أثناء العرض العسكري الكبير الذي أقيم في
تلك المناسبة الخالدة ، كانت يد ضابط المباحث تنهال بقوة بالضرب
واللكم على طالب حديث السن يرتدي اللباس الكشفي ، وكان
يصور ذاك المشهد التاريخي الخالد ، بآلة تصوير فوتوغرافية
صغيرة • ولم يكن ذاك الفتى الا الشقيق الاصغر للضابط الذي كان
يتسلم الراية الوطنية ، ويعطي العهد هو وزملاؤه بالحفاظ على تلك
الامانة المقدسة ، وبفدائها بدمائهم وأرواحهم •

وكان الاعتداء غاشيا ، ولا مبرر له البتة ، سوى أن ضابط
الامن كان يريد فرض نفسه واثبات وجوده ، بشكل أو آخر ،
ولو أدى الامر الى تشويه جلال الموقف والاخلال بالامن •

كانت حجته أن اخبارية سرية ، وردت الى دوائر الامن ، بأن

هناك شبكة من المخربين ، تعمل لحساب الصهاينة ، وتريد اثاره الفوضى والاضطراب أثناء العرض العسكري الكبير ، بالقاء المتفجرات في ساحة الاحتفال وعلى رئيس الجمهورية بالذات . ولكن رجل الامن المتهور ، لو كلف نفسه عناء السؤال من الفتى عن سبب وجوده في تلك الساحة ، لأطلععه على الاذن الخاص المعطى له من دائرة الامن العام ذاتها التي يعمل فيها الضابط المعتدي والذي يخوله التقاط صور تلك المناسبة القومية التاريخية .

وكان لا بد من طلب تحريك الدعوى الجزائية بحق الجاني ، ولما أحيلت أوراقها الى المحكمة الجزائية المختصة ، بدأت المناورات والمساحكات والوساطات تعمل عملها وبشكل سافر ، حتى وفرت الحماية للسدعى عليه من القصاص الذي يستحقه حسب أحكام القانون ، وكانت الحجة في ذلك حرص المسؤولين الكبار على هيئة الحكم الوطني ، وتوفير الحماية والحصانة للرجال الساهرين على حمايته .

وبعد أكثر من عشرين عاما على ذلك الحادث ذي الدلالة والمعزى البعيدين ، نعم بعد مضي أكثر من عقدين على استقلال هذا القطر العربي المجاهد ، التقيت في بلودان بالقاضي المتقاعد السيد ماجد الغزي الذي كان رئيسا للمحكمة التي نظرت في تلك الدعوى ، وذكرني من تلقاء نفسه بتلك القضية المشهودة ، ملقيا اللوم كله على رجالات العهد الوطني الذي جرت فيه الحادثة ، فوجهت كلامي اليه قائلا : « ولكن هل تدري أيها الاخ الكريم والقاضي العادل أن عدم انزال القصاص الرادع بذلك الضابط المعتدي ، قد جعل من تكرار اعتداء ضباط المباحث على حريات الناس وكرامتهم سنة تحتذى ، وأن حمايته من العقاب قد شجعته هو بالذات ، وبعد قرابة ثمانين

سنوات من الحادثة الاولى ، على أن يكرر المحاولة ضدي شخصيا
لدى تصدي للدفاع عن أشخاص أبرياء ، جرى توقيفهم ظلما وعدوانا
من قبله أثناء الحملة الانتخابية التي جرت بمناسبة الانتخابات العامة
عام ١٩٥٤ » *

ولكن في هذه المرة ، لم تكن العلاقة مع حمل وديع ، كما جرى
في السابق مع أخي الاصغر ، بل مع انسان متعسر ، علمه الدهر كيف
يجابه الذئاب . وطبعا لم يكن من المناسب تحريك الدعوى بحق
الضابط المعتدي ، لأن الوساطات والاوامر كانت كفيلة بافساد سير
المحاكمة مرة أخرى *

وقد جاء الصفح ، والصفح دائما من شيم الكرام ، بعد اسداء
درس أدبي تلقاه ذلك الضابط ، في كيف يجب أن يسلك الموظف
الشريف ، وفي كيفية معاملة المواطنين واحترام كرامتهم *



كان الدرس الاهم الذي تلقينته في بداية عملي في المحاماة ، لا
على يد أستاذي الكبير ، ولا على يد ابنه المحامي القدير ، ولا من
واحد من القضاة المشهورين ولا من زملائهم المغسورين أو من النابيين
من مساعديهم العدليين *

بل كان الدرس من أصغر موظف في الجهاز القضائي ، من محضر
بسيط يتولى تبليغ المذكرات القضائية الى المتقاضين في محلات اقامتهم
المتباعدة . قصدت ذاك المحضر ، وكان رجلا مسنا ، يرتدي بزة
قديمة ويعتسر طربوشا عتيقا ، وكان يبدو الفقر عليه بشكل بارز
يلفت النظر . سلمته ورقة تبليغ كنت أخذتها من المحكمة لتبليغها الى
الخصم بدلاتي ، وأسفعتها ببضع ليرات سورية ورقية ، حاولت
وضعها في يد الرجل الفقير *

استلم المحضر ورقة التبليغ من يدي ورفض استلام الليرات ،
قائلاً بامتناع شديد : « دع هذه الدريهمات معك ، فربما كنت
بحاجة إليها أكثر مني » . فحسبت أن الرجل لم يقنع بالمبلغ لضلّاته ،
وطمأنته بقولي : « أجر التبليغ ، وبعد ذلك لن أدعك الا راضيا » .

فقال لي : « لا يا بني ! أنا راض سلفاً بما قسمه الله لي ، واني
لمكتف براتبي الضئيل الذي أتقاضاه في نهاية الشهر من خزانة الدولة
لقاء عملي . أما ليراتك فلن تزيدني رغبة في أداء واجبي ولو بلغت
مئات الاضعاف ، وسأقوم باجراء التبليغ بكل طيبة خاطر ، لا من
أجل ارضائك بل ارضاء لضميري » .

ولما حاولت توضيح قصدي بأن ما عرضته عليه ليس مكافأة
عن عمله ، بل انما هو لقاء اجرة المواصلات لكي يصل الى بيت
المدعى عليه المطلوب تبليغه ، عاد ليصر على الرفض باباء أشد ، قائلاً :
« لا تحاول اغرائي بكلامك المعسول ، فلن تستطيع افساد ضميري
وأنا في هذا العمر ، وبعد خدمتي الطويلة في الدولة ، وبصورة خاصة
لدى المحاكم المختلطة ، حيث كان بإمكانني جمع ثروة طائلة ، لو
سحت لنفسي بأن أمد يدي لعطاءات المتقاضين ورشاوى الراشين » .

وبعد أن تصفح الورقة المسلسلة اليه ولمج اسم المحامي الوارد
فيها ، قال لي : « أنت ابن أسرة طيبة ، فلماذا تريد اتباع سلوك
معوج لا يليق بانسان مثقف وبمحام مجاز يقع عليه عبء الدفاع عن
الحق وتطبيق القانون وتحقيق العدالة ؟ » . فأجبت : « ان ما فعلته
لا يخرج عن العرف المتبع لدى المحاكم ، وبشكل خاص في أوساط
المحضرين ، وأرجو أن لا تفسره بأنه عرض للرشوة ، والمسألة لا
تخرج عن كونها (شوفة خاطر) أو ثمن فئجان قهوة كما يقولون » .
فعبق على كلامي قائلاً : « ان هذا العرف الذي تحكي عنه ، ليس الا

مظهرا من مظاهر الفساد في مجتسنا ، وعليك أنت وعلى أمثالك واجب
محاربة هذا الفساد بدون هوادة ، لا الانزلاق في مهاويه المدمرة ..»

كان الرجل يتكلم وكأنه مصلح اجتماعي كبير ومعلم حاذق
قدير ؛ وقد كبر في عيني ، بينما صغرت كثيرا في عين نفسي ، وتسلكني
الخبجل أمامه ، بعدما سمعته من كلام ، ظلت نبراته الصادقة تتردد في
مسامعي طيلة حياتي العملية .

كان الرجل الفقير غنيا في ابائه وطهارة يده وعفة نفسه ؛ كان،
في وظيفته الصغيرة وفي هندامه الرث ، يبدو مالكا لثروة لا يمتلكها
أكبر العظماء وأغنى الاثرياء . كانت ثروته هي شرفه وقناعته التي
كانت في الحقيقة كنزا ثميناً لا ينضب معينه .

اني ألتقي به أحيانا في الطريق ، وقد تجاوز الشانين من عسره ،
فأرى فيه المعلم الكبير الذي أعترف بفضلته ، دون أن أمتلك الجرأة
لمخاطبته مرة ثانية ولو بالشكر والاطراء . وكم كان حريا بالاجيال
العديدة من موظفي وطننا ، مدنيين وعسكريين ، قضاة واداريين ،
أن يقتدوا بهذا الانسان المثالي ، وأن يمشوا في أداء وظائفهم مثله
بصست وشرف ، وبعفة وأمانة ؛ وهم لو فعلوا ذلك جميعا ، لكان
حالتنا غير ما نحن عليه اليوم ، وبالتأكيد لكان الاعداء قبل الاصدقاء
قد احترمونا وتحيوا وضع أقدامهم على عتبة بلادنا . لا شك أن
الشرفاء من أبناء شعبنا كثيرون ، وأمثال هذا الرجل في مجتسنا
عديدون ؛ ولكن الكثير من المناصب الحساسة والمراكز الهامة ،
قد تسلط عليها في مراحل الحكم الوطني ومنذ فجر الاستقلال ،
أشخاص ضعاف النفوس ، فيهم الاتتهازيون النهسون والجياع
الجشعون ؛ فكانت هذه هي الثغرة التي تمكن الاعداء من النفاذ من
خلالها ، الى نفوسنا ، وضماثرنا ، وصفوفنا ، ومجتسنا ، حتى بات

هذا المجتمع مهددا دائما بخطرهم ، ومعرضا لا لعدوانهم فقط ، بل لعبثهم الدائم بمقدراتنا ، نحن أبناء الشعب وأصحاب هذه الارض ، نعيش عليها وكأنا دمي في أيديهم يحركونها كيف يشاؤون .



قبل انتهاء فترة تمريني في المحاماة ، كلفت بهمة رئيس ديوان نقابة المحامين في دمشق ابان عهد نقيب المحامين الدكتور سامي الميداني ، وأصبحت خلفا لرئيس الديوان السابق المحامي الاستاذ هشام دياب الذي التحق يومئذ بوظيفة في السلك الخارجي . والدكتور الميداني كان في ذلك الوقت عميدا لمعهد الحقوق العربي في دمشق ، ثم أصبح فيما بعد رئيسا للجامعة السورية ، كما كان شريكا للاستاذ المحاسني في مكتبه ، وهو رجل خلق على جانب كبير من الرقة والتهديب ، وانتخب بعده الاستاذ أحمد فؤاد القضائي نقيبا للمحامين ، فقابلني منذ البداية بروح عدائية واضحة ، نظرا لجو الخلاف والبغضاء بينه وبين الاستاذين المحاسني الاب والابن . وفكرت رأسا بترك رئاسة ديوان النقابة والانصراف بكليتي الى العمل في المحاماة ؛ ولكن الدكتور المحاسني الابن نهاني عن ذلك ، معتبرا أن تخلي عن تلك المهمة ، سيكون نصرا للنقيب الجديد في خطته الرامية الى السيطرة على النقابة ومهنة المحاماة بأن واحد . وتابعت القيام بتسيير شؤون ديوان النقابة بصمت . ولكن المحامين كانوا منقسمين الى جبهتين ، جبهة موالية للنقيب الاستاذ القضائي ، وجبهة معاكسة له ، وكان الاستاذ القضائي يفترض بالضرورة أنني من الجبهة الثانية ؛ لذلك لم يخل الجو بينه وبينني من الشحاء ، بالرغم من سعبي الدؤوب لأداء واجبي على أكمل وجه .

وقد اضطرت بعد فترة لأن أستقيل من رئاسة ديوان النقابة،

مؤثرا الانصراف للعسل في الحمامة • وقد عرض علي النقيب
الاستاذ القضائي ، وقتئذ ، مشاركته في مكتبه ولكني اعتذرت ،
مفضلا افتتاح مكتب مستقل أمارس فيه المهنة لوحدي •



وفي رئاسة ديوان النقابة تسنى لي الاطلاع عن كسب على أحوال
المسجلين في الجدول ، وعلى أولئك المجازين في الحقوق الذين كانت
تستهويهم أضواء مهنة الحمامة الساطعة ، فيتجلبون برءائها الاسود ،
ويحملون هموم الناس طيلة العمر •

ومن بين هؤلاء ، شاب موسوي يحمل الجنسية الايرانية ،
تقدم بطلب تسجيله في سجل المحامين ، مستفيدا من نص في قانون
الحمامة القديم ، كان يجيز لرعايا الدول المنتسبة لعصبة الامم ممارسة
الحمامة في الاراضي السورية •

وقد ظل هذا المحامي ، الاجنبي الجنسية ، يمارس مهنته أمام
جميع المحاكم السورية بحرية تامة ، دون أن يتعرض في يوم من الايام
لمعارضة أية من السلطات السورية لأية معاكسات ، رغم استفحال
النزاع العربي الاسرائيلي ، ورغم مزاعم اسرائيل الباطلة بأن اليهود
السوريين يعانون من الاضطهاد الطائفي والتمييز العنصري •

والحالات الوحيدة التي جعلت السلطات تتدخل أحيانا في شؤون
ذاك المحامي ، كانت عندما تنهض الادلة على أنه يمارس الطب
ويداوي المرضى في مكتبه ، الى جانب الدفاع عن موكله أمام
المحاكم السورية •

لقد توفي الزميل الايراني الجنسية واليهودي العقيدة ، بعد
أن مارس الحمامة بين ظهرانينا قرابة ربع قرن • وقد استحق وراثته

راتب التقاعد من صندوق مؤسسة تقاعد المحامين ، كما استفادوا من صندوق الضمان الاجتماعي بتقاضي مبلغ خمسة عشر ألف ليرة سورية ساهم بدفعه ، بطيعة خاطر ، جميع المحامين العاملين في سورية ، دون أن يكون زميلهم المتوفي قد أسهم جديا بتغذية صندوق الضمان المؤسس حديثا قبل وفاته •

ان مجتمعنا كان ولا يزال لا يعرف التعصب الديني أو التمييز الطائفي أو العنصري • ولكن شعبنا العربي مجبول ، بحكم طبيعته وتكوينه وماضيه ونزعة أفراده ، على رفض الظلم ومجابهة العدوان ؛ ولذلك ، فانه لم يقبل ولن يقبل أن يقطع جزء ، مهما صغر ، من أرضه ليكون وطننا قوميا لغير أبنائه وقاعدة لأعدائه •

ان فلسطين كانت وما زالت عزيزة ، رغم ما يسودها حاليا من اغتصاب لأراضيها وعدوان شرش على شعبها • وان أرض الوطن العربي تتسع لجميع أبنائه ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وطوائفهم ، ولكن ليس فيها أي متسع للغزاة المعتدين ؛ وهي لن تلبث ، عاجلا أم آجلا ، أن تطردهم من أرجائها ، وتجعل من جوفها مقبرة لمن يحاول المكابرة منهم والمضي في عدوانه ؛ وانها ترحب بالاجانب ضيوفا أجراء مكرمين ، ولكنها تلفظهم وبقسوة عندما يأتون بزي مغتصبين •



وقد خلف الدكتور المحاسني الاستاذ القضائي كنعيب للمحامين بعد معركة انتحائية حامية الوطيس جرت بينهما • وباتهاء دورة النقيب الدكتور المحاسني ، انتخب الاستاذ عبد القادر الميداني نقيبا للمحامين ، وجرى انتخابي عضوا متما في مجلس النقابة • وقد شاركت المجلس في تصريف شؤون النقابة وفي معالجة مشاكل المحامين ، وهذه واحدة من تلك المشاكل :

ألقي القبض على الدكتور مصطفى أمين ، وكان لا يزال محاميا
مسترنا ، فمضى على اعتقاله أكثر من عشرين يوما ، دون أن يحال
الى القضاء ، ودون أن تصدر بحقه أية مذكرة توقيف قانونية . فأثرت
موضوع هذا التوقيف التعسفي أمام مجلس النقابة ، وألححت على
النقيب الاستاذ الميداني للقيام بسعى خاص لدى السلطات العليا
للافراج عن الزميل المعتقل ؛ فلم يبد سيادته تحسا للفكرة ، بحجة
أنه يصعب التفاهم مع العسكريين الذين يريدون ارباب الشعب بشل
هذه التصرفات الكيفية ، وأن مجلس النقابة بعدد أعضائه الضئيل لا
يستطيع التأثير عليهم في مثل هذا الموضوع . فاقترحت عليه أن
تشكل وفدا كبيرا يضم بعض النقباء السابقين والمحامين
البارزين ، بالإضافة الى هيئة مجلس النقابة ، فوافق على ذلك ، ودعا
بعض هؤلاء ، وكان من بينهم النقيب الدكتور أسعد المحاسني وعضو
مجلس النقابة السابق الاستاذ رضا العظمة . وقابل الوفد ، بناء على
موعد سابق ، رئيس الدولة اللواء فوزي سلو الذي رحب بزيارته
ترحيبا جسيلا . ولكن عندما أثير موضوع المحامي المعتقل ، تغيرت
لهجته وسأل باستغراب : « وما علاقتكم أتم بالامر » . فأجابته
النقيب الاستاذ الميداني : « ان الامر يتعلق بزميل لنا ، مسجل في
جدول نقابتنا ، ونحن مهتسون بوضعه لهذا السبب ؛ وقد جئنا نرجو
أن تعامله السلطات معاملة تنشى مع أحكام القانون » . فعلق رئيس
الدولة على هذا الكلام وبسخرية زائدة : « قانون ؟ مرجبا قانون ! ..
نحن دسنا بأقدامنا الدستور الذي تسونه أبا القوانين ، ولم يرتفع
أي صوت في البلد . لا ، لا ، الله يرضى عليكم ، فحكاية القانون
يمكن أن تبحثوا فيها لدى المحاكم في القضايا التي تتوكلون فيها ؛ أما
عندنا فلا مجال للبحث لا في القانون ولا في غيره ، ونحن نفعل
ما نشاء ، ولا شأن لكم أتم في ذلك » . ولما أراد أعضاء الوفد

الاستيضاح عن الفعلة المنسوبة لزميلهم الموقوف ، حتى يعامل أسوأ مما يعامل به المجرمون ؛ أجابهم رئيس الدولة : « هل يعقل أن نعتقل بريئاً ؟ .. » فقلنا له : « ما دام الامر كذلك ، فلماذا لا تحاكمونه أمام القضاء ، حتى اذا ثبتت ادائته ، قضى عليه بالعقوبة التي يستحقها؟ » . فأجابنا بحدة وكأنه يريد حسم النقاش : « انا سنعدمه ، بدون محاكمة ، ولن تستطيعوا أن تفعلوا أي شيء » ..

وتجاه هذا التحدي الصارخ للقانون ورجاله ، والطريقة الخسنة التي قابلنا بها رئيس الدولة المزيف ، لم يسعنا الا أن تسحب مستكرين هذا الاسلوب غير المألوف في معالجة شؤون الدولة وقضايا المواطنين وفي الاقتتات على حرياتهم .



لقد كان بإمكان رئيس الدولة ، أن يستعمل الحكمة في تلك المواجهة ، كأن يتظاهر بعدم معرفة أي شيء حول الموضوع ، أو يعد بدراسة المسألة مثلاً ، غير أنه تعدد ، على ما يبدو ، اتخاذ هذا الموقف الصارم ، ليدلل على أنه صاحب الكلمة الاولى وأنه ذو سلطان عظيم .

ولكن المفارقة المضحكة هي أن صاحب السلطان الفعلي ، وهو العقيد أديب الشيشكلي أمر في اليوم التالي ، وبناء على مكالمة هاتفية من معاون رئيس الشعبة الثانية الملازم الاول هشام الميداني الذي نصحه بعض المحامين ، بأن اعتقال زميلهم يثير ضجة ، لا مصلحة للسلطة بتركها تتعاطم وتتضخم ، أمر بالافراج عن الدكتور أمين الذي كاد مجلس نقابته يوصله الى جبل المشنقة برأجهته لأعلى مسؤول في الدولة ، لو لم تسعفه مداخلة بعض زملائه الشبان ، برأجتهم لمسؤول صغير في الشعبة الثانية .. وقد أوضح الدكتور أمين ، لدى

ظفره بحريته ، أن التهمة المنسوبة اليه كانت القاء متفجرة على مبنى السفارة الاميركية • والحقيقة ، ان بعض عناصر الشعبة الثانية ، هي التي كانت اصطنعت الحادث ، بناء على أوامر خاصة من العقيد أديب الشيشكلي الذي كان يريد أن يتخذ منه سببا للملاحقة العناصر اليسارية ، ارضاء لحكومة الولايات المتحدة الاميركية •



انتخبت مرة ثانية عضوا في مجلس ادارة تقاعد المحامين ، في عهد نقيب المحامين الاستاذ ظافر القاسبي الذي قاد بحكمة وشجاعة كفاح المحامين ضد العهد الدكتاتوري الذميم •

كما انتخبت ، بعد ذلك ، عضوا أصيلا في مجلس نقابة المحامين ، في الدورة الانتخابية التي فاز فيها الدكتور عدنان القوتلي نقيبا ، وقد وجه اهتمامه العظيم لعقد مؤتمرات كبيرين للمحامين العرب ، وللحقوقيين الآسيويين الافريقيين ، في مدينة دمشق •

الى الساحة الدولية

« دعونا نثق في أن العمل المستقيم
الصائب يمدنا بالقوة والعزم
والمقدرة دعونا نعمل بهذه الثقة حتى
النهاية ، شاعرين بالجرأة على أداء
الواجب كما نفهمه » .

« ابراهيم لنكون »

كان النشاط النقابي يشكل نافذة واسعة تساعد على الاطلاع
على بعض أحوال وطننا الكبير والعالم الواسع من حوله ، وعلى
معالجة القضايا العامة من زاوية الحق والقانون . والعمل النقابي هو ،
بحد ذاته ، جزء من الكفاح السياسي في سبيل تحقيق المبادئ
والاهداف .

★ ★ ★

ففي مؤتمر المحامين العرب الثاني الذي عقد في القاهرة في أوائل
شهر آذار (مارس) ١٩٥٦ ، وكنت آنذ عضوا في مجلس نقابة
المحامين بدمشق ، حضرت اجتماع المكتب الدائم للسؤتر ، وقد
صار عقده قبل أيام من انعقاد المؤتمر الكبير .

وقد تسنى لأعضاء المكتب الدائم للثورة ، المشلين لنقابات
المحامين في البلاد العربية مجال مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر ،
وكان آئذ قد أصبح قائدا لمجلس الثورة ورئيسا لمجلس الوزراء
بعد تنحية اللواء محمد نجيب عن جميع مناصبه وفرض الإقامة
الجبرية عليه في منزله . وقد توجه أعضاء الوفود الى مقر مجلس
الوزراء في الموعد المحدد من قبل ديوان الرئاسة ، للقاء الرئيس
المصري الشاب . وفي بهو مبنى الرئاسة احتشد النقباء ، وأعضاء
النقابات الشيوخ والكهول والشبان ، ومعهم ليف من عقيلاتهم .
وطال الانتظار أكثر من ساعة ونصف عن الموعد المضروب ، والجميع
واقفون على أقدامهم ، بانتظار ظهور الضابط الثائر على النظام
القديم . وقد اعتذر بعض رجال القيادة عن تأخر سيادة الرئيس في
استقبال زائريه ، بالحرص الكبير الذي أحدثه اصطحاب بعض هؤلاء
لزوجاتهم معهم ؛ ذلك لأن قائد الثورة لم يألف بعد الظهور في مجتمع
يضم بين أفرادهم مثلات عن الجنس اللطيف . ولم يكن من اللائق
طبعاً انصراف السيدات الحاضرات اللواتي كن أشد لهفة من الرجال
للنميش بوجه الثائر الاسمر . وأخيراً ، وبعد طول انتظار ، صار
خرق التقليد الثوري ، وقدم السيد الرئيس محاطاً ببعض أفراد
حاشيته ، واستقبل الزائرين والزائرات مرحباً بهم جميعاً في أرض مصر
الثورة . وبعد أن ألقى بعض رؤساء الوفود كلمات التأييد والثناء ،
أخذت للشهد بعض الصور التذكارية . وخرج البعض من ذلك
اللقاء مبهوراً بقوة شخصية البكباشي الثائر الذي سيقود شعبه
الى العزة والنصر ، ووجدوا فيه أملاً كبيراً من آمال الامة العربية ؛
بينما لم يخف البعض الآخر انطباعه بأن تسلك هذا الرجل العسكري
على قبة الهرم ، ليمسك سلطانه المطلق على مواطنيه ، لن يكسبهم
وهم أصحاب التراث الفرعوني ، الضخم ، الحافل بظواهر تأليه

الحاكم ، وعبادة الشخصية ، الا المزيد من مآسي الدكتاتورية التي سيكتوي بنارها الجميع ، لأن الدكتاتورية لا تجر على الوطن الا الفشل والهزيمة •

★ ★ ★

وقد رعى سيادة الرئيس حفلة افتتاح المؤتمر الذي عقدت جلسته الاولى يوم السبت الواقع في ٣ آذار (مارس) ١٩٥٦ في قاعة الاحتفالات الكبرى في جامعة القاهرة ، وألقى كلمة الافتتاح التي رحب فيها بانعقاد المؤتمر وتبنى له « أن يكون هو والمؤتمرات التي تشبهه وتجري على منواله هاديا الى التقارب والتفاهم والتسك » ، ولم يشر سيادته الى فكرة الوحدة العربية وكفاح العرب الطويل من أجلها ، لا من قريب ولا من بعيد •

★ ★ ★

وفي اليوم الثاني من انعقاد المؤتمر الذي استغرق ستة أيام ، وبعد انتهاء حفلة الافتتاح وتوزيع العمل بين أعضاء الوفود الذين انقسموا الى لجان عديدة ، تقدمت من رئاسة المكتب الدائم بذاكرة خطية تتضمن البحث في الاساليب الوحشية التي تتبعها السلطة الحاكمة آنئذ في العراق في محاربة معارضيها ، ومن جملتها تجريدهم من جنسيتهم العراقية ونفيهم من وطنهم العالي ، وطلبت احالة المذكرة الى المؤتمر لاتخاذ قرار باعتبار التجريد من الجنسية تدبيرا غير انساني ، والتوصية بالغاء عقوبة النفي والابعاد في كافة الاقطار العربية •

ولم تكد المذكرة تسلم الى أمانة سر المؤتمر ، حتى تراكض عدد من الزملاء المصريين وهم يستنكرون اثارتي لموضوع خطير سيسبب

مشاكل واحراجات يمكن تفاديها بسحب المذكرة (١) .

(١) نص المذكرة :

الى رئاسة المكتب الدائم لأؤتمر المحامين العرب الثاني

تحية الحق والعروبة .

لكل انسان حي ان يعيش على ارض وطنه وان يتمتع بجنسيته
يمارس حقوقه وواجباته تجاه الدولة ضمن حدود الانظمة والقوانين .
وان هذا الحق هو من حقوق الانسان الطبيعية التي كفلتها
دساتير العالم المتمدن كافة .

ولكن السلطة الحاكمة في العراق العربي الشقيق عمدت ، لمكافحة
معارضها ومقاومي مشاريع الاستعمار المفروضة عليها ، الى اسلوب
فريد وعجيب ، وهو تجريد هؤلاء المواطنين الاحرار من جنسيتهم
العراقية وطردهم من بلدهم الغالي وتسليمهم الى السلطات التركية
ليزج بهم في السجون والمعتقلات .

وان من بين هؤلاء الذين جردتهم السلطة الحاكمة في العراق من
جنسيتهم وطردهم خارج الحدود ، بعض المحامين العراقيين الذين
يرسف عدد منهم بالقيود ضمن المعتقلات التركية ، وهم عبثاً
يستنجدون بالحكومات العربية لانقاذهم من حالة البؤس والظلم التي
يتخبطون فيها في معتقلات بلد يعاملهم معاملة العبيد المجردين من كل
حق .

وقد يكون لكل دولة ان تسن التشريعات التي تكفل لها حماية
امنها وطمانيئتها بفرض العقوبات والغرامات الجزائية على كل من
يحاول العبث بذلك ، ولكن ان تعمد السلطة الحاكمة في العراق الى
هذا التدبير الشاذ وغير الانساني ، فهذا ما لا يقره ضمير اي مواطن
عربي .

وان الواجب الانساني قبل الواجب السلبي يدعونا لان نسارع
الى نصرة احرار العراق على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، والعمل على
انقاذهم من هذا السلاح الرهيب الذي لم تلجأ اليه السلطة الحاكمة في

←

وقد استغربت منهم ذلك الموقف من مبدأ انساني كنت أحسب



العراق الا لكم الافواه وصرف الشعب العربي الابي في العراق عن مجرد التفكير بمقاومة مشاريعها الاستعمارية وأهمها حلف بغداد - أنقرة - لندن .

لذلك أرجو احوالة هذا التقرير الى اللجنة المختصة في المكتب الدائم لدراسته على ضوء شرعة حقوق الانسان ومصلحة الوطن العربي وحوالته الى الهيئة العامة للمؤتمر لاتخاذ القرار بما يلي :

أولاً : اعتبار التجريد من الجنسية تدبيراً غير انساني فيه اعتداء على الحرية الفردية والكرامة الشخصية ، وتحريم اللجوء الى هذا الاسلوب الارهابي الخطير .

ثانياً : التوصية بإلغاء عقوبة النفي او الإبعاد في كافة الاقطار العربية ، وهذا ما عمدت اليه الحكومة السورية عندما أصدرت تشريعاً بإلغاء هذه العقوبة من قانون العقوبات .

ثالثاً : توصية حكومات الدول العربية بمنح سمات السفر والاذن بالإقامة لكافة المواطنين العرب الذين حرمتهم السلطة الحاكمة في العراق من جنسيتهم وطردتهم من الاراضي العراقية وبالتالي منحهم جنسية ابلد العربي الذي يختارون استيطانه .

رابعاً : تشكيل لجنة تحقيق تتولى التحري عن أسماء كافة المواطنين الذين جردتهم السلطة الحاكمة في العراق من جنسيتهم وعن أماكن وجودهم الحالية ومساعدتهم على الإقامة في الاقطار العربية التي يختارونها وعلى كسب جنسياتها .

خامساً : توصية نقابات المحامين في الاقطار العربية بتسجيل المحامين العرب في العراق الذين حرموا من جنسيتهم وطردوا من بلادهم في جداولها تمكيناً لهم من ممارسة المحاماة في نطاق مناطقها .

القاهرة في ٤ آذار سنة ١٩٥٦

المحامي رياض المالكي

عضو مجلس نقابة المحامين في دمشق

وعضو المكتب الدائم لمؤتمر المحامين العرب الثاني

سلفاً أنه سينال تأييد جميع أعضاء الوفود الى المؤتمر ، وبخاصة منهم الوفد المصري الذي كان المؤتمر يعقد في بلده « الثورة » .
ولكن سرعان ما زال عجبي عندما علست من أفواه الزملاء أنصار الثورة المتحمسين ، أن حكومتهم الانقلابية تلجأ أيضاً الى تجريد بعض المناهضين لسياستها من جنسيتهم المصرية وتأمر بإبعادهم عن وطنهم ، وتحول دون عودة البعض الآخر اليه ، لاتقاء خطرهم ، كأفراد ، على النظام الثوري الهادف لتحرير الشعب من طغيان النظام الملكي الفاسد وأساليبه الاستبدادية . ولكن تلك المعلومات غير المتوقعة ، لم تزدني الا تشبهاً برأيي ، وتمسكاً بذكرتي ، واصراراً على عرض الاقتراح الوارد فيها بكامله على اللجنة المختصة في المؤتمر ، اعتقاداً مني بأنه سيفوز بسوافقة الاكثرية الساحقة من أعضائها .

ولكن خيبة أملي كانت كبيرة عندما عرض الاقتراح على المؤتمر في جلسته الختامية مبتوراً ومشوها ومقتصراً على استتكار المؤتمر مبدأ نزع الجنسية عن المواطنين العاملين للقضية العربية ضد الحلف التركي العراقي وسائر الاحلاف الاستعمارية ، دون غيرهم^(١) .

لقد نجحت يد الانقلابيين المصريين اذن بالامتداد الى داخل المؤتمر بواسطة مخبريهم ، لتجزئة مبدأ انساني أساسي كان جديراً بحكام مصر الثورة أصلاً ، قبل محاميتها ومخبريها ، أن يحترموه ويقدموه ، لأنه يتعلق بحق طبيعي من حقوق المواطنين في أي زمان ومكان .

(١) نص قرار المؤتمر :

يستنكر المؤتمر مبدأ نزع الجنسية عن المواطنين العاملين للقضية العربية ضد الحلف التركي العراقي وسائر الاحلاف الاستعمارية ويوصي بالتدخل لدى السلطات العراقية في سبيل رفض الحيف اللاحق بالمواطنين العراقيين في هذا الخصوص .

وما زالت ، وللأسف الشديد ، تدابير سلخ الجنسية وعقوبة
النفي والابعاد بحق المواطنين العرب المنحدرين من صلب أجدادهم
الذين أقاموا على ثرى الارض العربية آلاف السنين سارية المفعول
في معظم أجزاء الوطن العربي ، بينما نرى « اسرائيل » تمنح جنسيتها
ليهود العالم قاطبة حتى ولو كان مقامهم الدائم خارج الاراضي
المحتلة ، وتفصلهم عنها آلاف الاميال •

وبالرغم من هذه البادرة السلبية غير المستحبة ، فقد كان المؤتمر
في الحقيقة تظاهرة قومية رائعة ، تجلّى فيها تضامن أبناء الدول العربية
بشكل بارز والتفافهم حول قضاياهم الكبرى بوعي وحساس شديدين •

وكان من أبرز القرارات التي اتخذها المؤتمر :

— ان الحل الوحيد لقضية فلسطين لا يكون الا باسترداد
القسم المغتصب منها والقضاء على اسرائيل والصهيونية •

— ان المؤتمر يرفض كل حل أو مشروع أو محاولة صلح مع
اسرائيل كما يرفض كل تصريح ينطوي على صلح معها ، أو اعتراف
بها ، أو يؤدي الى ذلك صراحة أو ضمنا •

وقد أوصى المؤتمر بأن يعد المكتب الدائم مشروعاً لدستور
اتحادي للبلاد العربية •

وبالإضافة لما أصدره المؤتمر من قرارات هامة تتعلق بحريات
المواطنين وحقوقهم الأساسية ، وحق العرب في الاستقلال والسيادة
وبرفض المشاريع الاستعمارية ، أصدر أيضاً قرارات تنظيمية تتعلق
بهيئة المحاماة والحامين وبتوحيد التشريع في البلاد العربية
والمصطلحات الفقهية والقانونية ، وكان من أهم تلك القرارات القرار

المتضمن انشاء اتحاد للسحامين العرب وفق قانون أساسي ونظام داخلي صار اقرارها أيضا في ذلك المؤتمر الكبير .

★ ★ ★

كان انعقاد المكتب الدائم للمؤتمر في أوائل عام ١٩٥٦ ، ثم انعقاد المؤتمر بعده في عاصمة أرض الكنانة ، فرصة لنا للاطلاع على أحوال هذا القطر العربي الكبير . وكان أول ما لفت نظرنا في شوارع القاهرة الطويلة وميادينها الواسعة ، ومتاجرها الغنية ، ومباهجها العديدة ، هو سيطرة العنصر الاجنبي على معظم مرافق الحياة ؛ وفي كثير من الحالات كان المرء يخال نفسه في بلد أجنبي أو على الأقل في مستعمرة يحتلها الاجانب ويسيطرون فيها على كل شيء ؛ ذلك أن عدد الاغراب من بريطانيين وإيطاليين وفرنسيين ويونانيين كان كبيرا جدا ، لهم الصدارة في كل مكان تقريبا ؛ وهم بشكل خاص يتلكون معظم المؤسسات الاقتصادية والمحلات التجارية الكبيرة وأهم الفنادق والمطاعم والمقاهي والنوادي الراقية . وكان منظر الشعر الاشقر والعيون الزرقاء سائدا في المحال العامة بشكل يلفت النظر . ولكن ما أن جرى تأميم قناة السويس في بحر العام نفسه ، ووقع العدوان الثلاثي على الاراضي المصرية ، وأكهرت بعده القوات الانكلوفرنسية الاسرائيلية المعتدية على الانسحاب ، حتى تقلص وجود العنصر الاجنبي في أرض الكنانة ، وامحى أثره الظاهر من كافة مجالات الحياة المصرية ومن المرافق العامة والخاصة في هذا القطر العربي المجاهد .

★ ★ ★

وقد نظمت لنا نقابة المحامين في القاهرة ، بالاشتراك مع مصلحة الاستعلامات المصرية ، برنامجا حافلا بالزيارات . وقد قننا بزيارة

مقر رئاسة المجلس الاعلى للخدمات الاجتماعية حيث اطلعنا على برنامج مفصل لتعميم الخدمات الاجتماعية على سائر أنحاء الريف المصري ، وانتقلنا بعد ذلك ، لزيارة مركز الوحدات المجمعة في قرية برنشت التي كانت فيما مضى منطقة هامة من مناطق الاقطاع الزراعي . وفيها اطلعنا على ما بنته الثورة خلال سنوات قليلة ، حيث أقيمت المنشآت الحديثة لتوفير جميع الخدمات الضرورية لرفع مستوى حياة الفلاح في تلك المنطقة ، وقد ضمت تلك المنشآت المدرسة الى جانب رياض الاطفال ، والمستوصف الى جانب المسجد ، ومعامل تعليب وتوضيب المنتجات الزراعية والعسل والالبان ومشتقاتها الى جانب معمل للزيوت والصابون ، ومكاتب الارشاد الزراعي الى جانب ورشات صنع السجاد والمنسوجات المطرزة وسواها . كانت المشاريع المنفذة في القرية نموذجاً حياً لما يجري تخطيطه للنهوض بالريف المصري ، عن طريق تعميم مثل هذه الخدمات في شتى أنحائه ، وخلال مدة عشر سنوات . وقد خرجنا من زيارة المركز الاجتماعي النموذجي وبعد سماع الشرح الوافي عن عزم الثورة على تعميم مثل تلك الخدمات الاجتماعية على الفطر بكامله ، والاعجاب يلاذ نفوسنا والتفأول يفعم قلوبنا ، وقد عبّر بعضنا عن هذا الاعجاب بقوله لزملائه : « ان هذا البرنامج قسین لدى انتهاء تنفيذه ، يجعل الريف المصري أرقى من الريف السويسري أو الريف الأمريكي » .. ولكن فلاحاً مصرياً كان يدفعه الفضول لسامع أقوال الضيوف العرب ، علق قائلاً : « لا تصدقوش الكلام ده ... ده كله للدعاية والفشورة وخداع اللي يزورونا زيكم ... » ولكن السامعين رمقوا الفلاح الجاحد بنظرة استهجان ، ورثوا لحاله كيف أن الثورة تعمل من أجله ، وكيف يقابل هو عملها الجبار بالكران .

والآن ، وبعد أن انقضى أكثر من خمس عشرة سنة على تلك الزيارة واللقاء ، أضحى من حق ذلك الفلاح أن يسأل اخوته المحامين العرب الذين خاطبهم بالامس البعيد فلم يصدقوه : « هل تحقق لي ولاخوتي الفلاحين المصريين ، ما وعدونا به من برامج ثورية في مجال البناء الاقتصادي والخدمات الاجتماعية ؟ » . الجواب هو طبعاً عند قادة مصر الثورة ، وأغلب الظن أنه لن يكون بالإيجاب ، وإن كان من المرجح أن المخطط الصهيوني الاستعماري هو الذي يضيغ على الشعب العربي في أي قطر من أقطار الوطن العربي الكبير فرصة تحقيق مناهج التطور الاقتصادي الكامل والتقدم الاجتماعي الشامل .



وفي زيارة ثانية لمديرية التحرير ، وهي الرقعة الواسعة من أرض الصحراء التي استصلحتها حكومة الثورة تحت إشراف أحد ضباطها وهو الصاغ مجدي حسنين ، بعد أن جرت لها مياه الري من نهر النيل العظيم بواسطة قناة شقتها الإرادة الفولاذية قبل الآليات الضخمة والجرافات ذات القدرة الفائقة ، اطلع أعضاء وفود المحامين العرب بأنفسهم على المجهود الجبار الذي بذل لقهر الطبيعة القاسية وإخضاع رمال الصحراء لسواعد الفلاح المصري الذي يسعى ويكدح لحل أزمة العيش وتقديم الغذاء والطعام للسلايين المتزايدة من أبناء شعب مصر العربي الطيب .



ومع أعضاء سائر الوفود العربية المشتركة في المؤتمر زرنا المصانع الحربية في حلوان ، وابتهجنا لاتجاه حكومة الثورة نحو تصنيع البلد وتأمين اكتفائه الذاتي بالصناعات الثقيلة والأسلحة

الحرية • ولكن المشككين كانوا يقابلون موجة الاعجاب والاعتزاز المسيطرة على نفوس أغلبية المحامين ، بادعائهم الصريح بأن أسس تلك الصناعات والمصانع واهية ، وجذورها المنغرس في رمال الصحراء سطحية وغير عيقة ، وان الجهود المبذولة لن تعطي أكلا وافيا بالحاجة والغرض ، وان الدعاية الضخمة قد تولد بادية الامر شعورا مفعنا بالاعجاب والرضى ، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الشعور لدى اصطدامه بالنتائج الاخيرة الحاسمة التي يجب أن يحسب لها سلفا كبير حساب . وكان رأي هؤلاء رغم كل ما شاهدناه من بوادر العمل الايجابي الخلاق ، أن الانقلاب العسكري ليس هو الحل لمشاكل الامة ، وأن الثورة الحقيقية هي التي توجه اهتمامها لبناء الانسان ، وأنه بعد اكتمال هذا البناء في أجواء الحرية الحقيقية التي لا تدوسها نعال العساكر وسياط الجلادين ولا اجراءات التجريد من الجنسية ونقي المواطن خارج وطنه بعيدا عن أهله وصحبه ، سيتمكن الانسان الحر من بناء المجتمع الحديث الذي يستطيع بارادته وتصميمه ، قبل أسلحته ومصانعه الحرية ، الصمود في وجه عاديات الدهر وغدر الاعداء •



وفي شهر (مايو) أيار ١٩٥٦ ، دعي مجلس النقابة لحضور المؤتمر الذي نظمته رابطة الحقوقيين الديموقراطيين الدولية ، في مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا • وقد اشتركت في عضوية الوفد الذي شكله مجلس النقابة لحضور هذا المؤتمر اليساري الذي اشترك فيه عدد كبير من المحامين من معظم أقطار العالم من كلا المعسكرين الغربي والشرقي ومن دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية • وقد ترأس المؤتمر اللورد بريث ، وهو من كبار مستشاري البلاط الملكي البريطاني •

ولدى هبوطنا من الطائرة في مطار بروكسل استقبلنا محام بلجيكي ، كان اصطحب معه ابنته الصبية التي لم يكتف عنا والدها سر مجيئها معه وخيبة الامل التي أصابتها لدى رؤيتنا ، وذلك لانه كان أنبأها بوصول وفد من المشرق يرتدي أفرادهم أزياء شرقية غريبة ولهم أشكال تختلف عن الآدميين الاوروبيين • ولكن انطباعه اختلف بالكلية عندما رأى الزملاء السوريين لا يقلون رقيا في أزيائهم وثقافتهم عن سائر المحامين البلجيكين •



ومن خلال وجودنا في مدينة بروكسل واشتراكنا في المؤتمر الذي عقد فيها ، تسنى لنا الاطلاع على مدى الكره الذي يحلله الشعب البلجيكي للصهاينة ، وكانت تجري أمامنا حوادث عابرة ولكنها معبرة عن حقيقة نظرة الشعب الى هؤلاء الذين أرادوا أن يجعلوا من أنفسهم بشرا فوق البشر فباؤوا باحتقار جميع البشر ، الاوروبيين قبل سواهم • وبالمقابل لمسنا من داخل المؤتمر ورابطة الحقوقيين الديموقراطيين التي دعت له وأشرفت عليه مدى تغفل اليهود في أجهزة تلك المنظمة الدولية اليسارية •

فقد أثار الناسخون على الآلة الكاتبة لدى اعطائهم كلفة الوفدين السوري واللبناني المشتركة لنسخها ، اتباه أمانة سر المؤتمر الى الهجوم الذي تضمنته الكلفة ضد العدوان الاسرائيلي والمؤامرة التي حاكها المستعمرون بالاتفاق مع قادة الحركة الصهيونية والتي أدت الى قيام صراع دام ودائم على أرض فلسطين العربية سيكون ضحيته العرب واليهود معا • وكان بنتيجة ذلك أن أصرت أمانة السر على حذف بعض المقاطع من الخطاب السوري اللبناني بحجة

تعهدنا للحكومة البلجيكية بعدم تعرض المؤتمر لسيادة واستقلال الدول التي تربطها بالملكة البلجيكية روابط الصداقة والاعتراف المتبادل . ومع ذلك ظل أعضاء الوفدين السوري واللبناني يتابعون جهودهم في المؤتمر لفضح أساليب اسرائيل العدوانية والتأكيد على استحالة قيام تعايش سلمي بين المعتدين والمعتدى عليهم .



وفي طريق عودتنا الى بلدنا عرجنا على باريس وقنا فيها بجولة سياحية ، ولدى زيارتنا للقصر البلدي استقبلنا أحد كبار موظفيه وطاف معنا في أرجائه المنيفة ، وأطلعنا على مافي قاعاته من نقوش بديعة ولوحات فنية رائعة . وأثناء وجودنا في القصر ، حضر موظف كبير من وزارة الخارجية الفرنسية ، وعرفنا بنفسه ، وذكر أنه كان قبل مدة قصيرة ترأس وفدا روسيا فرنسا زار دمشق لمقابلة المسؤولين السوريين فيها وبحث مسألة العلاقات السورية الفرنسية وما يحدثه موقف السوريين ، حكومة وشعبا ، حيال قضية الجزائر وكفاحها من أجل الحرية والاستقلال من تعكير لجو العلاقات بين البلدين الصديقين سورية وفرنسا ؛ وشكا الدبلوماسي الفرنسي من أن الحكومة السورية أساءت معاملة الوفد وأن كبار المسؤولين السوريين رفضوا استقباله ومقابلة أعضائه . فأجبنا الرجل الحائق بأنه ليست لنا أية صفة رسمية للدخول معه أو مع غيره في أية محادثات تتعلق بسياسة بلدنا . ولكننا استفدنا من الفرصة لنعبر عن حقيقة مشاعرنا حول قضية الجزائر وكفاح شعبها الباسل . فأبدى استغرابه لما لمسه منا من عواطف وحاس حيال بلد تفصله عن بلدنا المسافات الشاسعة ، وهو في نظر الدستور الفرنسي جزء من فرنسا . فأكدنا له أن الجزائر هي جزء من التراب العربي وان شعبها هو جزء من الامة العربية

وأن هذه الحقيقة يؤكدها نضال الشعب الجزائري من أجل استقلاله،
وتضامن جميع العرب معه في معركته التحررية المظفرة .

ولما لمس منا الموظف الفرنسي هذا الحساس والاصرار الذي كان
يقابله بكثير من الانفعال ، سكت قليلا في محاولة لتهدئة أعصابه
المتوترة ، وعاد يقول : « الحقيقة أيها الاصدقاء ، ان الاوربيين قد
أخطأوا كثيرا عندما بادروا بلادكم العربية بالعدوان ، فأتتم العرب
أصحاب حضارة أصيلة وكان يسكن أن تتحالف الحضارتان العربية
والعربية وتتضافرا لخدمة العالم والانسانية بعزل عن روح العدا
ولكن الآن وبعد أن بات العالم مهددا بالخطر الاصفر القادم من
أقصى الشرق ، علينا جميعا أن ندرك حقيقة الخطر وتداركه قبل
فوات الاوان » . ولما استوضحناه عن حقيقة هذا الخطر ومصدره .
قال : « انه شعب الصين الشعبية ذو الخمسائة مليون^(١) من السكان
الذين بدأوا يستيقظون ، والذين يرى الغربيون في بواكير يقطتهم
خطرا يهدد العالم أجمع » . فعلقنا على كلام الرجل بأن العرب ما
زالوا يعانون من سياسة التسلط الاستعماري على بلادهم ، وأن
الوباء الاصفر الذي يجتاح منطقتهم الآن ناتج عما زرعه الاستعمار
العربي في قلب وطنهم من بؤرة جرثومية خطيرة ، وهي دولة اسرائيل
القائمة على العدوان والاغتصاب ، فما لم تجل جميع الجيوش الاجنبية
عن ديارنا بما فيها أرض الجزائر البطلة ، وما لم تكف الدول الغربية
جميعها عن حماية اسرائيل ودعم كيائها ، فلا يسكن لصداقة أن تنشأ
وتنسو ، ولا يسكن لأي تحالف أن يعقد ، بل ان أنظارنا ستبقى متجهة
نحو شعوب آسيا وافريقيا ، تتضامن معها في سبيل تحرير قارتينا من
أي أثر من آثار النفوذ الاجنبي .

وانصرف الموظف الفرنسي الكبير ، ونظرات الاقتناع بوجهة

(١) أصبح العدد اليوم سبعمائة وثمانين مليون نسمة .

نظرنا بادية في عينيه وعيني زميله موظف القصر البلدي الذي تابع جولاته معنا ، ودعانا في نفس اليوم لحضور رواية مسرحية كانت تعرض بنجاح على أحد المسارح الفرنسية العتيقة .

وفي خريف عام ١٩٥٧ عقد في دمشق وبالتابع مؤتمران حقوقيان هامان ، الاول كان مؤتمر المحامين العرب الثالث ، والثاني مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين الذي انبثقت فكرة الدعوة اليه من مؤتمر الحقوقيين الديوقراطيين المنعقد في بلجيكا في العام السابق .

وقد أسندت أمانة سر المؤتمر العربي الى الزميل الاستاذ ابراهيم البطل ، وأسندت الي أمانة سر المؤتمر الآسيوي الافريقي ، بينا ترأس المحامي الكبير والاستاذ الجامعي القدير الدكتور عدنان القوتلي رئاسة المؤتمرين بوصفه نقيبا للمحامين ، ورعى حفلة افتتاح المؤتمرين فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

فقد عقد المؤتمر الاول تحت شعار « الحق والعروبة » ، بينما عقد الثاني تحت شعار « الحق والسلام » .

وقد شكل المؤتمران تظاهرتين كبيرتين ، اشتركت في الاول منهما أعداد غفيرة من المحامين العرب الذين توافدوا من معظم الاقطار العربية .

وكان من أبرز القرارات التي اتخذها المحامون العرب ، اقرار مشروع الدستور الاتحادي للدول العربية ، ومشروع قانون المحاماة الموحد .

★ ★ ★

وكان مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين الذي عقد في دمشق في أعقاب مؤتمر المحامين العرب ، أول لقاء لحقوقيي القارتين

يجرى في أخطر بقعة فيها ، في سورية العربية ، التي كانت في ذاك العام ، تتعرض لضغط شديد من كافة القوى المعادية للأمة العربية ، في محاولة لاختضاع المنطقة بكاملها للخطط الاستعماري الصهيوني البغيض . وفي ذلك المؤثر تعرفنا على مناضلين افريقيين كبيرين ، أحدهما هو المناضل التونسي الشهير السيد صالح بن يوسف الذي قارع الاستعمار الفرنسي طويلا واضطهد على يد سلطاته كثيرا ، فسا أن استقلت تونس ونعت باستقلالها وحريتها ، حتى نفي الرجل المجاهد من وطنه الذي ناضل من أجله وأضحى لاجئا سياسيا في القاهرة ، ثم أكره فيها بعد على مغادرة الاراضي المصرية ، ارضاء لحكومة تونس ، في محاولة لتحسين العلاقات بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتحدة ، وقد امتدت يد آتسة لاغتياله غدرا وظلما في ألمانيا الغربية في عام ١٩٦١^(١) ، أما الثاني فهو الزعيم الكامروني

(١) نص برقية التعزية الموجهة في هذه المناسبة :

القاهرة :

— أسرة الشهيد صالح بن يوسف

— المناضل العربي السيد ابراهيم طوبال .

ان ضنت ارض العرب على صالح بن يوسف بشبر واحد يقيم فيه مع أسرته الكريمة ، وهو المجاهد المؤمن الذي قضى معظم حياته في المنافي والسجون في سبيل نصرته وعرزتها ، فان جنان الله الفسيحة فتحت له أبوابها لتستقبله شهيدا خالداً تزين هامته أكاليل الفار والمجد .

خسيء القتل الرعايد والنفوس الحقيمة التي دفعتم لارتكاب جريمتهم النكراء ، فالرسالة التي بذل الشهيد الغالي دمه من أجلها لن يقضى عليها بقتله ، وقد زادتها شهادته خلوداً على خلود .
فصبراً جميلاً يا آل بن يوسف ويا رفاقه الاحرار ، والعزاء الصادق لامتنا العربية التي لن تحقق انتصارها على أعدائها الظاهرين والمستترين الا بمزيد من التضحيات وفيض من دماء الشهداء .

رياض المالكي

الوطني السيد فيليكس رولاند مومية ، الذي اغتالته أيضا القوى المعادية لحركة التحرر الافريقي عام ١٩٦٠ ، عندما دست له أصابع خفية السم في طعامه في سويسرا في وقت كان لاجئا سياسيا في أراضيها .



وقد ألفت في المؤتمر كلمات هامة ومحاضرات قيمة تناولت كفاح الشعوب الآسيوية الافريقية المكافحة في سبيل الاستقلال والتحرر الوطني ، وعالجت المواضيع المتعددة المدرجة في جدول الاعمال . وأصدر المؤتمر بعد التصويت على اقتراحات لجانه ، مقررات هامة حول حق الشعوب في تقرير مصيرها ، والاحلاف والقواعد العسكرية ، والمعاهدات غير المتكافئة ، والحياد الايجابي ، وقضايا الجزائر والفيتنام وكوريا وقبرص والكاميرون ، والحريات العامة والحقوق الطبيعية ، والعدوان وآثاره القانونية ، والسلام العالمي والتفجير النووي ، والتأميم في ظل القانون الدولي .

لقد حقق المؤتمر نجاحا كبيرا ، وكان في الحقيقة مظهرا رائعا من مظاهر تضامن شعوب آسيا وافريقيا . وكان مناسبة هامة ومفيدة لطرح القضية الفلسطينية من خلال مأساة اللاجئين واغتصاب الارض العربية في فلسطين . وقد أعد رئيس الوفد الاردني الاستاذ شفيق رشيدات وقدم للمؤتمر بحثا قيما حول هذه القضية القومية الخطيرة . وقد أكد المؤتمر في جولة قراراته المتعلقة بالعدوان وآثاره القانونية ، « أن المأساة الفلسطينية قد خلقتها الدسائس الاستعمارية وتنج عنها شقاء لا يوصف وعناء لعدد كبير من الناس الذين شردوا من ديارهم ، وكما أكد بالضرورة الملحة لاعادة اللاجئين الى وطنهم الاصلي » .

وتبنى المؤتمر اقتراح لجنة السلام العالمي الذي اعتبر « أن

النوايا العدوانية السافرة لاسرائيل التي خلقها الاستعمار منذ زمن طويل في قلب العالم العربي قاعدة للعدوان على الدول العربية ؛ وعدم اعادة اللاجئين الى أوطانهم مع التعويض عليهم خلافا لمقررات هيئة الامم المتحدة ، كانت وما تزال مصدرا رئيسيا لاشاعة القلق والتوتر في الشرق الاوسط ، منا يعرض السلم العالمي للخطر » .

وأعرب المؤتمر عن تضامنه الكامل مع الشعب الجزائري في كفاحه المشروع من أجل التحرر الوطني وأعلن أن الحل الوحيد للقضية الجزائرية لا يمكن أن يكون الا باعتراف فرنسا على الفور باستقلال الجزائر .



ومن أهم المناقشات التي دارت في سياق بحث ودراسة موضوعات المؤتمر ، تلك التي تناوت القضية الفلسطينية . والذي أعطى تلك المناقشة أهميتها ، الفكرة التي كان يحملها وفد الصين الشعبية حول قضية فلسطين ، اذ كان الصينيون حتى ذلك الوقت متأثرين بوجهة النظر السوفياتية القائنة على الاقرار والتسليم بالكيان الاسرائيلي ، مع محاولة الحد من سياسة التوسع الاسرائيلية ، وحث العرب على التعايش السلمي مع دولة العدوان ، التي لن تلبث على حد اعتقادهم أن تنقلب الى دولة مسالمة اذا ما قضي على النفوذ الاستعماري في المنطقة . وقد احتدم النقاش بين أعضاء الوفد الصيني من جهة وأعضاء الوفود العربية من جهة ثانية لدى عرض المشروع الصيني المتعلق بموضوع السلام على لجنة السلام العالمي والتفجير النووي . وقد دافع الزميل الفلسطيني الاستاذ رويير ملكي بحرارة وحساس عن وجهة النظر العربية القائنة على أساس الرفض الكلي للوجود الاسرائيلي في المنطقة العربية . واحتج الاستاذ ملكي بأن « خلق اسرائيل في قلب البلاد العربية مما يهدد السلام العالمي ، نظرا

الى أن هذه المجموعة من الدخلاء قد خلقت وضعاً غير طبيعي في منطقة الشرق الاوسط ، مما يسبب استفزازاً دائماً ويعكر الامن والسلم .
كما أن استخدام اسرائيل من قبل بعض الدول الاستعمارية ، لخلق جو من التوتر ، واحتلال اليهود وطن العرب أصحاب البلاد الشرعيين والاصليين وطردهم من بلادهم ، كل هذه الامور اذا استمرت تشكل خطراً دائماً للسلم في الشرق الاوسط . » وأضاف : « ان وجود اسرائيل هو بحد ذاته عمل غير قانوني وغير طبيعي » ، وطالب باعتبار اسرائيل مغتصبة وتجريماً .

وقد استمر الجدل حول هذا الموضوع الخطير والعظيم الاهية بالنسبة للعرب ، وامتد من بعد الظهر حتى مطلع الفجر ، حيث ظل الوفد الصيني مصراً على رأيه القائل بأن الاستعمار هو العدو الاول والاخير ، فاذا ما قضي عليه في العالم ، فستنقلب اسرائيل الى دولة مسالمة لا خطر منها ، لا على العرب ولا على السلام .

ولم يخرج أعضاء اللجنة بنتيجة ايجابية أو قرار حاسم حول هذا الموضوع ، فحسبه رئيس اللجنة الاستاذ قاسم حسن (مندوب العراق) باقتراح تقديم مشروع قرار الى لجنة الصياغة ، وتأجيل البحث الى ذلك الحين . وقد صدر القرار عن المؤتمر في جلسته الختامية بالشكل الوارد أعلاه ، وهو كما يلاحظ ، قد اكتفى بالتنبيه الى خطر النوايا العدوانية السافرة لاسرائيل وأثرها على السلم العالمي .

★ ★ ★

لقد ترك موقف الوفد الصيني في المؤتمر أثراً سيئاً في نفوس أعضاء الوفود العربية ، نظراً لما كان يعلقه العرب من أهية كبرى على دعم نضالهم العادل ضد الوجود الاسرائيلي الدخيل ، من قبل جمهورية الصين الشعبية حكومة وشعباً .

ولكن صدف بعد انقضاء المؤتمر بأيام قليلة أن سافر وفد المحامين السوريين الى الاتحاد السوفياتي لحضور مؤتمر للحقوق الادارية عقد في موسكو في أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٥٧ ؛ وقد تشكل الوفد برئاسة النقيب الدكتور عدنان القوتلي * وقد تسنى لنا خلال فترة اشتراكنا في أعمال المؤتمر ، عقد جلسة هادئة مع رئيس وأعضاء الوفد الصيني استعرضنا خلالها القضية الفلسطينية ، والموقف الصحيح الذي يجدر بجميع الدول المحبة للسلام ، والشعوب الصديقة للعرب أن تتخذه ، لا من السياسة العدوانية الاسرائيلية فقط ، بل من الكيان الاسرائيلي نفسه ، لانه كيان دخيل ومصطنع ، قائم أصلا على العدوان والاعتصاب ، ولان دوام بقائه ، فيه استمرار للجريمة النكراء المرتكبة بحق الشعب العربي في فلسطين * وأكدنا على أن أي تفكير أو موقف ، يرمي الى الاعتراف أو التسكك بوجود اسرائيل ، معناه الوقوف الى جانب المعتدي ضد المعتدى عليه ، وهذا منطق يأباه بشكل خاص رجال القانون الذين يقوم نشاطهم على حماية الحق ، وقمع الاعتداء ، ومعاقبة المعتدي * وقد سأل الدكتور عدنان القوتلي زميله السيد تاوسي تشين رئيس الوفد الصيني فيما اذا كانت حكومة الصين أو شعبها ، يقبلان أو يوافقان بشكل من الاشكال ، على التخلي عن رقعة أصغر بكثير من الرقعة التي يحتلها الصهاينة في فلسطين ، ليشكل الصهاينة أنفسهم ، أو أية جماعة من الدخلاء على شاكلتهم ، وطننا لهم يزرع في قلب البر الصيني * واستشهد الدكتور القوتلي برفض حكومة الصين الشعبية لنظام الحكم القائم في جزيرة تايوان ، بالرغم من أن أرض هذه الجزيرة الصينية ما زالت مأهولة بسكانها الاصليين من أبناء الشعب الصيني *

وقد أبدى رئيس وأعضاء الوفد الصيني تفهما واضحا لوجهة النظر العربية ، ووعدوا بنقل وجهة النظر هذه بحذافيرها الى

حكومتهم • وقد حصل فيما بعد تحول هام في موقف جمهورية الصين الشعبية من القضية الفلسطينية ، اذ التزمت الحكومة الصينية بسياسة الرفض العربي للوجود الصهيوني ، وبدأت سياستها ومواقفها تسير على هذا النهج الصحيح •

لقد كانت اقامتنا في الاتحاد السوفياتي قصيرة ، لم يتسن لنا خلالها ، الاطلاع على الشيء الكثير من مرافق الحياة العامة في بلد الثورة الشيوعية • وقد قمنا بزيارة بعض المؤسسات الحقوقية فقط، وانتقلنا مع أعضاء وفود المؤتمر في زيارة خاطفة الى ليننغراد حيث زرنا بعض متاحفها ومعالمها التاريخية الشهيرة •



وفي شهر آب (أغسطس) عام ١٩٥٨ سافرت مع وفد نقابة المحامين في دمشق لحضور اجتماع المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب المقرر عقده في بغداد • وكان قد مضى أقل من شهر على وقوع الانقلاب العسكري الذي أطاح بالنظام الملكي والعرش الهاشمي ، وقد قضى على أفراد الاسرة المالكة ، ومزق جسد رئيس الوزراء العراقي السيد نوري السعيد • وكان جو بغداد في ذلك الوقت من الصيف حارا جدا ، وقد زادت من لهيبه موجة الحساس والاندفاع الشديدين التي سادت أوساط الشعب العراقي التواق لاستعادة حريته السلية ، واسترداد كرامته المهدورة التي سلبتها حكومة العراق الموالية للغرب ، وكبلتها قيود الاستعمار البريطاني ، ومن بعده كابوس المعاهدة المركزية المشهورة باسم حلف بغداد •

وقد صدمنا لاول وهلة بجو الخلاف الخطير الناشب بين القوى السياسية القومية واليسارية • فقد عمد الشيوعيون آنذاك الى رفع الاعلام السوفييتية على نطاق واسع في جميع أرجاء بغداد وفوق

مبانيها العامة والخاصة ، بشكل لم نر شيئا له في موسكو ذاتها
لدى زيارتنا لها قبل أقل من سنة •

كانت القوى القومية تضغط من أجل دفع الحكومة الانقلاية
في اتجاه الوحدة أو الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ، بينما
كان الشيوعيون تؤيدهم العناصر المحافظة في الحكم والجيش خاصة،
وفي أوساط الشعب عامة ، يقابلون تلك الدعوة للوحدة بعداء سافر
تحت شعار الحريات الديمقراطية •

وكان قائد الانقلاب الزعيم عبد الكريم قاسم ملتزما جانب الخط
المعادي للاتقاء مع الجمهورية العربية المتحدة ، بينما كان زميله
ومساعدته العقيد عبد السلام عارف واقفا في المعسكر المقابل • كان
الانقسام واضحا ومنذرا بأسوأ العواقب •

وقد تسنى للوفود العربية مقابلة الزعيم قاسم في مبنى وزارة
الدفاع الذي كان يعج بالضباط والجنود المسلحين ، وكانت قفعة
السلاح تغطي في ذلك الوقت على الاصوات المتفجرة من حناجر الاهلين
بصخب منقطع النظير •

وقد دامت مقابلتنا للزعيم قاسم وقتا طويلا قارب الساعتين ،
كان الانقلابي الاول خلاله ، واقفا على قدميه ، وقد أخذ يسرد لرائيه
المحامين العرب خطته الانقلاية وكيف عمل على تنفيذها ببراعته
وشجاعته وبخداعه لرئيس أركان الجيش العراقي اللواء غازي
الداغستاني • وقد شرح لنا زعيم الانقلاب كيف أن الاوامر أعطيت
للعجف العراقي المتمركز في الشمال بالاتجاه نحو الحدود السورية
عبر العاصمة العراقية ، وكيف أنه استفاد من هذه الفرصة لتوجيه
ضربه الحاسمة التي دكت قصر الرحاب بسن فيه ، ودكت معه النظام
الملكي ، والاسرة الهاشمية • وقد أكد سيادته أن خطة الحكومة

العراقية السابقة من تحريك القوات العراقية باتجاه الاراضي السورية، كانت تستهدف من حيث النتيجة اجتياز الحدود السورية ضمن خطة تأمرية ترمي الى ضرب وحدة الجمهورية العربية المتحدة ، واسقاط نظام الحكم القائم في القطر العربي السوري •

★ ★ ★

وقد أقيمت للوفود العربية مأدبة ضخمة في نادي الضباط ، حضرها الزعيم قاسم والعقيد عارف وأعضاء مجلس السيادة والوزراء وعدد كبير من الشخصيات العراقية والضباط •

وقد التقت في تلك المناسبة بالعقيد عبد السلام عارف الذي كان قبل أيام في زيارة رسمية لدمشق حيث التقى فيها برئيس الجمهورية العربية المتحدة ، الذي ألغى زيارته ليوغوسلافيا لدى ساعه نبأ الانقلاب العراقي ، وجاء الى دمشق ليكون قريبا من مسرح الاحداث في القطر العربي المجاور للاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة •

وقد تطرقت في حديثي مع رجل الانقلاب الثاني الذي كان يعتبر أن الانقلاب ما كان لينجح لولاه شخصا ، ولولا شجاعته الفائقة ، تطرقت الى بوادر الخلاف الواضحة في الاتفاق بين زعيصي الانقلاب ، وحذرته من خطر الانقسام بين الرجلين وانعكاسه على صفوف الشعب العراقي وجيشه الباسل ، الذي يعلق عليه العرب أكبر الآمال ، ونصحته بتفادي الخلاف باتباع نهج كامل يتفق عليه الجميع لقطع الطريق على عناصر الدس والتخريب التي لا تريد للعراق النجاح في وثبته الجبارة وفي طسوح شعبه لتحقيق الوحدة العربية الكبرى التي لا يمكن أن تكتسل اذا كان العراق معزولا عنها •

وكان العقيد عارف ، رغم نفيه لوجود أي خلاف بين قادة

الانقلاب ، يبدو مضطربا زائف البصر ، وكانت عينه الواحدة ترنو الى مركز الزعامة الذي يحتله الزعيم عبد الكريم قاسم ، وعينه الثانية تتجه الى ما وراء الحدود الغربية ، حيث يمكث في دمشق ، رجل انقلابي آخر ، كان استقبله قبل أيام ونفخ فيه روح التمرد وشجعه على قلب زميله زعيم الانقلاب ليحل محله ، كما فعل هو باللواء محمد نجيب ، وليحظى بعد ذلك بمباركة حكومة الجمهورية العربية المتحدة . كانت المظاهر جميعها والموارد كلها تنذر بهبوب عواصف شديدة على العراق ، وان غدا لناظره قريب .



وفي خريف عام ١٩٦٢ دعيت نقابات المحامين في سورية لحضور مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين المقرر عقده في كوناكري - عاصمة الجمهورية الغينية - في منتصف شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٢ . وشكل الوفد من بعض أعضاء نقابات المحامين السورية وبرئاسة الدكتور عدنان القوتلي ، الذي كان رئيسا للمؤتمر الآسيوي الافريقي الاول الذي عقد في دمشق عام ١٩٥٧ ، ودعيت للانضمام الى الوفد باعتباري أمين سر المؤتمر الاول . وقد سافر الوفد السوري عن طريق أوروبا ، فتأخر وصوله الى العاصمة الغينية يوما واحدا ، حيث لم يتسن له حضور حفلة الافتتاح .

وكان الاشتراك في ذلك المؤتمر مناسبة هامة للاطلاع على أحوال بلد افريقي حديث الاستقلال ، وعلى توثب شعبه وعزم أبنائه المكافحين على بناء المجتمع الديمقراطي الاشتراكي الذي كان يمكن أن يحققه بخطوات واسعة ، لو لم تقف القوى المعيقة لتطور الشعوب النامية في طريقهم . وقد صدف في الوقت الذي صارت فيه الدعوة لذلك

المؤتمر الحقوقي الكبير ، الذي توافد اليه الحقوقيون من أقطار القارتين ، ومن أقاصي الشرق البعيد المترامي الاطراف ، من الصين واليابان وكوريا والفيتنام ، أن حصل انعطاف خطير في سياسة الحكومة الغينية .

فبعد أن تحررت غينيا من نير الاحتلال الاجبي والتبعية لفرنسا اتجهت حكومتها بقيادة رئيسها ، النقابي المناضل السيد أحمد سيكوتوري ، تشد صداقة المعسكر الشرقي الذي يتزعمه الاتحاد السوفيتي . ولكن لاحظ الغينيون أن هذه الدولة العظى لم تكن صادقة في صداقتها ، وانها أرادت أن تجعل من الدولة الافريقية الغينية منطقة نفوذ لها . فتحولت الحكومة الغينية في سياستها الخارجية ، واتجهت نحو الولايات المتحدة الامريكية تشد الصداقة الخالصة والعون النزيه ، فكان مثلها في ذلك مثل « من يهرب من الدب فيقع في الجب » . وقد لاحظنا أثناء حضورنا المؤتمر مدى تسلط الامريكيين على مجرى الحياة العامة في كوناكري . ففي المؤتمر كان وزير العدل الغيني وأعوانه يسعون لدى جميع الوفود المشتركة في المؤتمر كي لا تتعرض مطلقا في كلماتها ومناقشاتهما لسياسة الولايات المتحدة الامريكية ، حرصا على حسن علاقة غينيا مع الدولة العملاقة ، التي كان الرئيس السيد سيكوتوري عائدا لتوه من زيارة عاصمتها . كما كان بعض موظفي السفارة الاميركية يحتلون أركان الفناء الكبير الذي عقدت فيه جلسات المؤتمر ، ولم يكونوا ليحجموا عن حضور اجتماعات اللجان المنبثقة عنه ، ومتابعة المناقشات الجارية فيها ، وتدوين أقوال الخطباء والمتحدثين من أعضاء اللجان حرفياً وبشكل سافر وواقع يدعو للاستهجان والاشمئزاز .

وكان هؤلاء الاميركيون يبتهجون أشد الابتهاج للمشادات العنيفة التي دارت بين الوفدين السوفيتي والصيني ، في معظم لجان

المؤتمر ، وبشكل خاص في اللجنة التي ناقشت موضوع نزع السلاح .

وكان رأي الوفد الصيني أن الدعوة لنزع السلاح في العالم دعوة مبنية على سياسة النفاق والخداع التي تسير عليها الدول الكبرى في محاولة منها لبسط سيطرتها على العالم عن طريق اقتسام مناطق النفوذ ، وأن أي بحث من هذا القبيل يعتبر سابقا أوانه ، ما لم تتحرر جميع شعوب العالم من نير الاحتلال الاجنبي والسيطرة الاستعمارية بشكليها القديم والحديث .

وان السبيل الاوحد للشعوب المضطهدة في توقها الشديد للانعتاق والتحرر ، لا يكون الا بحمل السلاح الذي تحاول الدول الكبرى تجريد الدول الاخرى منه ، لتبقى وحدها مهيمنة على العالم بأجمعه .



وقد حدثت حالة مؤسفة جدا بين الوفود العربية ، عندما جاء وفد الجمهورية العربية المتحدة الضخم يرافقه عدد من وفود الاقطار العربية ، وهي مؤلفة على الاغلب من عناصر ناصرية ، وقد ظن بعض تلك العناصر أنه يخدم الزعامة الناصرية بناصبته الوفد السوري النشيط العداء .

لقد كان الهم الاكبر لاعضاء وفد الجمهورية العربية المتحدة والوفود المرافقة له ، توزيع صور رئيس الجمهورية العربية المتحدة على أعضاء الوفود الآسيوية والافريقية ، وعلى المواطنين الغينيين ، في كل مكان : في المؤتمر ، في جلساته العامة ، في اجتماعات لجانه ، في الطريق ، في المطعم ، في الفندق ، وفي حفلات الرقص الشعبي التي أحيتها بعض الفرق الفنية . كان ذلك يجري في محاولة فاشلة للدعاية

للجمهورية العربية المتحدة ولرئيسها الجذاب المعرّم لدرجة اليوس
بشر صورهِ الملونة والمتعددة الاحجام والاوزاع وتوزيعها في أرجاء
العالم • وفي الوقت نفسه لاحظنا الاسلوب الذكي البارِع الذي كانت
تتبعهُ الدعاية الصهيونية لكسب ود الافارقة ، وعقد أواصر الصداقة
مع بلادهم • ففي شوارع كوناكري ودوائر البريد وفي المحلات
التجارية ، كانت تباع مجسوعات من الطوابع التذكارية الجميلة ، تحمل
صور شهداء غينيا ، وقد طبعت تلك المجموعات الثينة في المطابع
الاسرائيلية ، وقدمت هدية من حكومتها الى الشعب الغيني المكافح
والفخور بذكريات شهدائه الميامين وأبطاله القوميّين • كانت الدوائر
الاسرائيلية حريصة على تقديم كثير من المساعدات الاقتصادية وعدد
من الخبرات الفنية لشعب غينيا وغيره من الشعوب الافريقية في
محاولة جادة ، ولكن غير صادقة ولا مخلصّة ، للتغلغل في أوساط
تلك الشعوب الحديثة العهد بالاستقلال ، ولملء الفراغ الذي أحدثه
جلاء الجيوش الاجنبية عن معظم أراضي ومناطق القارة السوداء •
وكان هذا النشاط الذي تسانده السفارات ودوائر المخابرات الامريكية،
حاملا في أشكاليهِ المتعددة ، السم مخلوطا مع الدسم ، هو الاسلوب
الجديد الذي اتبعهُ الاستعمار الحديث في سعيهِ الدؤوب لفرض
السيطرة وبسط النفوذ ، ونهب خيرات وثروات الشعوب المستضعفة
واعاقة تطورها وتقدمها •

فكان على الوفود العربية الانتباه الى هذا الواقع المر ، والتنبه
الى خطورة التغلغل الصهيوني في أعماق القارة السوداء •



وقد أسهم المناضل العربي السيد شيخان الحبشي مثل الجنوب
العربي ، بشكل ايجابي في اثارة ومعالجة القضايا العربية في المؤتمر،

وكان بحق العنصر النشيط والفعال من بين أعضاء الوفود العربية المرافقة للوفد المصري ، والذي نزه نفسه وتصرفاته عن الانزلاق في هوة الخلافات الجانبية التي لم يكن من شأنها الا تثبتت الشلل واضعاف الموقف العربي أمام مندوبي الدول الصديقة للعرب والحريصة على تضامنهم ووحدة صفوفهم •

وقد تصدبت أنا للكلام في اللجنة الثانية التي كان يتولى رئاستها مندوب ليبريا بمعاونة مندوب اليابان ، وتحدثت باللغة الفرنسية ، وكان حديثي يترجم فوراً الى اللغتين الانكليزية والروسية ، وأثرت موضوع الاغتصاب الصهيوني للأراضي العربية ، وحذرت من خطر تسلل الاسرائيليين الى البلاد المستقلة حديثاً •

وقد حاول رئيس اللجنة الليبيري مقاطعتي ومنعي من الكلام ، فأصررت على متابعة البحث في الموضوع ، فما كان منه الا أن انسحب من الجلسة ، بعد أن هس في اذن المندوب الياباني وباللغة الانكليزية بكلمات لم نسمعها ، وتخطى له عن رئاسة اللجنة • وقد ذكر المندوب الياباني بعد انقضاء الجلسة ، بأن زميله الليبيري تصرف على الوجه الآنف الذكر بحجة أن أعصابه لا تستطيع تحمل مثل هذا التهجم والتناول على دولة نموذجية يعتبرها الليبيريون — وهم طبعاً واقعون تحت سيطرة النفوذ الامريكي — واحة للديمقراطية في منطقة الشرق الاوسط التي ما زالت شعوبها تعيش — حسب زعمه — عيشة التخلف في ظل أنظمة دكتاتورية عاتية • ولم يكن ليخطر في بال ذلك الليبيري الجاهل وحكومته الواقعة ضمن مناطق النفوذ الاستعماري ، أن ما يعانيه العرب ، من سوء أحوال في جميع المجالات ، السياسية ، والاقتصادية، والاجتماعية ، ان هو الا انعكاس لوجود هذه الدولة الاسرائيلية المصطنعة في قلب وطنهم ، وانها هي الاداة التي يستخدمها

الامبرياليون الامريكيون والاستعماريون الغربيون لانهاك العرب ،
واستنزاف طاقاتهم ، وعاقة وحدتهم وتطورهم .



لقد اطلعنا في غينيا على ما يحدثه النفوذ الاجنبي والاستعمار
العربي من تخريب في تلك الدولة الفتية الناشئة ، تحت ستار الصداقة
والمساعدات الخادعة ، كما شاهدنا بأم أعيننا الطاقات الواسعة
والثروات الضخمة التي يمتلكها شعب غينيا الصغير الذي يسيطر
الفقر على معظم أبنائه . وكنا لدى التقائنا بالافراد والجاعات من
الغنيين في شوارع كوناكري وساحاتها وأماكنها العامة ، نقرئهم
التحية باللغة العربية وبقولنا « السلام عليكم » فيهبون للترحيب بنا
والتعرف لنا ، معلنين عن اغتباطهم وسرورهم بلقاء اخوتهم في العقيدة
والدين ، اذ أن أغلبية السكان هم من المسلمين ، وان كانوا بسعظهم
لا يعرفون من اللغة العربية الا بعض الكلمات أو عددا محدودا من
الآيات القرآنية . وهم على الاغلب يتكلمون اللغة الفرنسية بطلاقة
واضحة بالاضافة الى لغتهم الاصلية السواحلية ، وغيرها من اللغات
الافريقية المحلية .

وقد لاحظنا أن خير وسيلة للاستفادة من طاقات الشعب الغيني
الصديق المكافح وسائر الشعوب الافريقية المماثلة له ، هي في تتين
روابط الصداقة والتضامن معه في ميدان العلاقات الخارجية ، وفي
زيادة التبادل السياسي والثقافي والتجاري . وقد أبدينا مثل هذا
الرأي الى جميع من التقينا بهم من المسؤولين والمواطنين لدى عودتنا
الى ديارنا من ذاك المؤتمر الذي ترك اشتراكنا فيه وزيارتنا لافريقيا
السوداء بنسبة انعقاده أعظم الاثر ، حيث أتاح لنا الاطلاع على
تجربة حية لدولة تعتبر من أكثر الدول الافريقية تحررا ، والتي أضحت
لذلك وبالتالي أكثرها عرضة للضغط الخارجي .

وقد جاءت حرب حزيران عام ١٩٦٧ والعدوان الغاشم الذي شنته القوات الاسرائيلية على اراضي الدول العربية المتاخمة لفلسطين، أقوى دليل وأصدق برهان على ما كنا حذرنا به شعوب آسيا وافريقيا في مؤتسري الحقوقين الآسيويين والافريقيين المنعقدين في دمشق عام ١٩٥٧ وفي كوناكري عام ١٩٦٢ ، من أن اسرائيل هي قلعة عدوان وأداة اغتصاب ومصدر شر واضطراب في العالم .

وقد كان من جراء ذلك العدوان الاسرائيلي الغاشم أن تبهت حكومة غينيا ورئيس جمهوريتها المسلم السيد أحمد سيكوتوري الى خطر تلك الاداة الجرمية ، فأمر وقتئذ بطرد جميع البعثات الاسرائيلية الدبلوماسية والفنية مستغنيا عن جميع المساعدات التي كانت تقدمها اسرائيل لدولة غينيا الشابة . وربما كان لهذا السلوك الوطني والاتجاه السياسي الصحيح الاثر الكبير في توجيه الغارات التي شنتها قوى الشر والعدوان البرتغالية بسوازة الاستعمار الغربي والصهاينة المجرمين ، خلال عام ١٩٧٠ لغزو الاراضي الغينية ، وفرض السيطرة الاستعمارية عليها من جديد .

ان من واجب الشعوب الحرة قاطبة ، ومن واجب العرب خاصة أن يقفوا موقف التضامن مع شعب غينيا الباسل بقيادة رئيسها المناضل ، لحاية استقلال هذه الدولة وصيانة حرية شعبها الحر الشجاع .

صراع الديكة

« لن تستطيع أمة أن تنهض دون

أن تطهرها نار العذاب » •

« المهاتما غاندي »

تعرض الزعيم الوطني الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في نيسان عام ١٩٢٢ للاعتقال ، بسبب اشتراكه في استقبال الدبلوماسي الاميركي المستر كراين الذي أمّ دمشق للاطلاع على حالة البلاد السورية في ظل الاحتلال الفرنسي ؛ كما اعتقل معه لقيف من العناصر الوطنية • وقد جرى توقيفهم على أيدي رجال الشرطة السوريين ووضعوا مؤقتا في دائرة الشرطة • ويروي الزعيم الراحل في مذكراته : « دخل علينا ضابط افرنسي برتبة رئيس في الساعة الثالثة ، فقال : (تفضلوا) • فتحققنا ما كان ذكره لنا المدير من أمر تسليتنا الى الدرك الافرنسي فخرجنا فرأينا في الباب أربعة دركيين فرنسوين ينتظروننا ، وكان خلق كثير يتربص سير الحوادث في الدائرة • ولكن ما أشد دهشتنا لما أمر الضابط فقال : مدوا أيديكم ، فسدناها فأخرج الدركيون من جيوبهم السلاسل والاغلال فطوقوا بها أيدينا ، وأقفلوها عليها كما تقفل على أيدي القتلة وقطاع الطرق واللصوص ، ولم يخطر ببالنا

قط أن نعامل في عقر دارنا بين أهلنا وبعد خدمة عشرين سنة للمصلحة العامة هذه المعاملة الطائشة التي لا تصدر عن أصغر صغار الموظفين الترك في عهد السلم • وقد لا يختلف الفريقان بالكراهية لنا ، ولكن لهؤلاء من الاختبار والذوق بل ومن العقل السليم أيضا ما يزجرهم عن ركوب مثل هذا الشطط الفادح لانهم يعلمون أن الاقدام على احتقار الحياة الناهضة في الشعوب عمل يثير ويولد الضغائن التي لا يلثم صدعها • ولكن أنى (لارلابوس) وأساتذته الذين تفرغوا بين الشعوب الافريقية على الهزء بالمشاركة والاستخفاف بأديانهم ومذاهبهم أن يثوبوا الى الرشد فيتعللوا أنهم في سورية ملتقى المدينتين وعلى باب الامة العربية التي ما قط خضعت واستسلمت في حريتها وشرفها •

ويضيي الدكتور الشهنندر في مذكراته : « قد تكون الشعوب الافريقية في الماضي أطعت المستعمرين في شرف الشرق ، ولكن أنا على مثل اليقين أن الحراسة العسكرية وضرب الارهاب والارهاق سيولد في أضعف الامم الافريقية نظرة تدعو الطائشين الى التفكير ومن يعيش ير •

عصارى اليوم سيعلن أمام الاطباء والمحامين وكبار الموظفين أن اخوانهم يكبلون بالاغلال ويساقون الى أعماق السجون لبتافهم للحرية ، وفي المساء ستعلم سورية من أقصاها الى أقصاها أن الزهور التي أنبتتها الجامعات والكليات ودور الفنون تسحق تحت أقدام (الميليتاريزم) السيطرة العسكرية • وفي الليل ستضاء أنوار في دور لم يعد اليها أربابها وسيبيت الاطفال والعجائز والشيخوخ وراء الباب ينتظرون بلهفة وخفقان القلب جزءا من الغرائس التي اختطفقتها الذئاب الكاسرة الى الاوكار المظلمة والكهوف الموحشة ، ولا شك أن العالم في بحر هذا الاسبوع سيأتيه خبر عما عملته الام الرؤوم والمربية الخنون مع من رفع عقيرته ونادى من أعماق القلب بصوت

تفجر من ينبوع النفس الطافحة يطلب الحياة وينشد الحرية» (١) •

★ ★ ★

كان من حق الشهبندر أن يندد بأساليب الفرنسيين القاسية في معاملة الوطنيين السوريين ؛ وكان من المنطقي أن يجري المقارنة بين المعاملة الطائشة التي كان أبناء « الام الرؤوم والمرية الحنون » ، فرنسا ، يعاملون بها المناضلين الوطنيين وبين معاملة الاتراك لهم ، وهو السياسي المخضرم الذي عاصر كلا العهدين التركي والفرنسي وخبر أساليبها في اخضاع الشعب العربي •

حقا ، كان الفرنسيون غلاظا عتاة عندما كبلوا أحرار البلاد بالسلاسل والقيود ؛ أما الاتراك من قبلهم ، فرغم كرههم للعرب ، فقد كان لأصغر صغارهم ، من الذوق والعقل السليم ، ما يزرجه عن ركوب مثل هذا الشطط الفادح •

أما بعد أن جلا هؤلاء وأولئك عن هذه الارض المقدسة ، فيا ليت ذاك الزعيم الوطني الراحل يطل من علياء سائه ، ليطلع بأم عينه على شطط هؤلاء الابناء والاحفاد الذين ضحى هو وأمثاله من شهداء الامة في سبيلهم ، لينعنوا من بعدهم بالاستقلال والحرية ، ويرى كيف حكموا بلادهم ، والاساليب التي اتبعوها في معاملة مواطنيهم وأبناء جلدتهم •

ان الجراح التي خلفها المحتلون الغاصبون في جسم الشعب العربي السوري وأجساد أبنائه لعميقة ولا ريب ، ولكن تلك التي

(١) مذكرات عبد الرحمن الشهبندر — دار الارشاد بيروت — ص :

أنزلها باخوتهم مغتصبو السلطة من العسكريين السوريين ، كانت
أكثر عنقا وأشد ايلاما .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

وان ما ارتكب في السجون السورية في عهود الديكتاتوريات
العسكرية بعد الاستقلال من جرائم بحق المواطن كمواطن ، وبحق
الانسان كانسان ، هو لما يندى له جبين البشرية . ان الكثيرين من
أبناء الشعب على اختلاف مذاهبهم الفكرية ، واتجاهاتهم السياسية،
واتساءاتهم الحزبية ، قد تعرضوا خلال عهود الارهاب التي فرضتها
الديكتاتوريات على هذا البلد المكافح ، للتوقيف التعسفي وللتكيل
الوحشي على أيدي زبائيتها الشرسين ، تستأجرهم وتسخرهم خصيصا
للبطش بخصومها السياسيين ، وبكل من يتعثر به الحظ من المواطنين
الابرياء الآمنين ، فيقع فريسة الذئاب الكاسرة ، تربيها تلك العهود
وترعاها للفتك بحريات المواطنين وكراماتهم . ولا مبالغة في القول
بأن ما من أسرة في سورية الا وتعرض واحد من أبنائها أو أكثر لمثل
هذه المعاملة الطائشة ، حتى بات أكثر المواطنين يشعرون ، في ظل
تلك العهود السوداء ، بالخوف الدائم من مدهامة الاجهزة المتسلطة
ليوتهم ، والاعتداء على حرمة مساكنهم ، وترويع شيوخهم ونسائهم
وأطفالهم ، بواسطة أعوانها الذين كانوا يستهدفون من غاراتهم
المفاجئة في الليل أو النهار اختطاف منكودي الحظ الذين نصب
عليهم غضب السلطان أو يقع عليهم اختيار الاجهزة المتحكمة ، لسوقهم
الى الاوكار المظلمة والكهوف الموحشة وأقبية التعذيب ، حيث يلقي
المعتقلون معاملة ، أين منها أساليب الجند الفرنسيين ، وتشسّر منها
ولا شك نفوس أصغر صغار الموظفين العثمانيين .

وكم من مرة عصفت أظافر تلك الوحوش وأنياب تلك الذئاب،

بأرواح بعض المعتقلين ، حتى أضحي عدد أولئك الذين لاقوا حتفهم أثناء التعذيب الوحشي لا يحصى لكثرتهم ، ولطمس جرائم قتلهم من قبل سلطات الامن ذاتها المكلفة أصلا بالسهر على سلامة المواطنين وأرواحهم . وان معظم من نجوا بأرواحهم من بعد عمليات التعذيب الجسدي التي أنزلت بهم ، لا بد وأن يكونوا أصيبوا بكثير من التشويه ، ان لم يكن في أعضائهم الوظيفية وصحتهم البدنية ، ففي أعصابهم وحالتهم النفسية .

فلمصلحة من كانت تشرع السياط المجرمة ، وتجلد الاجساد الغضة المحرمة ؟ ولحساب من كانت تحرك آلات البطش والتعذيب ، وتزهق أرواح الابرياء الآمنين ؟ ألمصلحة جلادهم ومعذبيهم وقاتليهم ؟ أم لمصلحة الحكام المتسلطين ؟..

— الحقيقة التي يجب أن يجاهر بها ، هي أن الارهاب الاسود كان ، دائما وأبدا ، جزءا من مخطط استعماري قدر ، يستهدف استعباد أبناء هذا الشعب عن طريق تكييلهم بأغلال الديكتاتوريات العسكرية العاشمة والانظمة الفردية المستبدة ، الواقعة هي ذاتها ضمن المخطط الاستعماري ، والمسيرة بأمره ، والعاملة لمصلحته ، والمأجورة لحسابه ... وعلى غرار من أبطروهم المال من مترفي الغرب الاستعماري الذين يجدون تسلية كبرى في حضور حفلات صراع الديكة ، برع الامبرياليون الامريكيون في جر أبناء الدول الخاضعة لنفوذهم ليوغلوا في التكييل ببعضهم ، دون رحمة أو شفقة ، على طريقة الديوك المتصارعة في الحلبة ، ليجني منظمو الصراع الدامي الارباح الطائلة والمال الحرام من وراء غباء تلك الطيور الحقى . وهكذا كان حال السوريين في ظل الديكتاتوريات العسكرية الموجهة من قبل الولايات المتحدة الامريكية .

وان واحدا من مخططي الانقلابات العسكرية ومؤسسي الديكتاتوريات المتسلطة في البلاد العربية ، وهو من كبار ضباط المخابرات الامريكية ، واسمه « مايلز كوبلاند » ، لم يتورع ، وبتجج ظاهر ، عن شرح دوره وأدوار زملائه ، في التخطيط لتلك الانقلابات المجرمة ، بدءاً من انقلاب الزعيم حسني الزعيم ، أول انقلاب عسكري معاصر يقع على باب الامة العربية .. ولم يفت وكيل المخابرات الامريكية المجرم ، في كتابه الاسود « لعبة الامم » ، أن يشير الى الدور الخفي أحيانا ، والبارز أحيانا أخرى ، الذي لعبه الضابط أديب الشيشكلي في الانقلابات السورية الاربعة التي وقعت في سورية خلال الفترة الواقعة بين ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ و ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥١ ، الى أن صعد على كرسي رئاسة الجمهورية في ١١ تموز (يوليو) ١٩٥٣ ، حتى سقوط حكمه الاسود الغاشم بتاريخ ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٥٤ ، لان الشيشكلي اياه كان العميل رقم واحد الذي اعتمدته الامبريالية الامريكية لتنفيذ سياستها الاجرامية ، الرامية لاختضاع شعب هذا البلد العريق المجاهد .

كان عهد الشيشكلي يمثل أبشع أنواع الديكتاتورية ، وكان علي أن أسهم مع أحرار هذا الشعب في خوض معركة ضارية ضده لاسقاطه •

محام وراء القضبان

« انه لأهون عليك أن تزحزح
الجبال من أن تطوق باغلال
العبودية أولئك الذين يصرون على
الحرية » .

« أحمد شوقي »

تقوم مهنة المحامي على الدفاع عن حقوق الافراد وأموالهم
وحرياتهم وكراماتهم ، ضمن حدود القوانين والانظمة ، بما يمليه عليه
شرفه ووجدانه في أداء رسالته السامية في خدمة الحق والعدالة .

ولكن عندما يتصدى المحامي للعمل السياسي ، تتجسم مهمته،
وتتعاظم مسؤوليته ، ويصبح مسؤولاً ، لا عن حقوق موكله فقط ،
بل عن حقوق الوطن ومصصلحة المواطنين وحرياتهم وكراماتهم جميعا ،
ضد عنت الجبابة المعتدين ، وتعسف الظالمين ، وسيطرة المستبدين .

واذا ما تعرض المحامي نفسه لاجراء من اجراءات هؤلاء
المستبدين ، كتوقيفه مثلا بشكل غير مشروع ، أو الاعتداء على
حريته أو جسده أو كرامته ، يكون أمام اختبار قاس ، عليه أن يثبت

فيه جدارته لحمل رسالة العدالة ، وأن يقيم الدليل ، لدى اجتيازه،
على مدى ايبانه بالحق المطلق وتمسكه بقدسية القانون الذي يعمل
ويسعى عادة من أجل تطبيقه واحترامه •

وقد شاءت الظروف أن أجتاز ، أنا شخصيا ، مثل هذا الاختبار
القاسي أكثر من مرة •



ففي أواخر عام ١٩٥٢ اعتقل أخي عدنان ، الضابط في الجيش
السوري أثناء قيامه بالواجب الوظيفي وخلال الدوام الرسمي ، وأدخل
السجن لأول مرة في حياته • وكان السبب في صدور الامر باعتقاله،
أن الكثيرين من ضباط الجيش توافدوا لزيارته ، جماعات ووحدا ،
بعد عودته من فرنسا حيث أنهى بنجاح وتفوق كبيرين دورة المدرسة
الحرية العليا التي أهلتته شهادتها لحمل لقب ضابط (ركن مجاز) •

وكان معظم زائريه يبدون استياءهم من سوء الاحوال العامة
في البلاد ، ومن انحراف حكم العقيد أديب الشيشكلي في اتجاه
المشاريع الاميركية الاستعمارية •

وقد أبدى بعض هؤلاء ، استعدادهم وقدرتهم على الاطاحة بحكم
الديكتاتور المنحرف والعودة بالبلاد الى الحكم الدستوري • وكان
الحاحهم على أن يتولى أخي قيادة الحركة نظرا لما كان يتمتع به من
تعبية واسعة في أوساط الجيش ولثقة أكثرية العسكريين به ، كبارهم
وصغارهم •

كان أخي ، في الحقيقة ، أمام اختبار قاس ودقيق • فهو كعسكري
لا يريد الانغماس في المشاكل السياسية ، ولكنه كمواطن كان يرى أن
الديكتاتورية المسيطرة على الشعب ستقود الوطن الى الهزيمة
والكارثة •

لذلك ، ورغم تأييده لفكرة تحطيم الحكم الديكتاتوري ، والعودة بالبلاد الى جادة الحكم الدستوري ، ظل أخي مصرا على أن يتزعم حركة الضباط واحد غيره ، في حين أن هؤلاء كانوا متمسكين بشخصه ومتحمسين للسير تحت لواء قيادته •

كانت خططهم المقترحة بسيطة وجريئة في آن واحد ، وهي تستهدف اقتلاع الديكتاتور من مركز التسلط والسيطرة الذي كان يحتله ، مع الحرص الشديد على أن تجرى الحركة بشكل مفاجيء لا يتيح للديكتاتور فرصة استخدام القوة وارقة الدماء • ولم تكن العملية لتتطلب لنجاحها ، حسب تقديرهم ، سوى اعتقاله مع واحد فقط من أعوانه ، كان ملازما أول ويشغل قيادة فوج الشرطة العسكرية، وتجميد الثاني باعتباره قائدا لفوج آليات مدرعة ، وكان برتبة رئيس • وكان هذان الضابطان في نظرهم الدعامة الاساسية التي يعتسدها الديكتاتور في حكمه الارهابي الاسود • وقد تأكدت صحة تقديرهم للموقف عندما لم يقف سوى ذيك الضابطين الصغيرين الى جانب رئيسهما في المستقبل ، يوم زلزلت الارض من تحت عرشه المتهاوي في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) عام ١٩٥٤ •

وكان من الطبيعي أن لا يكتفي أخي باستعداد هؤلاء الانقلابيين الذين كان عددهم محدودا ، وكانوا من ذوي الرتب الصغيرة والتجارب القليلة ، رغم ميولهم اليسارية الواضحة ، فكان لابد من سبر غور مختلف قطعات الجيش ، ودراسة موقف العناصر الوطنية الموثوقة من كبار الضباط الحريصين على اقصاء الجيش عن ميادين السياسة ومرايع الحكم ، والذين بدأوا يلتفون حول أخي منذ عودته من دراسته في فرنسا • فكان هناك شبه اجماع من أكثرية العسكريين، على اختلاف رتبهم وميولهم ، على ادانة عهد الشيشكلي بالتسلط والتخريب والانحراف • ولكن تسرع أحد أصحاب الخطة الانقلابية

في مفاتحة اثنين من الرقباء ، من عناصر كوكبة مدرعة كان يتولى أمريتها ، أدى الى اكتشاف الخطة التي كانت في الحقيقة مجرد فكرة في رؤوس أصحابها • وقد توصلت الشعبة الثانية لالتقاط الحديث على شريط صوتي •

وكان استعمال آلات تسجيل الصوت في ذاك الوقت غير شائع في بلادنا ، وكانت المخابرات الاميركية هي التي زودت عييلها الشيشكلي وجواسيسه بهذه الوسيلة الالكترونية الحديثة ، كما أمدته بعدد من المعدات الخاصة بعمليات قمع تحركات الجماهير ، وارهاب الاهلين ، ومنها القنابل المسيلة للدموع وأقنعة الغاز والهاويات والدروع ، وسوى ذلك من الادوات التي استعملتها قوات الامن ، لمجابهة حالات الطوارئ الناجمة عن اضراب طلاب الجامعة والمدارس الثانوية ، ولقمع مظاهرات الاهلين التي تكررت في ذاك العهد الذميم •

★ ★ ★

وفي نفس اليوم الذي اعتقل فيه أخي وحوالي منتصف الليل ، أمت الشارع الذي تقطن فيه ، مفرزة من رجال الشعبة الثانية يستطي أفرادها الدراجات النارية ، وصارت تطوف الشارع جيئة وذهابا ولعدة مرات أمام دارنا ، تاركة لزامير الدراجات النارية وفرقاتها المزعجة العنان • وكان راكبو تلك الدراجات يطلقون في آن واحد من حناجرهم أصواتا وحشية على طريقة زنوج قبائل الزولو الافريقية أو الهنود الحمر ، كما كانت تظهرهم الافلام السينمائية الاميركية •

وكان واضحا تماما أن قصد هؤلاء الذئاب هو نشر الذعر والرعب في نفوس أهل الضابط المعتقل • فخرجت اليهم منددا بأسلوبهم الهنجي الارعن ، صارخا في وجوههم وبأعلى صوتي : « أيها الرعايد الجبناء ، أبلغوا غني زعيم عصابتكم أن الرجولة

ليست في ترك الجبهة هادئة أمام العدو ، وانتقاله مع زبائنه لاجتياح شوارع العاصمة ، واثارة الفوضى فيها وترويع الاهالي الآمنين ، بل الشجاعة والوطنية هي في مقارعة العدو الذي سبق للشيشكلي أن تواطأ معه وسلسه بعض المناطق التي كان يحتلها جيش الانقاذ ، وأهمها مدينة صفد . وان كنتم تريدون ارباب أهل أسيركم العربي ، فهاهم أمامكم يهزؤون بكم وبرئيس عصابتكم » .

وكان هؤلاء العبيد قد حققوا نصرا كبيرا بما أقدموا عليه من عمل غوغائي بقصد الاثارة والاستفزاز ، فانصرفوا ليرفعوا الى سيدهم تقريرا خطيا بما سمعوه من تهجم وتطاول على « ذاته العلية » .



لم تمض أيام قليلة الا وصدر الامر باعتقالي ؛ ولدى خروجي صباحا من داري ، داهمني عدد من مخبري الشعبة الثانية يحملون الاسلحة النارية الاوتوماتيكية ، ودون أن يعلنوا عن صفتهم الرسمية أو يبرزوا أمرا قضائيا بتوقيفي ، اختطفوني في سيارة جيب أميركية، وذهبوا بي توا الى سجن المزة العسكري .

يقع هذا السجن الرهيب ضمن قلعة بناها الفرنسيون على احدى روابي قرية المزة المتاخمة لمدينة دمشق ، فارتبط تاريخ هذا البناء بتاريخ كفاح الشعب العربي السوري من أجل الاستقلال والحرية والكرامة . وقد شهدت جدران هذا المعتقل ، على اختلاف العهود التي تعاقبت على هذا البلد المجاهد ، قبل جلاء الفرنسيين وبعد الاستقلال أفواجا من المعتقلين السياسيين أو المجرمين العاديين ؛ كما ارتكبت في داخله وفي أقيسته وزناناته وأرجائه ، من الجرائم بحق الجنس البشري ، مما يندي له جبين العالم المتمدن ؛ وستبقى

وصة العار لاحقة بسن بنوه وبجميع أولئك الذين من بعدهم
استخدموه ، بقصد ارهاب أبناء شعبهم واضطهاد مواطنيهم واذلالهم •



لدى تسليسي الى ادارة السجن ، تولى السجنانون تجريدي من
جميع ما كان في جيوبي من أوراق ، ومن محفظة نقودي ، وساعتي
اليدوية ، وقلم الجبر ، كما انتزعوا الحزام الجلدي من بنطالي ،
وربطة العنق ، وشريط حذائي ، ونقلوني الى غرفة فسيحة ، كان فيها
سرير حديدي مرتفع موشد عليه فراش محشو بالقش وفيها جرة ماء
كبيرة ، ومرحاض •• تركت لوحدي ولم يدخل الغرفة طيلة النهار
وحتى المساء ، الا سجان واحد أحضر لي وجبتي طعام الغداء والعشاء،
ولكنني لم أتناول منهما شيئا ، منتظرا ما كان يعد لي من طبخة أدمهم •

وفي المساء ، ولم أكن أستطيع تحديد الساعة ، لاني أوقظت
من النوم ، ولم تكن ساعة يدي معي بعد أن جردت منها كما أسلفت،
دعيت الى غرفة مدير السجن ، فوجدت فيها سبعة ضباط ، منهم ستة
ملازمين ورئيس واحد (تقيب) •

وقد استأنست برؤية هذا الضابط لاني كنت أعرفه سابقا ،
وقد كان معاونا لآخي في أول دورة لمدرسة الاخصائيين التي جرى
تأسيسها ، بعد استلام الجيش من السلطات الفرنسية ، لاعداد الرتباء،
كما قاتل معه بشجاعة في المعركة التي خاضها الجنود السوريون
لاحتلال المرتفعات المسيطرة على مستعرة « مشمار هايردن » في قرية
« كعوش » الفلسطينية • وقد أنقذه أخي في تلك المعركة من هلاك
مؤكد ، هو ودبابته التي كان يتولى قيادة قطعه الآلية منها •• كان
من الممكن أن يصبح هذا الضابط ذات يوم بطلا قوميا ويلعب دورا
بارزا في معارك جيشه ، لو لم تجرفه الديكتاتورية العسكرية وتدفعه

في متاهات السياسة ليغوص فيها ، وتستهويه اغراءاتها ، ويتعد تدريجيا عن مجاله العسكري ، ويقصى نهائيا عن ساحات الوعي والقتال ، ويحرم شرف مقارعة الاعداء وجها لوجه ، بعد أن نجح في مثل هذه المهمة الوطنية في عام ١٩٤٨ •

وقد فوجئت بسوقه الجامد وبجو الخوف الذي كان مسيطرا على أعضاء اللجنة العسكرية المؤلفة برئاسته ، وذلك بسبب وجود قائد فوج الشرطة العسكرية في عداد أعضاء اللجنة ، وكان ساعد الديكتاتور الايسن في فرض سياسة البطش والارهاب على البلد ، وهو الملازم الاول عبد الحق شحادة •

ولا بد للتعريف بهذا ال (عبد) الحق من العودة الى ماضيه ؛ وكلي لا أظله أو أتحامل عليه فاني أنقل وصفه كما ورد بقلم الزميل المحامي الاستاذ عبد الفتاح الزلط ، في رسالة وجهها لي من الزنزانة التي كان معتقلا فيها خلال وجودي في السجن ^(١) •



(١) ورد في تلك ارسالة :

فأنا اعرف هذا الابله قبلكم ، بل واعرفه منذ زمن بعيد جداً يعود لعهد طفولتي حين كان يأتي الى بيتنا مستنجداً بأخي ليحل له بعض مسائل الحساب خوفاً من أن يأكل من معلمه « فلقه » ومن ثم يسجل المسائل في دفتر وظائفه وينتحل حلها لنفسه .. هذا شأنه منذ كان في الثانية أو الثالثة عشرة من عمره ، ومن ثم صار أخي بعد هياط ومياط وعرق من شقاء عريقاً في الشرطة ووصل ملازمنا الى ما هو فيه الآن .. نعم اعرفه منذ ذلك التاريخ ، واعرفه حين كان عضواً مقرباً في جمعية الاخوان المسلمين حين كان محط اشمزاز وسخرية من كافة رفاقه واعرفه كيف ظل ست أو سبع سنوات وهو يحضر



ان الديكتاتورية تتجج في اختيار أعوانها المخلصين من بين أمثال
ذاك الشخص المسكين ، فتتخذ منهم مطايا رخيصة ، وأدوات صماء ،
لتنفيذ سياستها الإجرامية بحق الشعب ، حتى اذا ما استهلكتهم
وشوهت سمعتهم ودمرت مستقبلهم ، لفقتهم لفظ النواة ، وتركبتهم
عرضة لأسوأ العواقب ، ليدفعوا وحدهم ثمن خطاياهم . وهكذا
فعل الديكتاتور أديب الشيشكلي بهذا الضابط الصغير ، فقد
استغله وورطه في ارتكاب العديد من الجرائم الوحشية ضمن خطته
الارهابية الرامية الى اخضاع الشعب .

ان من جملة الجرائم التي ارتكبها هذا الضابط المتهور ، قتل
المواطن السيد مجيب المرشد ظلما وعدوانا ، ثم الاشتراك ، مع
العقيد الشيشكلي نفسه ، في قتل الرقيب ناجي البحري أثناء تعذيبه
في سجن المزة . لقد انغمست يدا هذا القاتل في دماء الابرياء ، فبات
متعطشا للدم البشري كالوحش المفترس ، يطلب المزيد منها ، دون
روية أو خوف من حساب أو عقاب ، اعتقادا منه أن تسخير نفسه
ووجوده لخدمة عهد التسلط والسيطرة سيحميه وللابد من القصاص
الذي يستحقه مقابل ما ارتكبه من جرائم وآثام خطيرة .

«
البكالوريا ويخفق .. ولست أدري اذا كان الاخ حمدي يعرف معي
هذه التفاصيل .. فاذا كان امره لدي كذلك ، فليس من الطبيعي في
شيء أن اغمض عيني عن سخافاته .. بل لعمري انه ذل ما بعده ذل
ان أرى هذا الحقير في وجهي يتخطى ويتمطى ولا يستطيع أن اطبق على
خناقه بيدي بل برجلي ان استطعت حتى اراه يلفظ أنفاسه الاخيرة كما
يموت الكلب . ولكنها سنة الدهر حين يغلط - وكم للدهر من غلطات -
وقد عبر عنها ابو الطيب المتنبي بقوله : « فالحر مستعبد والعبد
معبود » * .

عبد الفتاح

* (الملحق رقم ١ والملحق رقم ٢) *

وقد قضي على هذا المجرم القاتل من قبل المحكمة العسكرية ،
بعد سقوط ديكتاتورية الشيكلي ، بسجن الاشغال الشاقة غيايا ،
جزاء وفاقا لما اقترفته يداه الاثيتان في قتل الرقيب بحري •



ان من طبيعة عمل المحامي أن يقف أحيانا أمام محكمة الجنايات
للدفاع عن مثل هذا المجرم العاتي ، لان حق الدفاع مقدس ، ولا بد
من اسعاف أي متهم ، في دعوى جنائية ، بتولي الدفاع عنه من قبل
محام موكل أو مسخر •

ولكن أن يقع المحامي المجاز ، والمواطن الحر ، في قبضة مجرم
قاتل ، ليقدم له الحساب عن كفاحه في سبيل توطيد دعائم القانون
والذود عن حرية الشعب وكرامته ، فهنا الطامة الكبرى ، والعجب
العجاب ، ومهزلة الدهر التي ما بعدها مهزلة •

وكان علي أن أكون ، أنا وحرיתי وكرامتي واندفاعي في خدمة
وطني وشعبي وحماسي لتطبيق القانون وفرض احترامه ، مدار مثل
هذه المهزلة ، عندما تعرضت للاستجواب من قبل لجنة عسكرية مؤلفة
من خمسة ضباط صغار يواكبهم ضابطان آخران أحدهما عين مديرا
للسجن في تلك الفترة بالذات التي ازدحم خلالها سجن المزة العسكري
بالسجناء وأنضم بالمعتقلين السياسيين ، مدنيين وعسكريين ؛ وثانيهما
معاون رئيس الشعبة الثانية ، وكانت مهمته ، على ما يبدو ، مراقبة
عمل اللجنة لانه لم يكن عضوا رسميا فيها •

وكان بدهيا أن يتولى توجيه الأسئلة رئيس اللجنة بالذات ،
وأن يصت أعضاءها ؛ ولكن السيطرة الفعلية على اللجنة وأعمالها ،
كانت لضابط الشرطة العسكرية الذي تولى المبادهة لاحتلال حلبة
الصراع الدامي الذي دار أمام هؤلاء العسكريين ، وقد كان مكانهم

الطبيعي في ميادين التدريب وساحات القتال ، فنقلتهم أيدي
الديكتاتورية المنحرفة ، والخادمة لمصالح الاعداء ، الى أوكار
التجسس وأقبيّة السجون والمعتقلات ليمارسوا أدوار الجواسيس ،
والسجّانين ، والجلادين ، وشهود الزور ، ضد الاحرار من أبناء
وطنهم •

كان صراعا قاسيا وعنيفا بين المحامي المعتقل وبين ضابط الشرطة
العسكرية المجرم القاتل ؛ كان صراعا بين الحق والباطل ، بين الخير
والشر •

بدأ الضابط بطرح أول سؤال على المحامي الاسير ، فرد رجل
القانون محتجا بعدم قانونية توقيفه لعدم صدوره عن مرجع قانوني
مختص ومعترضا على عدم شرعية اللجنة التي يقف أمامها •

يحتد الضابط ويبدأ بالسباب والشتائم ، فيرد المعتقل السهم
من حيث أتى وبشكل مهذب ؛ ولكنه يصيب من الضابط قمة عنجهيته
وصميم غطرسته ، ويثير الوحش الضاري الكامن تحت هندامه
العسكري ؛ فيهجم كالثور الهائج ، وهو بدين وقوي مثله ، على
المواطن الاسير موجها له اللكمات القوية والصفعات الاليسية بكلتا
يديه على رأسه ووجهه ، وبشكل قاس ، فيدميه ؛ ويغمى على الاسير
لشدة الضربات التي انقض بها الوحش عليه ، عند ذلك يصبون عليه
دلويا كبيرا من الماء البارد ، فلا يلبث أن يصحو من حالة الانعماء ،
حتى يعاود الثور اعتدائه الاثيم لا بقبضتيه وراحتيه وقدميه فقط
هذه المرة ، بل وباستعمال سوط جلدي غليظ ، ينهال به على جسد
الشاب النحيل الواقف أمامه كالطود ، لا تزيده السياط الا تشبثا
بسوقه ، ولا يبعث فيه الاعتداء على جسده ، الا الثبات والتصميم
على مجابهة الظلم والطغيان •

ويتكرر المشهد «الدرامي» ، ضرب وتعذيب وانغماء ودلو من الماء وصحو ، حتى تدور الارض ويزوغ البصر ، فلا يعود الانسان الحي يدري ماذا يدور داخل نفسه وفي عقله ومن حوله ، ولا يستطيع تمييز الاشياء ♦♦

ويتاب الجسد المذبذبي بالاضافة لآلامه البدنية الناتجة عن شدة الضربات ولهب الجلادات ، شعور داخلي مفعم بالاشمئزاز والاشفاق : الاشمئزاز من الدرك الذي ينحدر اليه بعض بني قومه في الاعتداء على الاحرار من أبناء شعبهم ، بينما العدو المشترك يقف على الحدود ، كالشيطان ، يقهقه بينه وبين نفسه لانه قد تحقق له ما ينشده من نظام الحكم العسكري الذي ما قام أصلا في البلاد الا لخدمة أغراضه العدوانية وأهدافه التوسعية ، يخالط الاشمئزاز اشفاق شديد من الانسان الحر الذي يتصدى لتحرير العبيد ، فيظهر من بينهم عبد يتطوع لجلد الانسان المكافح من أجل تحريرهم .

فيحملون جسده المحطم مشخا بالدماء والجراح ويلقون به في مكان مظلم ، ضيق ، رطب ، ويصبون فوقه دلو آخر من الماء ، ويترك فترة لا يمكنه تحديدها في سياق الزمن ، ثم يعود اليه السجانون الغلاظ ويخرجونه من الزنازة التي ألقوه فيها ، ويدفعونه بعنف في طريقهم الى غرفة مدير السجن ، ويسضون به بين صفين من الجنود لابسي المعاطف الخاكية ، والحاسري الرؤوس ، والحليقي الشعر ، والذين تبدو على وجوههم الصفراء جميعا آثار التعذيب الوحشي . انهم حرس الشرف كما كان يتندر المعتقلون بتسيتهم ، أو ضحايا الظلم والشر ، يحاولون بواسطة مظهرهم ادخال الرعب والرهبة الى نفس السجين الذي يدفعونه أمامهم للسير بين صفي هؤلاء المعذنين التعساء .

وفي هذه المرة يتولى رئيس اللجنة طرح الاسئلة من جديد ، فيعطيه ابن العدالة درساً قانونياً في أصول التحقيق ويدعوه لتنظيم محضر استجواب خطي ، ان كانوا فعلاً جادين في التحقيق معه . فيفرح رئيس اللجنة وأعضاؤها ويأتون بالقلم والقرطاس ، ويدفعون بهما الى المواطن الموقوف ، ويطلبون اليه تسطير المحضر بنفسه . يرفض ذلك ويفهسه أن هذا عبء يقع على عاتقهم ماداموا حريصين على القيام بدور المحققين . فيكلف رئيس اللجنة مقررهما بتنظيم المحضر^(١)؛

(١) نص محضر الاستجواب :

بتاريخ ١٩٥٢/١٢/٢٦ الساعة التاسعة عشرة اجتمعت اللجنة المؤلفة من الرئيس أمين نفوري رئيساً والملازم الاول أحمد عبد الكريم والملازم الاول عبد الحق شحادة والملازم الاول هشام كيالي اعضاء والملازم الاول حسين القاضي مقررأ واستحضرت أمامها السيد رياض المالكي ووجهت اليه الاسئلة التالية :

س ١ : ماهي مأخذك على الوضع الحاضر من حيث الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية وهل تعتقد بوجود صلة بين رجال العهد الحاضر وبين الدول الغربية فيما يتعلق بأوضاع الشرق الاوسط ؟ .

ج ١ : انني لست مستعداً للإجابة عن أي سؤال يوجه الي من قبل لجنّتكم لاني لا ارى صفة قانونية تعطي هذه اللجنة حق التحقيق معي لاسيما وأن حريتي حجزت على وجه يخالف احكام القانون ومبادئ الدستور الذي وضعتة الامة بمحض ارادتها والذي انتهكت حرمة من اشخاص غاصبين لم يولهم الشعب أية سلطة للحكم وللرج بأبناء البلاد الاحرار في السجون لمجرد دفاعهم عن حريتهم وحرية وطنهم وسيادته .

س : هل تعتقد بأن من حق أي مواطن ان يتصل بالعسكريين وأن يفسد عليهم انضباطهم ويحرضهم ضد قيادتهم ونحن بأمس الحاجة لتكتل قوانا سيما ونحن أمام اخطار داخلية وخارجية لا تجهلها ؟ .



ويتسابق أعضاء اللجنة مع رئيسها في طرح الاسئلة * لكن أجوبة المعتقل تنهال عليهم أشد من السياط التي تلقاها جسده وأدمت رأسه ووجهه ، وألهبت ظهره ، فيخيب أملهم ، ويؤءون بخذلان عظيم ربما سيعرضهم لغضب سيدهم الذي طار صوابه لمجرد حديث دار بين بعض الضباط الاحرار والتقطته آذان الجواسيس ، فأغرقه في بحر من الهواجس والوساوس التي لم تكن لتدع له بعد ذلك فرصة لينام بهدوء معظم ليالي فترة حكمه ، حيث كان الخوف يطارده أينما حل وأنى ذهب ، فصار يمضي ليليه ، تارة في الشكنات العسكرية ، وتارة في بعض مزارع الغوطة ، وطورا في أكواخ الحراس الليلين ، وأطوارا في بيوت أصدقائه أو في أماكن مجهولة .



ج : اني اكرر عدم استعدادي للاجابة على أي سؤال يوجه الي لذات السبب الذي أوردته في جوابي على السؤال الاول .

س : هل تقصد بأنك لا تعترف على الوضع القائم من أساسه أي أنك لا تعترف على العهد الانتقالي والحكم الذي أتى بعده ؟ .

ج : لست في معرض استفتاء يجري بشأن اقرار مشروعية الوضع الحاضر أو عدمه .

س : من هم الاشخاص الفاصبون الذين تقصدهم بإجابتك الاولى ؟ ج : اني التزم الصمت تجاه أي سؤال يطرح علي .

تليت عليه افادته فأيدها بتوقيعه

س : لقد شكلت اللجنة التي اعترضت على عدم قانونيتها والتي لم تعترف عليها من قبل النيابة العامة العسكرية للتحقيق بجرم يمس اكيان الجيش فهل أنت مصر على عدم الاعتراف ؟ .

ج : لا أقول شيئا .

س : هل تعلم أن عدم الاعتراف على لجنة قانونية معاقب عليه وأنت بحكم ذلك موقوف بجرم ممانعة لجنة التحقيق عن ممارسة عملها؟

ج : لا أجيب * .

* (الملحق رقم ٣)

سقط الجواب الاول على رؤوس أعضاء اللجنة كالحجر الصلد،
وأفزعهم لأنهم ما كانوا ينتظرونه ؛ وقد ورد في كلماته المقتضبة تقييم
شامل لعهد العبودية الذي حرصوا على معرفة رأي الانسان
الحرفيه • ثم جاء الصمت بعد ذلك أبلغ من الكلام ..

ولكن أنى للعبيد أن يسلخوا بسنطق الاحرار ؟ وهل لهم أن
يقنعوا حتى بسكوتهم ، اذا كان السكوت معبرا عن الرفض المطلق
لمنطقهم وطمعائهم ؟ ..



أعادوا السجين مرة أخرى الى محبسه • وكان واضحا سلفا
أنهم لن يكفوا عنه شرهم ، رغم ما أذاقوه اياه من عذاب أليم ، وما
تفجر من دمه البريء على وجهه وساعديه وظهر يديه اللتين كان يحيي
بهما عينيه من لسعات السوط ، وقدر هو أن موقف التحدي الذي
وقفه منهم ومن العهد الاجرامي الذي سخرهم ، ليكونوا أدوات
صماء في خدمته وفي ارتكاب جرائمه ، سيزيد في ضراوة تنكيلهم
به وفي حدة الاعتداء عليه ، وأن الدم الاحمر القاني ، الذي سال
أمام أعينهم ، سيجعلهم كالوحوش ، يستثيرهم منظره ، فيسعون
لسكب المزيد منه ، تلغ فيه أيديهم الآثمة الملوثة بدماء الضحايا •

وهكذا كان اذ لم يسكت في غرفته بعض الوقت ، حتى جره
السجانون بغلظة فائقة ودفعوه أمامهم بين صفي حرس الشرف المؤلف
من المعتقلين الذين لاقوا التعذيب قبله ، ويدخلونه الى غرفة المدير ،
وفيها يرى هذه المرة ما لا تصدقه عيناه : رقيب وعريف وجندي من
الشرطة العسكرية ؛ الاول والثالث يحملان (فلقة) مؤلفة من خشبة
غليظة ، مربوطة من طرفيها بحبل من مرس والعريف يحمل سوطا
جلديا غليظا ، يقفون جميعا وقفة تأهب واستعداد بين يدي الملائم

الاول ، مدير السجن الضابط في جيش الوطن ، الذي أقسم يوم تخرجه من الكلية العسكرية بأن يكون جندياً شجاعاً وبأن يخدم وطنه باخلاص ، ويدافع عن شعبه ويحارب من أجله بشرف حتى الموت ؛ فيها هو ذا يبر بعهدده ويفي بقسمه ، اذ يصدر أوامره الى الجلادين بأن « عليكم بهذا الصهيوني الخطير ، اجلدوه ، عذبوه ، لا ترحموه ... » .

هكذا كان دأب عهد الطغيان في سورية العربية المجاهدة الجريئة ، كلما سقط انسان وطني حر في أيدي زبانية الطغاة ، سارعوا لاتهامه بأنه صهيوني ، أو عميل لاسرائيل ، بينما اسرائيل تبني في أرض الوطن وفي أقدس بقعة منه قلعة شامخة تطل منها على العرب لتستع برويتهم كيف ينحر الاخ أخاه ، وكيف يلغون في دماء بعضهم بعضاً .

ما أشبه اليوم بالامس ، حين اعتدى الجند الفرنسيون على الطالب العربي الفتى في عرض الشارع وفي وضح النهار . أما اليوم ، وبعد أن أصبح محامياً وعضواً في مجلس نقابته ، يتكرر عليه الاعتداء لا من قبل جنود الاحتلال ، هذه المرة ، بل على أيدي جنود الوطن وفي عياهب السجن وفي ظلام الليل .. يا للفضيحة ، يا للعار !!

وتسنى ذاك السجين لو أن أمه لم تلده حتى لا ترى عيناه ذاك المشهد المخزي ، لا لأنه هو الضحية ، أو لأن السياط ستهوي على جسده من جديد ، ولكن لأنه كان يجل أبناء شعبه عن التردى في مثل هذا الدرك العميق ، ويربأ برفاق أخيه في السلاح أن ينقلبوا هم وجنودهم البواسل الى سجانين عتاة وجلادين قساة ..

ولكن كان لا بد مسا ليس منه بد .. فالأوامر لدى العسكريين هي الأوامر ! ويزيد في صرامة تنفيذها ، في مثل هذه الحالة ، اعتقاد الضابط الغرب بأنه عندما يبالغ في ذلك ، اننا يحظى برضاء رؤسائه ، لأنه بعمله البطولي يقدم لوطنه وشعبه خدمة أكبر من تلك التي يقدمها في جبهة القتال وفي مقارعة الأعداء . أليس هذا هو الدرس الوطني الذي لقنوه إياه عندما استقدموه من قطعتهم ، والنهج الثوري الذي رسوه له في أوكار الشعبة الثانية ؟ ..

أما العريف الجلاد ، وهو متطوع من أهالي جبل الأكراد ، متدين حتى الهوس وبسيط حتى السذاجة ، فقد غرر أمره به وبرفاقه عندما ضللهم وأوهبهم بأن هذا الذي بين أيديهم ليركلوه بعد قليل بأقدامهم ، يضعوا رأسه تحت نعالهم ، ويسلخوا جلده بسياطهم ، ليس إلا صهيونيا ذميما ، خصما للعروبة ، وعدوا للإسلام ..

ويطرح السجين على ظهره بالقوة فوق سطح الأرض ، وتوضع قدماه العاريتان في « الفلقة » ، ويشد الحبل عليهما بقسوة وغلظة ، ويعض الحبل الجلد وينغرز في اللحم ، وترتفع القدمان الى فوق عاليا وتنهال عليهما الجلادات متتالية متتابعة ، عشرا ، عشرين ، ثلاثين ، أربعين ... يتوقف الجلاد بعدها عن الجلد كما تقضي بذلك قواعد المهنة ، إذ أن لكل مهنة أصولها ، حتى الجزارون ، أن لهم طريقتهم في ذبح الشياه والخرفان ، حتى يصفى دمها ويطيب أكل لحصها .. وهكذا الجلادون ، فقد دربوه على ممارسة مهنتهم الشريفة السامية .. انهم من مخلفات جنود الاحتلال ، لا بل انهم وبالتأكيد أشد قسوة وأكثر وحشية ..

فلسع السياط ، والتهاب الجلد ، وتنزق الشرايين الدقيقة ، وتهيج الاعصاب تحت وقع الجلادات الغليظة القاسية ، يؤدي أخيرا الى توقف الاحساس بالألم .

ولا بد من استعمال وسيلة ، فنية ، وعلمية ، تعيد الى الجسد الاشل شعوره ، والى القدمين المتورمتين احساسهما • فيصب الماء البارد على القدمين بغزارة ، ويشعر السجين عندئذ كأن ماء غاليليا أخذ يسلق جلده من بعد ما اکتوى بلهب الشياطين ، ثم يرفع من الارض ويحمل على الوقوف مجدداً على قدميه ، ويطلب منه أن يركض في أرض الغرفة المبللة بالماء المسكوب ، ويدفع بالقبضات ، ويلسع ظهره بالسوط ، كي لا يتباطأ في سيره أبداً ..

ثم يمددونه على الارض ثانية ، ويربطون رجله بالفلقة ، ويعاود الجلاد الكرة ويستأنف كفاحه الباسل • ويهوي السوط من جديد وبغزم وتصميم أشد ، هذه المرة ، وتنهال الجلادات متتابعة ، خمسين ، ستين ، سبعين ، ثمانين ... حتى يفقد المجلود الشعور بالالام ، وتسري في جسمه وأوصاله قشعريرة باردة ، كأنها حُمى البرداء التي سبق أن أصيب بها أيام صباه • ثم تتكرر العملية ذاتها ، ليعود الاحساس الى القدمين من بعد صب الماء فوقهما ، واکراه السجين الجاري تعذيبه على الجري فوق الارض بسرعة ، وبسرعة أكثر ..

ويلتفت السجين ، أثناء جولة الركض ، الى الملازم الاول مدير السجن ، وكان واقفاً عند الباب ، يومئذ لمرؤوسيه البواسل ، بأن تابعوا مهتكم الوطنية ، بلا هوادة ، ويطلب اليه الكف عن هذه الخطة الاجرامية البلهاء • ولكن « لا حياة أو لا حياة لمن تنادي » ..

وتستمر الحفلة التي يطرب الضابط المغوار لمشاهدتها ، لأنها أرقى في نظره مما يشاهده على الشاشة السينمائية من أفلام • ولكن لكل مسرحية ، درامية أو هزلية ، فصولها المتتابعة ، ثم تلي خاتمتها النهائية • فكان فصل الختام في هذه المسرحية الحية ، اركاع الانسان الحر الذي لم يركع من قبل الا لخالقه ، لتهوئ الشياطين هذه المرة

على ظهره واليتيه ، وتنهش من جلده ، وتأكل من لحمه ، وتترك
خطوطها الدامية وآثارها الزرقاء مطبوعة على جسده ، وينفذ الالم
الى صدره ثم الى قلبه ، فيحس وكأن خنجرا حادا قد طعنه في فؤاده ..
يا ويح هذا القواد لما أصابه من عنت على أيدي هؤلاء الجنود الذين
خفق طويلا بجبههم ، وتسنى لهم الظفر في معاركهم المرتقبة ضد أعداء
وطنه ومغتصبي أراضيه المقدسة !.. ان الطعنة التي أحس بها لم
تمس شغافه لوحده ، بل انما شعر بأنها أصابت صميم القضية
الوطنية ذاتها . ويا خيبة ابن الشعب بهؤلاء الضباط والرتباء
والجنود !.. لقد أمدهم هو وقومه وأهله ووالده بالمال والسلاح
اينطلقوا في طريق الكفاح والشرف والنصر يذودون عن أرض الوطن ،
ويقضون على قواعد العدو الدخيل ويطردهونه من الارض المغتصبة ،
ولكنهم ويا للأسف ، قد غيروا اتجاههم بفعل الديكتاتورية الحائنة ،
واختاروا السير على درب العار والهزيمة ..



ربما يكون غليل الطاغية وأعوانه قد شفي بما قاموا به من عمل
بطولي ، بعد أن أضحى السجين حطاما لا يقوى على الحركة أو
الوقوف ، فأمسكوا به من تلايبه وجروه جرا الى العرفة الواسعة ،
وألقوه على الفراش ، ولكنه لم يذق طعم الكرى في ما تبقى من الليل .
ولم يكد ينبلج الفجر حتى نقلوه مرة أخرى الى الزنازة الضيقة ،
وتركوه فيها ملقى على أرضها طيلة النهار . وفي المساء حضرت اللجنة
ذاتها ، فأخذوه اليها ، محبولا من تحت ابطيه ، لأنه لم يستطع السير
على قدميه المتورمتين الداميتين . ويصطف حرس الشرف على الطريق ،
بين باب الزنازة وباب غرفة مدير السجن . المنظر الموحش ذاته :
السجناء الحليقون ، صفر الوجوه ، يقفون كالاشباح في شبه الظلام

المسيطر على ممرات السجن ، وآثار التعذيب على وجوههم ، ومראה
الآلم والعذاب في عيونهم الشاحصة نحو غد مجهول ؛ ويدفعون به
أمام اللجنة ، لجنة الضباط الصغار المكلفة بالتحقيق معه ومع رفاقه
الاحرار •

انه لا يستطيع الرقوف ، ويحاول الاستناد الى كرسي قريب
منه • وفي هذه المرة يتولى المباحثة ضابط آخر غير الملازم عبد الحق،
وغیر النقيب رئيس اللجنة الذي لا يحققون له كرامته ولا يتركون
له حتى فرصة ادارة مثل هذه الجلسات الفاجرة • انه الملازم عبد
الكريم ؛ وهو الذي حصل آلة تسجيل الصوت ، وتلصص على زميله،
من وراء الستار والتقط حديثه الخاضع مع أحد ضباط الصف ، وهرع
به الى سيده ليقدمه له عربونا صادقا على ولائه له ، ودليلا قاطعا
على سهره المتواصل على عهده المينون الحافل بالمغانم والمسرّات •
فلماذا لا يكرس خدمته للديكتاتور ، بالتطاول على الاحرار والتكيل
بهم ؟ •• أوليس هذا شأن العبيد ، جميع العبيد ، يحاولون اذلال
الاحرار لارضاء عقدة النقص في نفوسهم ، اغتقادا منهم بأن اذلال
الحر ، اذا تسكنوا منه ، انما يهبط به الى مستواهم ، ما داموا هم
غير قادرين على الارتفاع بأنفسهم الى مستوى الاحرار ؟ ••

بالامس كان دور عبد (الحق) واليوم جاء دور عبد (الكريم)،
ولكن بأسلوب جديد • انه لم يعتمد الى استعمال السوط ، فقد
ناب عنه باستعماله في الليلة الماضية جلادون محترفون ؛ ولكنه لجأ
الى صوته الخشن الأجنس لينهى بفظاظة الجريح ، المترنح أمامه ، عن
الامساك بالكرسي والاستناد اليه ، بدل أن يهب لاسعافه ومسح
جراحه التي أنزلتها به أيادي المجرمين الآثمين •

ولكن السجن الجريح ، لا يأبه لكلام الضابط اللفظ الذي كان

يتشدد بكلامه بلهجة الأمر؛ بل يسحب الكرسي نحوه ويجلس عليه،
مطئنًا اللجئة الى أنها ستسرع منه اليوم ما يسرها وما سيفرح له
قائدها العظيم الذي كان منذ الامس حريصا على تلقي أخبار تقدم
اللجنة في مهنتها بواسطة الهاتف • وقبل أن يوجه الى السجين أي
سؤال ، يتصدى المواطن الذي أرادوا أن يجعلوا منه متهمًا ، ويدينوه
بجرائم ربما بلغت عقوباتها بعد جمعها وتشديدها العقوبة القصوى ،
وينبري بدون تردد أو وجل لتوجيه الاتهام الى عهد الديكتاتورية ،
مفندا أخطائه وأخطاره ، جرائمه وأوزاره ، وعدم جواز بقائه
واستمراره ، وتصميم أبناء الشعب الاحرار على تحطيمه ، ويؤيد
ما كانت حصلت عليه اللجنة من أفواه زملاء أخيه الضابط المعتقلين
قبله والذين حشروا اسمه في افاداتهم التي أدلوا بها قبل اعتقاله
بأيام دون اكراه وبسحق ارادتهم مؤكدين فيها عزمهم وتصميمهم على
الاطاحة بالعهد الاجرامي المنحرف • وكان على السجين في نفس
الوقت أن يحيي الكثيرين من الضباط الشرفاء الذين وضعوا ثقتهم
في أخيه ، وأيدوه في مسعاه الصادق لديهم للاسهام في مؤازرة حركة
الضباط ، حال تنفيذها • وبالرغم من كل ما لاقاه على أيدي الجلادين
من تنكيل وضغط وعذاب ، لم ييح بأسماء هؤلاء ، وفاء بالعهد من
جهة ، وحذر أن يزج بهم جميعا في السجن ويحرم جيشهم ووطنهم
من خدماتهم الجليلة المخلصة من جهة ثانية •

وقد نجحت خطته في اتخاذ موقف الهجوم من عهد الطغيان
وصاحبه وأعوانه والمنخرطين في التنظيم السياسي الموالي له والمسئى
بحركة التحرير ، وساعدت على ابعاد انظار المحققين ، عن الكثيرين
من ضباط الجيش وموقفهم الايجابي من الخطة الهادفة لاسقاط الحكم
الارهابي الاسود •

وأمام وضوح البيان ، وازاء قوة الحجة والبرهان ، يتبدل

الوضع وينقلب حال اللجنة رأسا على عقب ، ويتبادل أعضاؤها النظرات والاياءات ؛ ولا يكتسب الضابط المغوار أو المغرر به الملازم عبد الحق ، اقراره بصحة كل ما ورد على لسان رجل القانون من نقد للسلطة الحاكمة واتهام للعهد ، ويذهب به الحماس الى حد خلع عمرته العسكرية الحمراء من على رأسه والالقاء بها على المنضدة التي أمامه ، ويلتفت الى زملائه ليعلن : « بشرفي ، ان ما يقوله رياض صحيح » •



ينفض اجتماع اللجنة في وقت متأخر من الليل بعد أن يطلب من السجين تدوين تقرير بما قاله في تلك الجلسة مع الوعد بأن ما أوردته من أسباب النقد والاتهام سيكون محل دراسة واهتمام المسؤولين لتصحيح الاوضاع وتقويم الاعوجاج •

وبعد ذلك أعادوه الى الغرفة الواسعة ، لينعم فيها بنوم هنيء على الفراش المحشو بالقش فوق السرير الحديدي المرتفع • وفي اليوم التالي ، أتوه بورق وقلم لاعداد تقريره ، فانكب على ذلك ووضعه خلال يومين على عشر ورقات كبار * ، وسلمه الى مدير السجن الذي ما فرغ من قراءته ، حتى وعاد اليه ، يلتبس منه العذر عما بدر منه نحوه في الامس ، معترفا بأنه كان جاهلا حقيقة الوضع ، وأنه كان مخدوعا مثل غيره من الضباط •



ظل السجين ، بعد توقيفه ، خمسة أيام مضربا عن الطعام ، يأتونه بوجبات ثلاث أو أربع في اليوم الواحد ، ويعودون ليأخذوا الصحف كما هي دون أن يمسسها ، وذلك اشعارا منه للسلطة

✽ (الملحق رقم ٤)

باحتجازه على أساليبها الوحشية البربرية وعلى سياستها الاجرامية المنحرفة التي لم يتردد في فضحها والتنديد بها في تقريره الخطي ، مع انذار عهد الطغيان بقرب السقوط والزوال ، مكتفيا بشرب الماء من الجرة الكبيرة التي لم يغير محتواها من قبل دخوله الغرفة •

وكان بعض السجنائين يحاولون ثنيه عن اضرابه متفنين في اتباع أساليب الترهيب والترغيب ، ولكنه لم يكن ليكثرث بكلامهم ، أو يأبه لعواطفهم وزجرهم •• وفي مساء اليوم الخامس ، يأتيه معاون المدير وهو يحمل رتبة رقيب أول ، وكان في السابق مديرا للسجن ، ولكنهم لم يطمئنوا له ، بعد سلسلة الاعتقالات الاخيرة ، فأتوا بالمدير الجديد من أنصار العهد العتيد •

والرقيب الاول عزة حسين ، مشهور في جميع الاوساط السياسية والشعبية ، بأنه اراهابي كبير وجلاد خطير ، تهتر لساع اسمه الاوساط ، وترتجف لمجرد ذكره الاوصال •

ولكن ذاك الذي كانوا ينعتهون بالارهابي الجلاد ، كان أرحم من رؤسائه الضباط • لم يدخل غرفة السجن ليهدد ويتوعد ، ويأمر وينهى ، أو ليشرع السياط في وجه السجن المتسرد ، بل أتاه ليواسيه وليندد بعسل المجرمين الآثمين ، ويقول انه بحكم كونه رجلا عسكريا ومن أصل شركسي ، يحب الرجال الشجعان ويقدرهم ، وأنه ما جاء الآن ليتسلق أو يداهن ، بل انما حضر ليحيي في السجن موقفه الجريء وليطلعه على حقيقة هو قانع بها كل القناعة ، وهي أن اضراب مخاطبه عن الطعام ، لا يدري به أحد خارج السجن سوى أقطاب العصابة المتحكمة المتسلطة ، وأن هؤلاء ليسوا الا حفة من المجرمين ، لاتهمهم الا مراكزهم ومصالحهم ، وأنهم سيفرحون اذا ما فتك الجوع بهذا الانسان الاسير الذي رآه وهو في محبسه ، ورغم التعذيب الوحشي

الذي أنزلوه به ، قد تمكن من قهرهم وتجدي جبروتهم • وتابع معاون المدير حديثه مؤكدا أن الوطن بحاجة لابنائها المخلصين ، فحرام اذن على هذا السجين أن يفرط بصحته ويعرض نفسه للهلاك ، اذ عليه متابعة الشوط ، فالمعركة شاقة وطويلة وهي لما تنته بعد •

كلام صريح وواضح ، لا يخلو من المنطق ! وقد يكبو الفارس أحيانا ، فتكفي همسة مشجعة في أذنه ، ومن أبسط الناس شأنا ، لينهض من عثاره وهو أشد عزيمة وتصصيا • ويعدل السجين عن اضراجه ، ويبدأ بتناول طعام السجن بانتظام في الاوقات والحدود المرسومة في نظام السجن • وتضي الايام ببطء شديد ، خاصة وأن الاوامر صدرت بأن يبقى السجين معزولا عن باقي السجناء ، وأن ينسحب عنه أي اتصال •• وفي الايام الاولى ضنوا عليه بفترات التنفس ، ربما لان حالته البدنية لم تكن لتساعده على المشي ، ثم صاروا ، بعد أن برىء من جراحه ، يخرجونه الى باحة السجن ، في بعض الاحيان ، ليقضي فترة التنفس لوحده تحت حراسة السجنان •



وبعد مضي أربعين يوما أتوه بسجين لا يعرفه سابقا وهو شاب ربعة ، في الثالثة والثلاثين من عمره ، يعمل في التجارة متزوج وله ثلاثة أولاد • كان منظر هذا السجين مؤلما جدا لما يكسو وجهه من علائم الخوف والفرع ، وما يحمله في جسده من آثار الضرب والسياط • ان ما لاقاه من تعذيب وحشي يعادل أضعاف ما لاقاه نزيل الغرفة الاول : أطافر اليدين والقدمين منتزعة من الاصابع ، واللحم تحتها مهروس بشكل يقشعر له البدن ؛ ولا يلبث السجين أن يكشف عن ظهره حتى تظهر فيه آثار السياط وقد حفرت في الجسم المكتنز السنين أخاديد عميقة وعريضة اختلط فيها لون الدم بلون الكدمات

الزرقاء والبنفسجية .. وقد تقيحت بعض الجراح ، ثم بدأت تندمل بعد مضي شهر ونصف على حفلة التعذيب .. ومن ير مصيبة غيره تهن عليه مصيبته ؛ فبدأ السجين الاول يواسي ضيفه ويشجعه ويندد بوحشية من تولوا معاملته بهذه الصورة البربرية ؛ ثم يسأله عن هؤلاء الاشخاص الاندال ، ويعرف منه أنهم هم أعضاء لجنة التحقيق ذاتهم ، ومن بعدهم الجلادون الصغار . وهنا أيقن السجين الاول أن الامر اذن لم يقتصر عليه وحده ، وأن ما لقيه لم يكن بسبب تحديه لهم وفضحه لعهدهم ، بل ان العهد وزبائنه يسيرون على خطة واحدة بالنسبة لجميع المعتقلين السياسيين ، الا اذا كانوا يحملون رتبا عسكرية .. فالضباط حسب شرة ذلك العهد يجسّون ويضيق عليهم بشدة ؛ ولكنهم ، ولحسن حظهم ، لا يتعرضون للتعذيب الجسدي ، كما تقضي بذلك التقاليد العسكرية التي ظلت محترمة في ذاك الوقت .



بدأ القادم الجديد ، الذي مضى على اعتقاله خمسة وأربعون يوما ، قضاها كلها في زنزانة ضيقة منفردة ، يقص على زميله قصة اعتقاله ، وهي نفس القصة تقريبا : له أخ ضابط في الجيش ، مغضوب عليه من السلطان ، يقصى ويبعد الى دير الزور ، ثم الى بغداد ، كملحق عسكري لدى السفارة السورية فيها ، كما أن له أخا آخر نزيل السجن أيضا ، وهو أستاذ في الجامعة ومن أقطاب حزب الشعب ورئيس وزراء سابق أطاح بحكومته الانقلاب العسكري في ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥١ . تجرى لقاءات بين الشاب المدني وبين بعض زملاء أخيه الضابط وبعض أعوانه السابقين ، وهم من مراتب بعض الالوية المدرعة ، ويحصل في تلك اللقاءات اجماع على رفض حكم الطغيان واتفاق على مقاومته والاطاحة به . والخطة التي تداول فيها هؤلاء ، ربما كمجرد فكرة للبحث ، أو كخاطر شيطاني عابر ،

كانت تستهدف جرف الديكتاتور وزبائنه بواسطة إحدى الدبابات الضخمة ، المجردة طبعاً من أسلحتها النارية ، أثناء وقوفهم على المنصة الرئيسية خلال العرض العسكري المزمع اقامته في اليوم الذي اعتبره هؤلاء المتسلطون عيداً قومياً ، وهو نفس اليوم الذي حصل فيه الانقلاب العسكري الرابع .

وتشاء الصدف في تلك المناسبة المشؤومة وأثناء العرض العسكري إياه الذي جرى في شارع القوتلي في طريق بيروت ، أن تجنح دبابة يقودها سائق غير متمرس ، استعانوا به وبأمثاله بعد أن اعتقلوا معظم زملائه سائقي الدبابات المهرة . وتجتاح الآلية المجنزرة عدداً كبيراً من الأهلين المارين فوق الجسر في مدخل شارع سعدالله الجابري قرب مبنى العباسية ، فيتساقط من جراء هذا الحادث المفجع عشرات القتلى ؛ ولا يقل عدد المصابين عن المئة . وكأن أسلحة الديكتاتور التي أقصاها عن مناطق الحدود الجنوبية المتاخمة للأراضي المغتصبة ، أرادت أن تنتقم من الشعب الساخط على حكم الطغيان .

وكانت للطغاة عيونهم المبتوثة في كل مكان ، وأذانهم المترصدة لكل حديث أو همسة ، تؤازرهم أجهزة التجسس السعوية التي زودتهم بها دوائر المخابرات الأمريكية ؛ فيتسرب أيضاً خبر نشاط تلك الفئة الثانية بواسطة عملاء الشعبة الثانية . ويلقى القبض عليهم وعلى رأسهم الشاب المدني وأخوه الرجل السياسي ، ويزج بهم في السجن ، ويعاملون بقسوة وشراسة ، وينكل بالشاب المدني وبالأعداد الغفيرة من ضباط الصف الذين كان على صلة بهم .

وقد حاول المحققون العسكريون جهدهم ، أثناء التحقيق ، الربط بين الفئتين لتشويه سمعة تلك الفئة الأولى المؤلفة من خيرة العناصر الوطنية ، والإعلان عن ارتباطها بحكومة العراق ، ولكن دون جدوى ، لأن أي اتصال بين الفئتين لم يكن حاصلًا .

والتحقيق في شرعة لجنة الضباط الصغار يجري حسب الاصول والقواعد التي لقنوهم اياها لينغسوا في أجوائها وينسوا معها فنون الحرب ومبادئ القتال مع العدو : فلقة وسياط وجداول ماء وكماشات لقلع الاظافر ، وسوى ذلك من وسائل التعذيب المهجية •

وسلام يا لجنة الضباط المكلفة بالتحقيق ، على ما حققه علم الادلة الجنائية من تطور في أساليب التحري عن الجريمة ! •• وسلام على مبادئ أصول المحاكمات الجزائية التي تكفل للمدعى عليه في القضية الجزائية حريته في أن لا يتكلم الا وفق ما يشاء وبحضور محام ••

وسلام على الدنيا عندما ينقلب عاليها سافلها ، وعندما يتحكم الباطل بالحق ، وعندما يتسلط الشر في محاولة منه للقضاء على كل ما هو خير وكل ما حققته الحضارة من تطور وتقدم لمصلحة البشرية وحفظ كرامة الانسان ••

★ ★ ★

ثم ينقل السجينان معا الى غرفة ثانية تطل على ساحة السجن ، ومنها صارا يريان مختلف السجناء والمعتقلين أثناء فترات التنفس ، وصار أسهل عليهما تعقب أخبار السجن وما يجري في غياهبه من مأس تقشعر لها الابدان ويندى لها الجبين •

ألقي القبض على سائح فرنسي وزوجته ، للاشتباه بأنهما جاسوسان ، وزج بكل منهما في زنزانة منفردة ، ومضى أكثر من أربعة أشهر دون أن يحالا الى القضاء • وفي تلك الاثناء مرضت الزوجة ، ولم تعالج ، وكانت حجة مدير السجن ، أنه لن يعرضها على الطبيب مادامت حرارتها غير مرتفعة •• وتسرب اليأس الى نفس

الاسيرة المريضة بعد أن ساءت حالتها الصحية ، فحاولت الانتحار بقطع شريان معصمها ، ونقلت في حالة الاسعاف الى المستشفى العسكري حيث لفظت أنفاسها • جرى كل ذلك دون أن يسمح لزوج السجينة برؤيتها ، حتى أثناء احتضارها • وبعد وفاتها ، أفرج عن الزوج الارمل الحزين ، وسمح له بمغادرة البلاد دون احالة القضية الى القضاء ، ولكن بعد أن دفع ثمنًا لحريته ، حياة نصفه الثاني • ولم تحرك السفارة الفرنسية ساكنًا لان الحكومة الفرنسية كانت راضية عن العهد الديكتاتوري المنحرف •

★ ★ ★

أدخل الى السجن رجل مسن وفاقد البصر ، وهو من رجال البدو ، ومعه ابتناه الصيitan وطفل صغير كان ابنا لاحداهما • وزج بكل واحد من الاب وابنتيه في زنزانة منفردة • وطبعا كان الطفل المسكين ملتصقا بوالدته طيلة فترة اعتقالها ، يشاركها حياة السجن والزنزانة الرطبة الضيقة • وكالعادة مضت مدة طويلة دون أن يحالوا الى القضاء ، الى أن أتى الى السجن رجال الشعبة الثانية للتحقيق مع أفراد تلك الاسرة المنكودة الحظ • وكان صياح هؤلاء الموقوفين يرتفع الى أعالي الفضاء أثناء التحقيق معهم ، ويملاً السجن فزعا وقلوب المساجين ألما واشتزازا للأساليب البربرية المتبعة مع أولئك الاشخاص الابرياء الذين لم يكذبوا يجري التحقيق معهم ، حتى تبين للتحققين أن تهمة التجسس التي ألصقها بهم شاب بدوي أرعن ، كانت وشاية كاذبة وجهها الى دوائر الشعبة الثانية لأن العازبة من الابنتين رفضت الاستجابة لنداء قلبه الولهان • فأطلق سراح الاب وابنتيه وحفيده ، بعد توقيف دام أكثر من ثلاثة أشهر استغرق فصل شتاء بكامله ، وكان شديد البرودة وكثير الامطار في

وقت لم تكن تستر أجساد هؤلاء الموقوفين الا برباءة أسمال بالية.

★ ★ ★

كان يفرض على معظم المعتقلين السياسيين ، خلال فترة اعتقالهم ، منع الاتصال بأي انسان داخل السجن وخارجه ؛ وكانت الرقابة شديدة للغاية . وفي مرة من المرات أدى سجين اسمه العريف أحمد عابد التحية العسكرية للضابط الركن المجاز المعتقل أثناء فترة التنفس وعن بعد ، فما كان من مدير السجن الذي لمح تحية العريف للضابط ، الا أن حاسب العسكري المهذب حسابا عسيرا ، وذلك بضربه ، بهراوة غليظة ، على اليد التي وجه التحية بواسطتها ، فكسر له عظم المرفق ، وتورمت يد السجين ؛ ولكن مدير السجن أصر على عدم اخضاعه للمعالجة الطبية ، خوفا من أن يتقدم المجنى عليه بدعوى جزائية بحقه . ولما ساءت حالة اليد المكسورة ، خشي مدير السجن من سوء العاقبة ، فنقل العسكري المصاب الى المستشفى ، ولكن بعد أن أخذ منه تعهدا بشرفه العسكري ، بأن لا يتقدم بأية شكوى بحقه .

★ ★ ★

وكان بين المعتقلين عدد من المحامين الاشتراكيين الوطنيين الذين رغم عدم علاقتهم بنشاط الضباط المعتقلين ، كانوا يعاملون معاملة وحشية قاسية ؛ فقد حلقوا لهم شعر رؤوسهم ، وجلدوا بعضهم ، وفرقوهم عن بعضهم بوضعهم في زنانات ضيقة مع منع الاتصال عنهم . وكان من بين هؤلاء ، الاساتذة خليل الكلاس وعبد الفتاح الزلط وناظم الصقال ومحمد عطورة ونائب حمص السابق السيد احسان الحصني والمعلم الابتدائي (البعثي) السيد فائز اسماعيل ، بالإضافة الى عشرات بل مئات من المعتقلين من أبناء مختلف المحافظات السورية ، ومعظمهم من الشباب المثقف .

كما زجوا بعدد كبير من طلاب الجامعة الذين أعلنوا اضرابا عاما عن الطعام ، وكان ذلك احتجاجا منهم على سوء معاملتهم وحلق شعر رؤوسهم ؛ فنقلوهم الى تدمر حيث عاملوهم معاملة أقسى وأسوأ ، ثم عادوا بهم الى سجن المزة ، وتابعوا الضغط عليهم ، ولم يفرجوا الا عن أولئك الذين وقعوا على تعهدات خطية بالكف عن محاربة عهد الطغيان ، وعن القيام بأي نشاط سياسي ، وكان عدد الموقعين قليلا .

★ ★ ★

وكان الضابط الركن المجاز ، بحكم الشعبية التي له في أوساط العسكريين ، والتي استطاع الحصول عليها بسرعة في أوساط السجائين أيضا ، قد توصل الى تنظيم شبكة للمراسلة بين معظم المعتقلين داخل السجن . وامتد نشاط الشبكة الى خارج السجن حيث كانت الرسائل تأخذ طريقها الى ذويه ، ومنهم اليه والى أخيه . وقد أفاد بعض المعتقلين من هذه الوسيلة وتمكنوا بواسطتها من إيصال الرسائل الى أسرهم ، حتى ولو كانت تقطن بعيدا عن العاصمة وفي أقصى الشمال .

وكان أهل الضابط وأخيه يوافونهما بأخبار البلاد وأحوالها السياسية ، ويرسلون لهما أحيانا بعض المنشورات الموزعة في أوساط الجباهير وفي صفوف طلاب الجامعة ، والتي يجدر بمن يود الاحاطة بأحوال البلد ، في تلك الحقبة المظلمة القاسية ، الرجوع اليها واستخلاص العبرة منها والتأمل في تبدل المفاهيم ، وتقلب بعض البشر ، وحتى العقائدين منهم .

كفاح على جبهتين

« كيف تريدون أن يبنى مجد

البلاد ، اذا لم يضح أمثالنا

بأنفسهم » •

« عدنان المالكي »

خاض المحامي السجين المعركة من وراء القضبان ضد الطغاة ولم ينهزم ، ولم يتراجع ، ولم تلن له قناة ، رغم السياط والتعذيب والعزلة ومنع الاتصال • ولكن كان عليه أيضا أن يخوض صراعا من نوع آخر ، مع عدو خفي له أسلحته الخاصة وطرقه العجيبة في محاولة قهر الانسان والفتك به وافنائه •

انه المرض يدهم الجسم البشري ويتسلل الى أعق خلاياه حتى يجعله خاضعا لمشيئته ، وواقعا تحت رحمته •

ومقاومة السجين كانت في البداية ضد عدو واحد وعلى جبهة واحدة ، وأصبح عليه الآن أن يقاوم عدوين وعلى جبهتين اثنتين :
الطغيان والمرضى •

والحقيقة ان السجين دخل السجن وهو يحل معه أعراض مرض

غامض ، كانت تتابه آلامه الخفيفة ، بشكل وخزة في الجانب الايسر من البطن . وقد راجع عددا من الاطباء لم يتبينوا حقيقة العلة وان كان الطبيب الدكتور ايلي نعمان قد شخص العلة بأنها التهاب الزائدة الدودية ، وأعطى مريضه علاجاً مضاداً للحوية ونصحه بأن يجري عملية جراحية لاستئصال هذه الزائدة حذر أن يتكرر التهابها وفي ظروف غير مناسبة ، كالسفر ، وكان يتأهب لدخول أحد المستشفيات ، عندما اختطفته أيدي الذئاب وزجت به في هذا السجن الاسود . وهو عندما دخل السجن ، أثر عدم التحدث عن مرضه وعن نصح طبيبه له باجراء العملية ، لانه لم يرد الظهور بظهور الضعف . وقد تجلد وتحمل كل ما تحمله من أذى وعذاب ، دون أن يتحدث ولو تلميحا عن حالته الصحية التي تستدعي المعالجة . وكانت الآلام تختفي ، لتعود وتنتاب المريض في فترات متقطعة .



ويسفي أكثر من شهرين على وجوده في السجن ، ويبدأ الالم بالاشتداد ، فيشكو المريض أمره آتئذ الى الرقيب الاول عزة حسين الذي عاد لممارسة وظيفته كمدير للسجن ، بعد أن أعادوا الملازمين اللذين تعاقبا على الادارة الى قطعتيهما .

ويأتي طبيب السجن لمعاينة المريض ، وهو ضابط احتياط مدعو لاداء خدمة العلم ، وبحكم قلة تجربة هذا الطبيب المتخرج حديثا من كلية الطب ، يلتبس عليه أمر المرض ويشخص العلة بأنها ليست الا (قولنجات كلوية) ربما تكون ناتجة عن البرد ، ويذهب ليرفع تقريراً بنتيجة معاينته وتشخيصه ، ولا يعود .. ويأتي بعده زميل آخر له ، ليس أكثر من السابق تجربة ، ولكنه كثير التعجرف ، وقد عانى المريض من مناورات هذا الطبيب المتعجرف عتاً شديداً . وقد

جاءه ، ذات يوم ، يصف له علاجاً بشرط أن يدفع ثمنه ، فوافق على ذلك بأمل أن يتم له الشفاء بواسطته . ولكن الطبيب غاب مدة أسبوعين دون أن يصف الدواء ، ثم عاد مرة ثانية ليبيدي ذات الاقتراح وكانت أعراض المرض بدأت تظهر على جسم المريض ووجهه بصورة أوضح ، وكانت نوبات الألم أخذت تتكرر صباح كل يوم ، وتشتد بشكل كان يقعد المريض عن الحركة فترة تطول يوماً بعد يوم . واستعمل المريض العلاج الذي اشتراه ولم يشعر معه بأي تحسن في حالته .

وبعد لأي والحاح شديدين ، وكان قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر على وجود المريض في السجن ، وافقت إدارة السجن ، بعد إذن الرؤساء طبعا ، على اقتراح طبيب جديد ، كان انساناً طيباً للغاية ، وهو الدكتور وحيد الشربجي من أهالي كفرسوسة القريبة من دمشق ، بنقل المريض الى المستشفى لا للعلاج ، بل لعرضه على لجنة من الأطباء لأجراء معانيته .



كانت اللجنة مؤلفة من عدد من الأطباء العسكريين المحترفين وأحد الأطباء المتعاقدين ، وهو الدكتور رشدي التيمسي من أهالي فلسطين ، وطبيب جراح أرمني الأصل كان يعمل في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت ، وهو مدعو لاداء خدمة العلم الالزامية .

كان الدكتور تيمسي انساناً رحيماً وطيباً قديراً ، يقارب الستين من عمره ، وهو حتماً صاحب تجربة واسعة بعد ممارسته الطويلة لمهنته ، وقد لاحظ منذ الوهلة الاولى ، وبعد الضغط بأصابع يديه على جدار بطن المريض وثني رجله اليمنى ، أن الأعراض الظاهرة هي أعراض الزائدة الدودية ، وشاركه في الرأي الطبيب الجراح . وكان

يمكن على ضوء هذا التشخيص معالجة المرض • ولكن في المستشفى العسكري عامة ، وفي العهد الديكتاتوري خاصة ، الكلمة ليست للسدنيين أو لمن يؤدون خدمة العلم ، بل هي للرؤساء الاعلون ، وعلى الاخص للمقررين منهم من السلطات المتحكمة •

وكان أحد هؤلاء الرؤساء طبيبا مختصا بأمراض المسالك البولية ، وهو مشهور بمداهنته الحكام في كل العهود • فقد خالف هذا الطبيب رأي زملائه ، وأكد بصيغة الجزم أن المرض هو من اختصاصه هو ، وأعطى المريض علاجا ليستعمله في السجن ، بانتظار النتيجة • ولم يكن المريض من العلاج أية فائدة ، بل كانت الآلام تشتد ولا يرى المريض طريقة لوضع حد لها ، ولا يجد الى جانبه أحدا يواسيه في مرضه سوى زميله في الغرفة الذي كان يتألم كثيرا لآلمه ، ولكنه لا يملك وسيلة للتخفيف عن المريض سوى الصلاة والدعاء • ويتناوب طبيبا السجن العمل ، أحدهما يأتي بلطف وكأنه ملاك الرحمة ، والثاني يدخل بعجرفته المعهودة وكأنه شيطان العذاب • وكانت زيارتهما تحصل على الارجح في وقت اشتداد المرض ، الذي أضحت نوباته لا تطاق ، وكانت تجعل الجسم يلتوي ليطبق الصدر على الفخذين ، ولا يستطيع المريض خلالها الجلوس أو القيام • فأخذوا أمام هذه الحالة الصعبة ، يعطونه وفي محبسه حقنا مخدرة لتسكين الآلام ، وكانت تساعد على تخفيف حداثها دون أن تقضي على أسباب العلة وأساس المرض ، بل على العكس كانت الحالة تزداد سوءا بعد سوء • وأصبح المريض لا يقدر على تناول طعام السجن المؤلف على الاغلب من برغل وعدس وحمص وفول ، فصار يرمي بالاطباق في وجوه السجنائين • وكان واضحا أنه اذا ظل على هذه الحال فلن يلبث مرضه أن يستفحل ، وربما أدى الامر من حيث النهاية الى نتائج مدمرة لصحته ومهلكة لحياته •

★ ★ ★

فكر المريض في الامر ، ووجد أنه لا يملك الا سلاحا واحدا ، فعليه ان أراد حسم المشكلة وحل الازمة التي هو واقع فيها ، أن يستعمله وبدون وجل ، وآلى على نفسه أن لا يدعمهم يستيحيون حياته بشكل رخيص ؛ فاما حياة حرة أو موت شريف •

لقد سبق له أن استعمل هذا السلاح قبل هذه المرة عندما وجه رسالته الاولى الى ادارة السجن لفك الحصار عنه ، ولو مؤقتا ، بانزاله الى المستشفى ، وقد نبوا طلبه ، بشكل جزئي ، عندما أخذوه لاجراء المعاينة والتحليل الضرورية ، ثم أعادوه وفي نفس اليوم ليقبع في غرفته الكائنة في أقصى السجن •

فليجرب هذا السلاح مرة أخرى ولكن بلهجة أشد ، وليوجه رسالة ثانية عن طريق مدير السجن ؛ وبعد أن ينعته بأنه عبد مأجور ولا يعفيه من مسؤولية حجز حريته ، يطلب اليه أن يبلغ رؤسائه اصرار السجين على طلبه السماح لطبيبه الخاص لمعاينته داخل السجن وعلى ثقته لعدم ثقته بالاطباء العسكريين ، ويؤكد في ختام رسالته ان عيادة طبيبه الخاص له في سجنه ، لن تشكل خطرا على عهد العبودية والهمجية •



لم يكدم مدير السجن يرفع الرسالة الى رؤسائه ، حتى يأتي ، في صباح اليوم التالي ، قائد فسوج الشرطة العسكرية ، وهو الذي كان اعتدى بذاته على السجين أثناء استجوابه في اليوم الاول من اعتقاله • وتوجه الضابط الى غرفة السجين بنفسه ، وبعد التحية والسؤال التقليدي عن الصحة ، دعاه للخروج معه الى باحة السجن ؛ وهناك أخذ يقرعه على لهجة رسالته. فأجابه السجين ، أنه مريض وأنه لا يطلب من السلطة سوى السماح

لطبيبه بعيادته ومعالجته في سجنه ، وأن العلاج حق لكل مريض ، وأنه لن يدهمهم يسمتونه ببطء ، وأنه سوف يستمر في تحديهم وفي فضح جريمتهم البربرية هذه . فما كان من ضابط الشرطة العسكرية إلا أن أخذ يرغي ويزبد ويهدد ويتوعد .

ولم ينصرف ، حتى جاء بعده الرقيب الاول مدير السجن ، والدمعة تترقق في عينيه ، معلنا أسفه لأنه مضطر لتنفيذ الاوامر رغم صعوبة ذلك على نفسه ، ولكن ما حيلته هو اذا كان المريض نفسه لم يشفق على نفسه وجنى عليها بتهجمه على السلطات في رسالته .

وكانت العقوبة التي فرضها « الضابط الباسل والمواطن الانسان » ، بحق السجين المريض ، هي نقله الى زنزانة (أبو ريحة) ، وهي أسوأ زنزانات السجن على الاطلاق ، يوضع فيها عادة أغنى الاشقياء لاختضاعهم واذلالهم .

لم يأبه السجين لهذه المعاملة القذرة ، بل رحب بالاجراء وعزى نفسه بالحكمة القائلة بأن « الفرج يأتي بعد الضيق » .

ومن ظلام الزنزانة التي ألقوه فيها وحرموه حتى من حقه في حصتي التنفس الصباحية والمسائية ، هرب السجين الى أهله رسالة يعلمهم فيها بالامر ، ويطلب ابلاغ النبأ الى زميله وصديقه الاستاذ عبد الرحمن المارديني ، لاثارة الموضوع في أوساط المحامين وتقاباتهم ، ووجه رسالة الى زميل آخر كان جاراً له في مكتبه ، ليبلغ أخاه مدير المستشفى العسكري أن رسالة الطبيب تقوم على اسعاف المرضى ولو كانوا أسرى وحتى لو كانوا من صفوف الاعداء ، وأن مسيرته مع زملائه الاطباء العسكريين لعهد الطغيان ليست مما يشرفهم .

وتضامن الضابط المعتقل مع أخيه المريض ، واحتج لدى ادارة السجن طالبا نقله هو أيضا الى زنزانة مماثلة لزنزانة أخيه ، كما أعلن اضرابه عن الطعام ، حتى يكف الطغاة عن هذه الطريقة البربرية المخزية في معاملة انسان مريض يحتاج للعلاج السريعه •

وكان شهر رمضان قد حل يوم دخول المريض الزنزانة ، فبدأ صيامه كأحسن ما يكون الصيام ، خاصة وأن معظم الاطعمة التي كانت تقدم له لم تكن مما يتلاءم مع حالته الصحية •

★ ★ ★

بدأ المريض يعاني من تدهور خطير في صحته • وبالنظر لسوء التغذية ، واحتجاب الشمس ، وفساد جو الزنزانة الضيقة الرطبة ، أصيب السجين بالتهاب خطير في لثته وبدأ الدم ينزف منها بغزارة ، وقد كلفه ذلك خسارة أسنانه كلها في المستقبل غير البعيد ، فصار يعالجه ممرض السجن العريف كمال عبد الحيد ، وهو من أصل شركسي أيضا ، وكان مثالا للانسان الحر الشريف ، الذي يؤدي واجب الوظيفة بأمانة ، ولكنه لا ينسى القيام بواجبه كانسان نحو أخيه الانسان •

وتشتد لهجة الاحتجاج من قبل المحامين الشرفاء ، ويتزعم الحملة على الطغيان تقيب المحامين الاسبق الاستاذ فؤاد التتضمناني (١) •

(١) نص مذكرة الاحتجاج :

بواسطة نقابة المحامين

حضرة الزعيم أديب الشيشكلي

دمشق

الحرية من صنع الطبيعة اقترتها شريعة السماء قبل شريعة الارض والدفاع عنها حق من حقوقنا ولد يوم مولد المحاماة . ولقد

←

وتضطرب الحالة في السجن ، ويتألم مديره لحالة السجين الذي تدهورت حالته الصحية وبدأت تضعه على حافة الخطر ، فيضغط



رددتم في خطبكم وبياناتكم المذاعة على العالم كلمة الحرية أكثر من أية كلمة سواها : ولما كان قد مضى على توقيف زملائنا المحامين ومنهم الاستاذ رياض المالكي عضو مجلس النقابة نيف وخمسة أشهر بدون اتهام ولا محاكمة ولا دفاع مما يخالف نصوص الدستور والمعاهدات والالتزامات الدولية ومنها شرعة حقوق الانسان وسائر القوانين التي كفلت للأدبيين حريتهم وحرمت حجزها عن غير طريق القضاء .

ولما كنا نعتقد والعقيدة تهز الجبال بأن رجال الحكم في الامم الديمقراطية لا يعفون من الاخذ بأصول العدالة لانهم والمواطنون سواسية كأسنان المشط وبأن لا قيمة لجميع تلك النصوص ان لم يرعها المسؤولون من اعماق قلوبهم وصميم وجدانهم .

لذلك نرجو أن تأمروا بالافراج عن المحامين المعتقلين حتى لا تبقى القلوب مجروحة الى الابد وليطمئن الناس على أن في البلاد شرائع وقوانين تحمي الارواح والحريات والعقائد . والعدل عدل عند كل جنس وفي كل نفس وقد ولدتنا امهاتنا أحرارا .

دمشق في ٨ حزيران ١٩٥٣

الاساتذة المحامون بدمشق :

فؤاد القضماني	عبد العظيم باجقني	علي بوظو
رزق الله أنطاكي	مصطفى البرقدار	موفق نصري
عدنان القوتلي	سيف الدين المأمون	خليل شمشيح
اليان الشوري	اسعد المحاسني	مصطفى الحواسلي
عزت الساطي	تقولا نقش	عبد الرحمن المارديني
بهجت الكيالي	أنطون وردة	مظهر الشرجي
زكي الخطيب	عبد الله موصلي	مظهر قطننا
مأمون الكزبري	ابراهيم البطل	نصوح المملوك
مختار العجلاني	داود التكريتي	نصوح الغفري
محمد المبارك	ظافر القاسمي	لطفي اليافي
هاني البيطار	شفيق سليمان	صباح الركابي



على رؤسائه بأن يحققوا له أحد أمرين : اعفائه من مهنته ، أو انقاذ المريض الذي بات مهددا بالموت • فيصدر أمر السلطات ، بعد قرابة شهر بالموافقة على نقل المريض الى المستشفى ، ولكن مع التشديد بضرورة استمرار عزله عن سائر البشر •

★ ★ ★



فوزي عبد الحميد	زهير العظيمة	بديع اللولو
فؤاد الخياط	مصطفى أمين	حمدي عنتاوي
عدنان المجرش	سعيد الحكيم	احسان حباب
رشيد الساطي	عمر الفرا	حسين الكنفاني
سعيد الزعبي	مختار الخياط	حكمت البيطار
علي المسكي	عصام المملوك	تاج الدين الجندي
عبد قنات	صفوح الصواف	فريد أرسلانيان
حيدر القضماني	خالد الحلبي	أحمد حيدر
عادل صدقي	نجاه قصاب حسن	حسين عبد الدين
رزق الله نفش	عادل قزيها	نوري المهاني
ربيع الصلح	حامد ناجي	محمد الخطيب
حنبل الشطي	زهير الشلق	زهير الميداني
راتب كركتلي	صبحي الحصني	عطا البكري
رشاد العيسى	يوسف سياج	أحمد اسماعيل
راتب القضماني	عبد اللطيف حمزاوي	مظهر العنبري
جورج زريقات	عادل تلولو	أسعد الطباع
فيصل العظيمة	حسن الاغا	خالد القوتلي
هلال الفرزلي	خليل جبري	تديم المالكلي
ملك كباره	عبد الوهاب محفوظ	فؤاد صنيح
عبد الحكيم مراد	عدنان السمان	محمد أمين
موفق المهاني	عطا الله درويش	نور الدين الحبال
عبد الهادي النحاس	سليمان سليمان	غيث الامام
مساعد القدسي	عرفان سلوم	منير باكير

وفي مستشفى المزة العسكري ، وفي الجناح المخصص للسجناء ،
والمفروضة عليه حراسة مشددة ، يضعونه لوحده في مهجع واسع
كبير ، فيه قرابة عشرين سريرا ، ويخلون من كان فيها من المرضى
والسجناء بنقلهم الى السجن •

وتبدأ في اليوم التالي سلسلة من الفحوصات تجري تحت
اشراف اللجنة الطبية ذاتها ، ولكن الكلمة ، كالعادة ليست للاطباء
المدنيين ، بل للاطباء العسكريين ، وكان أحدهم الطبيب الاخصائي
بأمراض المسالك البولية ، ويبدو أن بعض افرازات تلك المسالك لوثت
ضمير هذا الرجل فأفسدته ، لان أسلوبه في معاملة المريض فاق حدود
التصور ، وربما تجاوز أساليب الجلادين في خطره وأثره على صحته •
وكان ذلك الطبيب في سلوكه الملتوي يتغني مرضاة السلطان ، غير
عابئ بواجبه الانساني ؛ فقد ظل على رفضه لتشخيص زملائه الاطباء ،
وانطلق في جميع اجراءاته من فكرة ثابتة ، وهي أن المرض هو في
الكلية اليمنى وأن العلة ليست في الامعاء •

ورغم احتجاج هؤلاء الاطباء وعدم موافقتهم اياه على رأيه ،
أخضع المريض لسلسلة من الفحوص المعقدة التي لا يحسن القيام
بها •

وكان هذا النطاسي عائدا من فرنسا بعد بعثة علمية أوفد للاطلاع
خلالها على أحدث تطورات الطب ، وآخر منتجات المصانع من
الاجهزة الطبية • وقد عاد حاملا معه بعضا من هذه الاجهزة الدقيقة
التي لا يتقن استعمالها ، في فرنسا ذاتها ، الا عدد محدود جدا من
الاطباء الكبار •

فليجعل اذن من مريضه حقل اختبار لتجربة هذه الاجهزة ،

خاصة وأن المريض واقع في الاسر ، ومعزول عن الناس ، وليس من حوله من يستطيع التدخل أو اسداء أي رأي •

الصورة الشعاعية العادية ، في نظر الطبيب ، غير كافية لانها جاءت سلبية ولا بد من مادة ظليلة تزرق في الوريد لتسري في الدم وتصل الى الكليتين ، وتظهر ما قد يكون مختبئا فيهما من مكنونات • وتزرق المادة في الجسم المتهدم بفعل المرض الطويل ، وسوء التغذية في السجن ، وينبعث في الجسم كله لهيب وكأنه نار جهنم • يكابر المريض ويحاول كتم الالم الحاد الذي اتاب جسسه كله ، والذي كان أشد من لسع الشياطين ، ولكن الطبيب الحاذق لا تخفى عليه حقيقة ما يجري في داخل الجسم الملتهب ، فيضحك ملء شذقيه ، ويسم على المريض الذي بين يديه بأن هذه المادة محرم استعمالها ، ولكنه استعمالها الآن خدمة للمريض نفسه •

وتؤخذ الصورة الشعاعية على الفور ، لتظهر سلامة الكليتين وخلوهما من أية شائبة ، ولكن الطبيب يشته به وجود ظل خفيف في الكلية اليمنى ، ولا يصدق أو لا يريد أن يصدق ما كشفته الصورة الشعاعية من حقيقة سلامة الكليتين • فيعود ليخمن أن قد يكون هناك حصوة في المثانة ، أو في مجرى البول ، ويصمم بينه وبين نفسه ، وبمعزل تام عن رقابة سائر الاطباء ، على اجراء تجربة جديدة ، لا بل على ارتكاب حماقة لا تغتفر •

قرر الطبيب « العالم » اجراء عملية تنظير ، فخدر المريض تخديرا جزئيا بزرق ابرة المخدر في أسفل العمود الفقري ، وأولج في مجرى البول ميلا مجوفا رقيقا ، ولما اصطدم الميل بجدار الخوض ، أدخل فيه سلكا معدنيا وصار يدفعه على امتداد المجرى البولي ، ولكن السلك انحرف عن المجرى الطبيعي وبدأ يدخل في الجسم ،

وقد أحس المريض بذلك ونبه الطبيب الى خطئه ، دون أن يبالي •
وصار يعزو تعثر سير الميل الى المادة الصلبة المتكونة في الحالب والتي
كانت بنظره هي مصدر العلة والالام ؛ ويستعمل المنظار الكهربائي
المكبر بعد سحب السلك ولكن دون أن يرى شيئا • فيقرر تقل
المريض وبالحالة التي هو عليها ، والمخدر لا يعطل الا حواس نصفه
الادنى ، والميل داخل بعض الشيء في مجرى البول ، والدم يسيل
من جوانبه ، الى الغرفة التي فيها جهاز الاشعة • يحمل المريض على
المحفة ، ويسرون به عبر الممرات ، يأخذونه الى غرفة التصوير
الشعاعي • ويطلب الطبيب من زميله القائم على ادارة جهاز التصوير
أن تكون الصورة الجديدة ظلية أيضا ، ويزرقون عبر الميل المجوف
حقنة من مادة ملونة كان لهيها شديدا ولكن ليست كالاولى • ويولج
السلك المعدني داخل الميل من جديد لينساب فيه بسهولة أولا ثم
ينحرف في داخل الجسم • وقد استغرقت هذه الحفلة من أولها الى
آخرها قرابة أربع ساعات ، كان المريض خلالها يرى ما يدور حوله
ويشعر بما يجري داخل جسده من تمزق ، وهو مسلم أمره الى
ذلك الطبيب كما يسلم الخروف رقبتة الى الجزار •

وجاءت الصورة لتكشف عن الجريمة المرتكبة ، وهي ليست
خلو الكليتين والمثانة والحالب من أي جسم غريب فقط ، بل انحراف
الميل عن المسلك الطبيعي ، وتوغل السلك داخل الجسم عبر الانسجة
والاعشية مسافة غير قصيرة •

ويعلن الطبيب وتبجح كبير أمام زملائه أعضاء اللجنة الطبية
بعد دعوتهم ، ان هذا السجين غير مريض ، وقد أظهرت الفحوصات
البارعة التي أجراها له خلو جهازه البولي وكليتيه من أي مرض •
وينقل المريض مؤقتا الى سريره في المهجع الفارغ تمهيدا لاعادته الى

السجن ؛ ولكن لم يمرض الا قليل وقت حتى كانت حرارة جسمه أخذت ترتفع ارتفاعا ملحوظا ، وبدأت تظهر عليه أعراض الحمى • وقد حدث ذلك بفعل النطاسي البارع وما أدخله في جسم مريضه من مواد غريبة ، وما أحدثه في داخل أعضائه من جراح ، وما قد يكون تسلل مع أجهزته « المعقمة » من جراثيم •

وتستمر درجة الحرارة في الارتفاع حتى تبلغ الواحدة والاربعين وتدوم حالة الحمى أربعة أيام ، يعطى المريض خلالها حقنا كثيرة من مضادات الحيوية ، ويسنعه عنه أي طعام ويغذى بالامصال السائلة عبر ابرة تزرق في الوريد وتنساب من فوق رأسه من قوارير كبيرة كانت تعلق عاليا جانب السرير •



ولا تزول أعراض الحمى والالتهاب عن المريض الا ويكون قد أصبح أشبه بهيكل عظمي ، وتشدد نوبات الالم مع ضعف مقاومة الجسم • وتجتمع لجنة الاطباء ، وتتداول بحالة المريض الغريبة ، ويؤكد طبيب الامراض الداخلية ، الرجل الرحيم ، الدكتور تيسي وجهة نظره ، ويقترح اجراء العملية لاستئصال الزائدة الدودية التي هي مصدر كل هذه الاعراض الغامضة والآلام المبرحة ، ويشرح وجهة وجهة نظره بأن التهاب الزائدة يكون على شكلين : حاد وترتفع معه درجة الحرارة ويزداد عدد الكريات البيض في الدم ، ومزمن وهو يؤدي الى تضخم الزائدة واحتقانها وضغطها على الامعاء وجدار البطن من جهة اليمين وعلى الحالب والساق اليمنى ، دون أن يؤدي ذلك الى ارتفاع في درجة الحرارة أو الى اختلال كبير في عدد كريات الدم الحمراء والبيضاء ، وانه يرجح أن يكون المريض مصابا بهذه الحالة من المرض • ولكن رئيس اللجنة الطبية الضابط لا يوافق على

هذا الرأي ويرفض فكرة اجراء العملية بالصورة التي اقترحها الطبيب المدني ، وينفض اجتماع اللجنة الطبية دون الوصول الى رأي حاسم .



يأتي في اليوم التالي ضابط منتدب من ادارة المستشفى ليضع المريض أمام اختيار من نوع عجيب • يبلغه أن الاطباء ينفون وجود حالة المرض وأنهم لا يجدون تفسيراً لما يشكوه المريض من آلام ، ولذلك فعليه أن يختار اما العودة الى السجن ، أو الموافقة على اجراء فتح استقصائي في بطنه ، عل ذلك يساعدهم على التعرف على حقيقة المرض الذي تشك ادارة المستشفى والسلطات العسكرية بوجوده أصلاً •

كان المريض هو الذي يعاني آلام علته التي بدأت تتنابه منذ أكثر من ستة أشهر ، وحتى قبل دخوله السجن ، والتي أضحت الحياة معها لا تحتل وأصبح بعدها الجسم في حالة خطر ، وزادت في ضعف مقاومته الاساليب الملتوية التي اتبعها الطبيب البولي في الفحوص المحرمة والدامية التي أجراها له وسببت له ذاك الالتهاب الشديد •

ولا يتردد المريض اطلاقاً في اختيار الحل الثاني ، فيسلمه الموظف الاداري ورقة ليكتب تعهداً بتحمل مسؤولية وتناج العملية . ويسطر المريض كلمات التعهد مع طلب السماح لاهله لرؤيته قبل العملية الجراحية التي أرجأوا اجراءها بضعة أيام ، دون أن يدري سبباً لذلك • وقد تبين له فيما بعد أن السلطات العسكرية كانت تعد له ولاخيه ولزملائه اجراءات قضائية من بعد توقف عن التحقيق الاولي دام ستة أشهر ؛ ذلك أن تلك السلطات كانت أعدت

مشروع دستور لاقراره باستفتاء شعبي ، يصوت الشعب معه على
انتخاب الزعيم الشيشكلي رئيسا للجمهورية •

★ ★ ★

رافق وضع مشروع الدستور افراج السلطات عن سائر المعتقلين
السياسيين • ولكن الرئيس الجديد كان يخشى على كرسي الرئاسة
من الاهتزاز ، اذا ما أفرج عن العسكريين المعتقلين ، خاصة وان
بينهم ضابطا له القدرة الفائقة على تعبئة وتجميع القوى البشرية ،
وان خطر اطلاق سراحه قائم بالرغم من تسريحه هو وزملائه من
الخدمة اثر اعتقالهم •

اذن فلتحرك النيابة العامة العسكرية الدعوى الجزائية بحق
هؤلاء جميعا ومعهم المحامي طويل اللسان ، ويكلف قاض مدني متدب
للعمل في مديرية العدلية العسكرية بالتحقيق مع المدعى عليهم •

وتقضي مصلحة التحقيق بأن لا يستدعي المحقق المدعى عليهم اليه،
كي لا يراهم أحد في الذهاب والاياب ، بل يذهب هو اليهم للتحقيق
معهم في زناناتهم • ويأتي دور المدعى عليه المريض ، فيسعى اليه
قاضي التحقيق وهو في المستشفى ، ويدخل مع مساعده القضائي الى
المهجع الكبير ويلقى المريض على سريريه •

كان القاضي زميلا للمريض طيلة ثلاث سنوات أيام الدراسة في
معهد الحقوق العربي في الجامعة السورية • فيقبل على تحيته بحرارة،
ويبدأ بالسؤال عن صحته العالية ، مبديا أسفه لان يراه في هذه الحالة،
فيشكر المريض رفيق الدراسة على عواطفه المعسولة •

وبعدها يأخذ القاضي من يد المساعد العدلي ، اضبارة فيها كدسة
أوراق يفتحها ويقلب أوراقها ، ويأخذ وضعية الجد ، ويقول للمريض

انه آسف لأن يجد نفسه مضطرا لمباشرة أعباء مهنته ، وهي التحقيق معه في قضية ذات شأن •

فيرحب المريض بذلك ، ولكنه قبل الشروع بالاستجواب ، يسأل القاضي اذا كان الامر يتعلق بجرم مشهود أم غير مشهود • فيجيب القاضي : « ان الدعوى العامة حركت بصدد جرم غير مشهود »

فيضع المريض القاضي أمام مسؤولياته بقوله : « اني سأعرض عليك حالة جريمة مشهودة أطلب اليك تحريك الدعوى العامة بصددها والمباشرة بالتحقيق فيها فورا ، كما تسليه عليك أحكام القانون » • فيستغرب القاضي هذه المفاجأة ، ويسأل عن حقيقة الجريمة ونوعها • فيطلعه المريض على أنه محجوز الحرية منذ قرابة ستة أشهر وبشكل مخالف لأحكام القانون ، وأنه لذلك يطلب منه تحريك الدعوى العامة بحق جميع أولئك الذين ساهموا في احتجازه ، بدءا من هذا السجان المسلح الواقف على باب المجمع الكبير ، و انتهاء بالديكتاتور المتحكم بمقدرات شعبه •

يتغير لون القاضي ، ويزم شفثيه ، ويغمز زميل الدراسة باحدى عينيه ، مثيرا الى المساعد الذي يجلس بجانبه ، وكأنه يريد أن يحذر من احتمال نقل الحوار الى دوائر الشعبة الثانية « المخابرات » فيسأله السجين : « لماذا تغمز بعينك ؟ لا تخش هذا المساعد ، انه ليس بجاسوس ، بل هو انسان حر شريف ، وأنا أعرفه تماما ومن قبلك • وعليك أنت أن تؤدي واجبك ، ولا تحسن الا حساب ضميرك » •

يعتذر القاضي قائلا انه مكلف من قبل السلطات بالتحقيق في القضية التي بين يديه ، فيقاطعه المريض قائلا : « ان القاضي الشريف

لا يخضع لتكليف أحد ، بل انما يخضع فقط لاوامر القانون ونوايه،
وما عليه الآن الا أن ينفذ ما يأمره به القانون في مثل هذه الحالة » •
ولكن القاضي يصر على استجواب السجين في القضية التي يحمل
أوراقها فقط من دون النظر في غيرها ، فيرفض السجين الاجابة عن
أي سؤال يوجه اليه •

ويكتفي القاضي بتدوين رفض المدعى عليه الجواب عن سؤاله
الوحيد حول ما يسند اليه في الدعوى من جرائم محاولة اغتصاب
السلطة العسكرية ، والقيام بأعمال ارهابية ، وانتقاد أعمال القيادة^(١)،

(١) نص محضر التحقيق * :

ضبط رقم / ٩ /

اتجهنا بتاريخ ١٩٥٣/٦/٨ الى مستشفى المزة العسكري حيث
كان المدعى عليه رياض المالكي الموقوف قيد التداوي وباشرنا باستجوابه
كما يلي :

اسمي رياض بن شمس الدين المالكي من أهالي دمشق عمري
٣٠ سنة محامي غير محكوم سابقاً أعزب متعلم سوري •

استناداً لاحكام البند الثالث من المادة ٦٩ من أصول المحاكمات
الجزائية اقرر استجواب المدعى عليه بدون محامي •

س : يسند اليك جرم محاولة اغتصاب سلطة عسكرية والمؤامرة على
ارتكاب أعمال ارهابية وانتقاد أعمال القيادة فما هي أقوالك بذلك ؟

ج : انني في حالة توقيف غير مشروع تخولني ملء الحق وفقاً لاحكام
الدستور والقانون بأن أرفض الاجابة عن أي سؤال يوجه الي من اية
جهة أو سلطة كانت •

١٩٥٣/٦/٨

تليت عليه افادته هذه فأيدها بتوقيعه

قاضي التحقيق
(توقيع)

المدعى عليه

توقيع المساعد

رفض المدعى عليه التوقيع وعليه أوقع

قاضي التحقيق (توقيع)

* ملحق رقم (٥) •

ويعتذر عن تدوين طلبات السجن المتعلقة بالافراج عنه فوراً ،
وتحريك الدعوى العامة بحق من احتجزوه طيلة المدة السابقة ، بدون
مذكرة توقيف قضائية ، وخلافاً لاحكام القانون ؛ وحجة القاضي في
ذاك الاعتذار أن هذه الامور كلها خارجة عن نطاق المهمة المكلف بها ،
وعن حدود الدعوى المحركة من قبل النيابة العامة •

ويرفض المدعى عليه التوقيع على ضبط الاستجواب ، احتجاجاً
على سلوك القاضي وتهربه من أداء واجبه القانوني ، وقلة أماته في
تدوين أقوال المدعى عليه حرفياً كما ترد في افادته •

ولا يحجم عن وصف القاضي بالجبن وبأنه خرج عن كونه
قاضياً لمجرد أن أخضع نفسه لاوامر السلطة التنفيذية وأنه بذلك
أصبح تابعاً لها • ويتسامح القاضي بعدم تدوين هذا الكلام في
محضر الضبط ، ويللم أوراقه بسرعة ويخرج من المجمع الكبير ،
حائفاً ممتقع اللون ، ولا يقرىء زميله السلام لدى الفراق ، في حين
أن المساعد القضائي الشهم وكان مساعداً أول في سلك الدرك ومنتدباً
للعمل في القضاء العسكري واسمه السيد محمد بصله ، وهو من
أهالي ناحية التل القريبة من دمشق والتابعة لمنطقة دوما ، يشد على
يد المريض النحيلة مشجعاً وينظر إليه نظرة فيها علائم التقدير •

ولا تمضي لحظات ، الا ويدخل السجن حارس المجمع بلهفة ،
ويسأل المريض عن سبب اغضابه القاضي ، ولا يكتف من مخاطبه ما
سعه من الرجل الساهر على تحقيق العدالة وحماية حقوق الناس
وحررياتهم وكراماتهم ، من أوامر مشددة بأن لا يتساهل هو وزملاؤه
السجانون مع هذا المجرم الخطير •

★ ★ ★

ويمضي على الاستجواب أكثر من عشرين يوما أجريت خلالها العملية الجراحية للمريض، أتاها بعدها عريف من السجن يحمل معه مذكرة توقيف صادرة عن قاضي التحقيق نفسه • ولكن السجن لاحظ أن مذكرة التوقيف تحمل في ذيلها شرحا يفيد كون التوقيف (شاملا ٢٦/١٢/١٩٥٢) وكان هذا يعني في نظره أن القاضي يسلم بشرعية حجز حريته طيلة المدة السابقة • فيمثل الموقوف الشرح المدون خلف إحدى قسيمي المذكرة والمتضمن صيغة اقرار باستلام نسخة عنها ، ويذيل العبارة السابقة بعبارة أخرى تفيد رفضه تبليغ المذكرة لانها « صادرة بصورة مخالفة للقانون والاصول تعرض القاضي مصدرها للشكوى من الحكام » ، ويوقع تحت هذه العبارة •

★ ★ ★

لم يلب طلب المريض السماح لافراد أسرته بزيارته قبل اجراء العملية الجراحية ، وكان قد مضى قرابة ستة أشهر على اختطافه عندما كان بهم ، صباح ذات يوم ، بالخروج من داره •

تولى اجراء العملية الجراح الارمني القدير ، ولكن حسب توجيهات اللجنة المسيرة من قبل الطبيب العسكري ذي الرتبة العالية، العملية ، كما صدر الامر العسكري باجرائها ، هي عملية فتح البطن الاستقصائي •

ومن بعد تهيئة المريض للدخول الى غرفة العمليات ، بزرقه حقنة في الوريد ، أخذوه مخفورا تحت الحراسة الى تلك الغرفة ، وعلى طاولة العمليات وتحت المصباح الكهربائي المبهر ، ومن بعد وضع كمامة المخدر على فمه ، بدأ الخدر يسري في عروقه حتى غرق في سبات عميق • لم يعد يشعر معه بشيء مما يجري حوله •

مضت ساعات طويلة ، لا يدري عددها في حساب الزمن ، بدأ يصحو بعدها على مشهد المجمع الكبير الخالي ، والاسرة الفارغة من حوله ، والسجان واقف في المسر الطويل يرقب سجينه المريض ، وهو ممدد على السرير ، يتطلع اليه من خلال القضبان الحديدية المتشابكة ضمن اطارات الشبايك ، وممرضة يلفها البياض ، تغدو وتعود ، لترقب حالة المريض الذي بدأ يستعيد وعيه تدريجيا ، وهو في حالة تقيؤ وهذيان من فعل المخدر . انه لم يكن يعي ما يقول ، ولكن الممرضة والسجان ذكرا له فيما بعد أن ما فاه به كان يسكن أن يودي به الى الهاوية فيما لو التقطته آذان عملاء الشعبة الثانية . وطبعاً لم يكن المواطنان البسيطان يعرفان حقيقة ما جرى مع المريض في السجن ، وأن ما صدر عنه في اللحظة هناك وهو بكامل وعيه وارادته، هو أخطر بكثير مما تفوه به هنا ، وهو في حالة الغيبوبة والغثيان .



وفي اليوم التالي ، يأتي الجراح ، ويحضر معه القطعة التي اقتطعها من جوف المريض ، ومن طرف أمعائه ، وقد وضعها في زجاجة مملوءة بالكحول . انها لم تكن سوى الزائدة الدودية . ويصرح الجراح بأنه لم ير مثيلاً لها خلال ممارسته مهنته . كانت طويلة ومعقوفة ومتضخمة ومحتقنة بالدم الاسود الفاسد وبالقئح الذي حالت دون انتشاره حقن المضادات للحوية الذي سبق للمريض وأن استعملها . ويذكر الطبيب أن الزائدة بشكلها الموصوف وبالتفافيا حول الامعاء التي كانت في حالة التصاق شديد ، كانت هي مصدر تلك الآلام المبرحة التي ظل المريض يعاني منها تلك الاشهر الطويلة ، وأنه لولا اجراء العملية أخيراً لربما أدى استفحال العلة الى أخطار

لا يقدر الانسان نتائجها ، خاصة وأن الجسم أضحى شديد الهزال وضعيف المقاومة •

كانت العملية ناجحة تماما بفضل الطبيب الجراح الذي كان بذل أقصى ما يستطيع لاقتناع اللجنة باجراء عملية استئصال الزائدة منذ اللحظة الاولى التي عاين فيها المريض قبل أشهر • وكان يمكن اجراء تلك العملية باحداث فتح بسيط في جدار البطن • ولكن جهل ونفاق الطبيب البولي ذي الرتبة العسكرية العليا وعناده وتدجيله ، عرضا المريض لما عاناه من عذاب مر وآلام شديدة ، مدة طويلة • ثم أجروا له هذه العملية بأن بقروا له بطنه من الصدر الى الفخذ ، لتطالعهم الزائدة التي أبت عنهجية الاطباء العسكريين التسليم برأي الاطباء المدنيين واقتراحهم باستئصالها منذ البداية ، ولم تكن العملية لتكلف آنئذ أكثر من نصف ساعة من الزمن ، واحداث فتحة صغيرة في البطن ، وانتزاع هذا الجزء الملتهب من الامعاء ، وهو مصدر العلة والالام • استغرقت عملية فتح البطن واغلاقه أكثر من ثلاث ساعات ، فقد المريض خلالها الكثير من دمه دون أن يفكروا بامداده بدم جديد عوضا عن الدم المفقود •

★ ★ ★

تزول آلام الزائدة وأعراضها فور اجراء العملية ، ويتحمل المريض آلام الجراحة ، وهي حتما أخف مسا عاناه من آلام السياط • ويلتئم الجرح ، وتفك عنه القطب العشرون ، ومع ذلك يبقى المريض في الجناح المخصص للسجناء في المستشفى ، وينتقل الى غرفة صغيرة كان فيها ضابط سجين يعالج من مرض صدرى • ويظل أمر منع الاتصال ساريا ، حتى أن أحد الاطباء العسكريين ، وهو من أقرباء المريض ، يمنع من زيارته ، وهو على سرير المرض •

وفي صباح أحد الايام يلحق المريض في يد السجناء عددا من جريدة « الفيحاء » الدمشقية يتضمن في الصحيفة الاولى عناوين بارزة تزف الى الشعب البشرى بأن الزعيم قد بر بوعده بوضع مشروع دستور جديد يعيد الى الشعب حرياته المسلوبة ، وكرامته المهذورة، مع اعداد العدة لاجراء انتخابات عامة لمجلس نيابي من بين أعضاء حركة التحرير ، وانتخاب رئيس للجمهورية من خلال استفتاء الشعب على مشروع الدستور •

فلم يدع السجن نزيل المستشفى العسكري الفرصة تفوته ، وأراد أن يعرب عن رأيه وشعوره حيال هذا الحدث العظيم ؛ فطلب من السجناء احضار ورقة وقلم له من ادارة المستشفى ، ووجه خطابا الى مدير العدلية العسكرية الذي كان التقى به في نفس اليوم في أحد مسرات المستشفى عندما أتى لزيارة أحد المرضى وشكا له من حالة العزلة التي أبقوه فيها أكثر من نصف سنة بسبب أمر منع الاتصال المخالف لاحكام القانون والاصول • وقد شجعه المدير اللبق على الكتابة له حول ما يشكو منه ، وسطر السجن رسالة ضمنها رأيه في ظروف اعلان الدستور الجديد وطالب فيها بما يعطيه اياه القانون من حق ، مناشدا مدير العدلية إعمال القانون ، ولا شيء سوى القانون •

★ ★ ★

أخذ السجناء الرسالة وسلمها الى ادارة المستشفى ، فقبه بعد قليل ضابط الادارة الرئيس حناوي ، ودخل على السجن الممدد على سرير المرض ، ينقل اليه نصيح مدير المستشفى العسكري بالعدول عن توجيه الرسالة بشكلها الحالي ، لما قد تسببه للادارة من متاعب وللمريض من اجراءات قد تنعكس على صحته التي لم تعد الى حالتها الطبيعية • ويصر المريض على ارسال الرسالة بالشكل الذي خطها

فيه ، طالبا الى الرئيس حناوي أن ينقل الى مدير المستشفى نصحه .
له بأن لا يتدخل في أمر لا يعنيه ، وأن يوجه عنايته واهتمامه لشؤون
مرضاه ، متوعدا في آن واحد بأنه اذا احجبت الادارة عن تحويل
الرسالة الى مرجعها ، فان السجين لن يعدم وسيلة أخرى لتوجيهها
الى ادارة القضاء العسكري وبشكل أشد ، ربما سيؤدي آنئذ
الى خلق المتاعب للادارة نفسها ، وان كان هو شخصيا ومع مرضه
مستعد لمجابهة اجراءات السلطة •

وتأخذ الرسالة طريقها الى المراجع العليا • وبعد أيام قلائق يفاجأ
المريض بزيارة والدته وشقيقه الاكبر له للاطمنان عن صحته ، بناء
على اذن وافقهم به قيادة الشرطة العسكرية في دارهم ، وكانت تلك
الزيارة هي الاولى والاخيرة التي سح لاهله بها طيلة فترة اعتقاله •

★ ★ ★

ان حياة المستشفى لم تكن لتخار من بعض الحوادث التي
تستحق التأمل والتفكير •

كان جناح السجن في المستشفى متاخما لاجنحة المرضى من
الجنود العاديين والمجندين • وكان السجين يلحظ الطريقة التي يعامل
بها هؤلاء • والحقيقة ، ان المعاملة لم تكن لاثقة كثيرا بيني الانسان •
وكانت تجري في بعض الاحيان أمور مؤسفة ومؤلمة ، تقع في المستشفى
دون أن تلقى الاهتمام الكافي من ادارته أو من ادارة الصحة العسكرية •
وكان ذلك ناتجا عن انصراف المدراء وكبار الاطباء العسكريين الى
مداينة الديكتاتور وزبائنته ، زمرة الضباط الصغار المقربين منه •

فهذا مجند تجرى له عملية جراحية ناجحة وينقل الى سريره ،
قبل أن يصحو من المخدر ؛ ولقطة المراقبة والسهر على انعاشه ، يقلت
الابواب المطاطي الموضوع في فيه لتأمين تنفسه ، فيقطع سيل الهواء

عن مجرى التنفس ويختنق المجند ، وينقلب الجسم النابض بالحياة الى جثة هامدة ، لا يلبث جنود المستشفى المناوبون أن ينقلوها على محفة ، ويضعوها في مستودع المشرحة ، ريثما يبلغ أهل المتوفى لزوم الحضور فوراً ، لاستلام جثمان ابنهم مع ورقة الدفن المحضرة سلفاً قبل حضورهم ، والموقعة من ادارة المستشفى وفيها الشهادة بأن المريض توفي من علته المرضية .

وذاك جندي محترف يشكو من ألم مبهم في أحشائه ، فيجرون له عملية استئصال القرحة المعدية ، ويقتطعون جزءاً كبيراً من معدته السلية ، يحمله أحد المساعدين المرضى بعد انتهاء العملية وانصراف الجراحين ليطوف به على المتتورين من نزلاء المستشفى ويطلعهم على عملية الذبح الجارية في المسلخ البشري .

★ ★ ★

وضحى ذات يوم ، يسمع في أرجاء المستشفى الكبير ، عويل أشبه بعويل ذئب جريح . انه صوت كتيب يمزق جو المستشفى الهادئ ويدخل الهلع الى النفوس ، فلا هو يشبه أنين المرضى ، وليس يحاكي صياح من كان يجري تعذيبهم في السجن . ويهرع الكثيرون من المرضى العسكريين من أسرتههم ومهاجمهم لاستطلاع الخبر ، كما يهرع معهم السجناء المناوب ، ليعود بعد قليل ، ويعلم السجناء المريض ، بأن صوت العويل صادر عن مجند يجري فحصه من قبل لجنة طبية تتولى دورياً فحص المجندين والتأكد من لياقتهم البدنية التي تساعدهم أو لا تساعدهم على أداء الخدمة العسكرية ، وأن (القلقة) استعملت مع ذاك المجند لحمله على الاعتراف بعدم وجود العلة التي كان يدعيها ، وهي الصمم . ولكن السجن لا يصدق هذه الرواية التي ظن أنها من نسج خيال الجندي السجناء .

وفي صباح اليوم التالي وعندما يطوف الاطباء لعيادة مرضاهم،

ويدخلون الى غرفة السجن المريض ، يسألهم عن حقيقة الرواية التي سمعها بالامس ولم يصدقها ، فلا ينفىها الاطباء ويسررون تصرف اللجنة الفاحصة بجلد المجند المعتل ، بأن كثيرا من المجندين يتمارضون، أو يدعون وجود علل وهمية في حواسهم ، فلا يجد الاطباء وسيلة أجدى من الفلقة والسياط ، هذا اذا لم تكف الصفعات بالايدي على وجوه المجندين لحبلهم على الاقرار بالحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ، التي هي رائد الاطباء العسكريين في المستشفى ، كما كانت رائد زملائهم المحققين العسكريين في غياهب السجن •

صورة حية من واقع هذا المجتمع البائس الذي تحاول العقلية العسكرية النهوض به ، بواسطة الجلد والسياط ، الى مراقبي العزة والسؤدد والنصر ، تقابلها صورة خفية كان السجن المريض يعرف بعض خفاياها ، وهي أن بعض هؤلاء الاطباء العسكريين لم يكونوا ليحجموا اطلاقا عن توقيع بيانات كاذبة لمساعدة بعض ذوي المحسوبيات والشفاعات على التخلص من خدمة العلم ، بحجة المرض العضال أو العلل الدائمة ، في حين أن هؤلاء المحظوظين من المكلفين بالخدمة الاجبارية ، كانوا أصحاء أشداء ، وكان المرض الوحيد كامنا في ضمائرهم • واني أعرف واحدا من أولئك المحظوظين السعداء ، وقد تخلص من خدمة العلم بحجة وجود كسر سابق في أحد قدميه • ولكن هذه العلة المقعدة عن أداء الواجب العسكري لم تحل دون قفزة عالية من صاحبها أوصلته ، وفي يوم غير بعيد ، الى مركز السلطة والحكم •



تحطم الاغلال

« الحكماء يفرضون آراءهم ببطء
لتبقى ، والطفافة يفرضون نفوذهم
بسرعة البرق ليزول » .
« هيجل »

في الحادي عشر من شهر تموز (يوليو) ١٩٥٣ اجتمع مجلس
الوزراء في دار الحكومة واطلع على نتائج الاستفتاء والانتخاب
الجاريين في اليوم السابق ، والتي قدمها اليه وزير الداخلية وتبين
أن مجموع الناخبين في جميع المراكز الانتخابية قد بلغ / ٩٩٥٤١٧ /
ناخبا ، وأن مجموع الناخبين الذين اشتركوا فعلا في الاستفتاء
والانتخاب قد بلغ / ٨٦٤٤٢٥ / ناخبا ، وان مجموع الاصوات التي
نالها المرشح للرئاسة الزعيم محمد أديب الشيشكلي قد بلغ
/ ٨٦١٩١٠ / ، وهو العدد الاكبر من الاصوات . لذلك قرر مجلس
الوزراء الاعلان عن :

أولا - أن الشعب السوري قد أقر مشروع الدستور المنشور
عليه بتاريخ ٢١ حزيران (يونيو) ١٩٥٣ فأصبح نافذا فور اعلان
هذا القرار .

ثانياً - ان الشعب السوري قد انتخب فخامة الزعيم محمد أديب الشيشكلي رئيساً للجمهورية (١) *

يا للفرحة الكبرى ، تملأ قلوب الاكثرية الساحقة من أبناء الشعب الذين بلغ عدد المقترعين منهم (٨٦٨٤ /٪) من مجموع عدد الناخبين ، كما بلغ عدد الذين أعطوا أصواتهم بالموافقة على الدستور وعلى انتخاب فخامة الرئيس ٩٩٧٠ /٪ من مجموع عدد المقترعين . وترفع معالم الزينة في جميع أنحاء الجمهورية وتعزف الموسيقى وتصدح الاذاعة بأناشيد الفرح والحبور ، وتطلق المدافع مؤذنة بهذا الحدث العظيم ، وترتج مع انفجار قذائفها أركان المستشفى العسكري ، ويبلغ مع دويها النبا الى مسامع السجين المريض ، فيدرك ، بينه وبين نفسه حقيقة الامر ، وسر اللعبة القذرة التي قام بها مزيفو ارادة الشعب ؛ فهو أدري بحقيقة هذا الشعب الذي هو صبور وقوي الاحتمال ، ولكنه لا يمكن أبدا أن ينحاز الى جانب الطغاة المستبدين . وقدر السجين أن هذا التزييف الفاضح لن يبدل من جوهر الامور شيئاً ؛ وسيبقى الديكتاتور المترئس وأجهزته الفاسدة في واد ، ويظل الشعب المغلوب على أمره في واد آخر ، ريشا ينفذ عن كاهله كابوس الظلم ورداء الذل ، ويهب في وجه الطغيان هبة واحدة ، ليحطه ويقضي عليه ، ويستعيد حريته وعزته وكرامته *

★ ★ ★

وتتضافر الظروف والعوامل بعدئذ لتسارس ضغطها على رئيس الجمهورية لحسم مشكلة الموقوفين الذين صدرت أخيراً بحقهم مذكرات التوقيف ، وبمفعول رجعي شامل مدة التوقيف الطويلة السابقة لصدورها . ويقع صاحب الفخامة في حيص بيص ، إذ أن

(١) قرار مجلس الوزراء رقم ٥٧٢ تاريخ ١١ تموز ١٩٥٣ منشور في الصحيفة /٣٣٧٥/ من الجريدة الرسمية لعام ١٩٥٣ .

الاخوين المدعى عليهما قد وقفا من قاضي التحقيق موقفا صلبا ،
فالضابط منيها رقص ، وهو في الزنازة ، الاجابة على أسئلة القاضي ،
مرجئا كلامه الى يوم المحاكمة التي اشترط سلفا أن تجري بصورة
علنية ، كما أن أخاه اتزعج المستشفى العسكري رفض الاجابة أيضا
لانه محجوز الحرية بصورة غير قانونية .

كان ولتعا أن المحاكمة لن تكون في صالح العهد الجديد ،
وبالرغم من أن قاضي التحقيق كان استعان برئيس وأعضاء لجنة
التحقيق العسكرية ، ويدون طلب من أحد ، ليشهدوا زورا وبهتاناً ،
وبعد حلف اليمين القانونية طيعا ، بأن ما من أحد من الموقوفين قد
جرى تعذيبه من قبلهم أو يطلعهم ، فان بصمات السياط على جسد
الالاخ الاصغر كانت أصدق من شهادات الزور التي نطقوا بها ، وكان
بواضحا أيضا أن المحاكمة العلنية اذا ما جرت وفق الدستور والقانون ،
فإنها ستكون محاكمة للديكتاتور المتوج ولزبانيته المجرمين . وترددت
في الأعماق أذني صاحب الفخامة العبارات التي ضمنها المحامي الموقوف
بذكرته حول عيوب وأخطاء الوضع الراهن والتي ختمها مرددا فيها
قول الشاعر :

لا تغتر بليال نام حارسها ولا بدولة فسق أنت فارسها
واحذر ليوث الوغى من أن تلامسها ان الافاعي وان لانت ملامسها
عند التقلب في أنيابها العطب

وكان المحامي قد حفظ هذه الايات أثناء فترة تدريبه ، اذ
كثيرا ما كان يرددها على مسامعه الاستاذ المحاسني الاب ، وقد نسي
المحامي في مذكرته ذكر الشطر الاوسط من تلك الايات .

يضاف الى ذلك أن من بين أعضاء الوزارة الجديدة الذين صار
اختيارهم من قبل الرئيس الجديد بعد انتخابه كان الدكتور أسعد
المحاسني الذي سمي وزير العدل . كان هذا الانسان وفيأ لزميله

المحامي الشاب الذي تدرب في مكتبه ، ومخلصا لشعبه ؛ فقد فاجأ الرئيس في أول اجتماع له معه ، بعد اسناد الوزارة اليه ، باثارة موضوع المعتقلين السياسيين الذين جرى تحريك الدعوى العامة بحقهم مؤخرا ، من دون سائر المعتقلين الآخرين الذين سبق الافراج عنهم لدى اعلان مشروع الدستور . وأراد الوزير العادل ، تدشين عهد وزارته ، بتبييض جدران السجون ، بانتظار اتخامها بالمعتقلين السياسيين مرة أخرى ، وبعد أشهر قليلة كان قد اضطر خلالها لترك الوزارة ، لان نزعته الحرة لم تطق العمل في ركاب الديكتاتورية ، وفي ظل الطغيان والارهاب .

ولكنه كان قد حقق ، قبل الاستقالة من الوزارة ، وفي الاسبوع الاول من اشغالها ، نجاحا مشرفا ، عندما أخرج باصراره وجرأته ، الرجل الظافر بكرسي الرئاسة وانتزع منه بتاريخ ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٥٣ مرسوما بالعفو عن الجرائم الواقعة على أمن الدولة الداخلي، والمرتبكة قبل تاريخ الاستفتاء والانتخاب ؛ فظفر بذلك الموقوفون في سجن المزة العسكري ، كما ظفر معهم السجين الموقوف في المستشفى ، بحريتهم ، وأفرج عنهم جميعا في ذات اليوم .

★ ★ ★

وقد جرت عندئذ اعادة المريض الى السجن حيث تمت هناك مراسم الافراج عن الموقوفين ، بحضور قاضي التحقيق الذي حمل بنفسه أمر العفو ، وذهب الى السجن ليزف البشرى الى من أصدر بالامس القريب قرارات توقيفهم ، ووقع مذكراتها بامضائه ، كما أصدر بعدها قرارا باتهامهم تهيدا لمحاكمتهم بسلسلة من الجرائم الجنائية، كما أمره بذلك الديكتاتور الساهر في مركز السلطة على كل شاردة وواردة ، والقادر على كل شيء .

وأقبل الموقوفون ، بعد جمعهم وتبليغهم قرار الافراج عنهم ، على زميلهم المريض يهنئونه بسلامة العودة وعلى شفائه من مرضه،

ولكنهم لاحظوا عند رؤيته سحابة من الشحوب الزائد تكسو وجهه الذي غارت فيه العيان ، وامسحت من شفتيه الابتسامة الدائمة التي لم تكن لتفارق محياه في السجن حتى في أشد حالات مرضه ، قبل نقله الى المستشفى ؛ وصوته الداوي المجلجل الذي كان يتجاوب مع أصداء صوت أخيه الضابط المنطلق من الزنازة المتاخمة لزنازته ، قد ضعفت قوته وانخفضت نبراته • ويسألونه عما حل به خلال فترة غيابه في المستشفى ، غير مخفين دهشتهم كيف أن الجلد والتعذيب والحبس الانفرادي والعزلة في الزنازة وسوء التغذية والمرض لم يفعلا به مثل ما فعلت المعالجة في المستشفى العسكري • وطبعا لم يخطر ببال أحد منهم أن يكون النطاسيون العسكريون قد حققوا بأجهزتهم العلمية الدقيقة ما عجز عنه الجلادون القساة ، بسياطهم الغليظة وضرباتهم الدامية ، فقد خرج السجن من المستشفى وكأنه هيكल عظمي أو شبح انسان •



يعود الاخوان الى البيت الابوي ليقبل عليهما الاهل والاصدقاء ، وأفواج المهنيين بسلامتهما والمؤيدين لسيرتهما ، والساخطين على ما فعلته أيدي المستبدين العابثين بأمن البلاد ومصلحة الشعب • ويخشى الحكام الطغاة من بؤادر هذا التحرك الجماهيري ، المنذر بأشد الاخطار ، فتعود رقابة رجال الشعبة الثانية كأشد ما تكون الرقابة •

ورغم ذلك يضاعف الضابط المسرح من نشاطه الثوري في سبيل تعبئة القوى الوطنية لاسقاط الديكتاتورية المجرمة ، بينما يعاني أخوه من وطأة المرض الساري في أوصاله ، والذي لاحت أعراضه بشكل وهن شديد في الصحة ، سببته الاساليب الشاذة التي اتبعت في

معالجته ، والتي أثرت على الكثير من وظائف جسمه ، وأورثته نحولا شديدا ♦



يمضي زمن غير قصير يخضع المريض خلاله لمعالجة طويلة على أيدي أطبائه ، ولم يكن بعد قد استعاد صحته ، عندما فوجيء ذات ليلة باردة في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٤ بالذئاب تداهم بيته مرة ثانية ، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لتخطفه من فراش مرضه ومن بين أهله ، وتذهب به سيارة الشرطة المدنية الى مدرسة الشرطة في شارع النصر حيث يلتقي بعدد من المحامين المعتقلين ، ثم ينتقلون جميعا الى سجن مخفر الشيخ حسن ، في حي الميدان ، حيث يوضع كل واحد منهم في زنزانة منفردة ♦ ولم يكد السجين يبدل ثيابه ويستلقي على أرض الزنزانة العارية حتى يفتح باب الزنزانة بغلظة ، ويطلب منه السجن الخروج فورا للاتحاق بركب المعتقلين الآخرين في طريقهم الى سجن المزة ♦

وفي السجن يوضع المعتقلون وعددهم تسعة في مهجع علوي واسع ، ولم يكد ينبجج نور الصباح ، حتى بدأت وفود المعتقلين تتوالى على السجن رهيب أفواجا أفواجا ، ومن سائر المحافظات السورية ، من الجزيرة والفرات ، من حلب واللاذقية ، من حمص وحماه ، من درعا والسويداء ، عدا المئات من أبناء دمشق ♦ لقد تحركت الجماهير بعزم وتصميم ، وطار صواب الرئيس المنتخب قبل ستة أشهر بنسبة ٩٩٧٠٪ من أصوات الناخبين ، أي بأجماع الشعب ، كما ادعت ذلك وقررت أجهزة التزييف ♦

فجاءت الاعتقالات الواسعة التي شملت معظم فئات الشعب ، المحامين والأطباء والصيادلة والمهندسين ، أساتذة الجامعة والمعلمين ،

العمال والفلاحين ، الطلاب والمثقفين ، قادة الاحزاب وكبار السياسيين ، جاءت لتكشف الستر عن حقيقة التأييد الجماهيري لسلطان الطغمة العسكرية المتحكمة بمقدرات الوطن وتنفذ تزيف ارادة الشعب ، وقد لجأ اليه الزبانية يوم الاستفتاء والانتخاب في محاولة منهم لتغطية افلاسهم السياسي والادبي *



ولم يكد يمضي من شهر شباط (فبراير) من ذلك العام ستة وعشرون يوما ، الا وكان عرش ذلك السلطان الزائف يتهاوى تحت وطأة غضبة الشعب ، وأمام أول صرخة ونداء يصدران عن اذاعة حلب الشهباء الاضافية بالاعلان عن تحطيم عهد الديكتاتورية العسكرية البائدة *

فما كان من الديكتاتور الباسل ، الا أن ولى الادبار حاملا معه ماخف حملة وغلا ثمنه ، ولم يبق في الساحة الا الضابطان الصغيران، قائد الفوج المدرع في القابون ، وقائد فوج الشرطة العسكرية ، اياهما ، يحاولان معا ورائة التركة المثقلة بالمخازي والآثام ، عن طريق السيطرة على بعض أنحاء العاصمة ، وعلى دار الاذاعة في محاولة منهما للوقوف في وجه التيار الشعبي الجارف *

ويلتحق بهما في معسكر القابون الذي يصبح مقرا لقيادتهما نفر من فلول حركة التحرير ، وعلى رأسهم يوسف مزاحم الذي كان جاييا لدى أمانة العاصمة ، وأضحى في عهد « الحرية » قطبا بارزا من أقطاب حركة التحرير * وتتفلق عبقرية هذا الدعي الحاقد على حرية شعبه عن فكرة أخذ عدد من الرهائن من بين المعتقلين في سجن المرة ، للضغط على رجال السياسة وأقطاب الاحزاب المجتمعين في المؤتمر الكبير الذي عقد يومئذ في حمص ، وللتهديد باعدام الرهائن

ان لم يتراجع المؤتمر عن مقرراته باعادة الحياة الدستورية الى البلاد،
وان لم يذعن مؤتمر الاحزاب والاقطاب لمشئة الضابطين الصغيرين
المتسردين على ارادة الشعب •

وبينما كان المعتقلون في سجن المزة ينتظرون على أحر من الجسر
فتح باب السجن الذي أطبق عليهم ، منذ قرابة شهر ، يدعو مدير
السجن الى غرفته خمسة من بين مئات المعتقلين ، وهم السادة أحمد
فؤاد القضايني ورزق الله الانطاكي ومحمد الجيرودي وسامي
الدروبي ورياض المالكي ويلغهم أمرا تلقاه من رؤسائه بارسال
المعتقلين الخمسة الى مبنى رئاسة الاركان العامة ، ويوهم المدير
هؤلاء السجناء بأن الغاية من الدعوة هي المفاوضة مع المسؤولين في
الاركان العامة للجيش السوري ، لحل الازمة السياسية الناتجة عن
فرار رئيس الجمهورية الشجاع •

ويوضع الجميع في سيارة مدرعة ، يستطيها جنود مدججون
بخوذهم الفولاذية وأسلحتهم الحربية الاوتوماتيكية ، وتتحدر الآلية
المدرعة في الطريق الاسفلتي الملتوي وشديد الانحدار • وعند السهل
المتاخم لهضبة السجن ، يتصدى جنود آخرون مدججون بالاسلحة
أيضا لقطع الطريق على المركبة ، ويشهرون مدافعهم المضادة للدروع
في مواجهة سائقها ، الذي يضطر للتوقف تحت التهديد باطلاق القذائف
المحرقة على مركبته بمن فيها •

ويؤمر الركاب بالنزول منها ، ويفاجأ الجنود المهاجمون بوجود
خمسة أشخاص مدنيين ، فيأني قائدهم وهما الرئيسان محمد ماجد
قبايني وفؤاد ملاطيه لي اللذان يتعرفان على بعض هؤلاء الاشخاص،
فيستغربان نزولهم من السجن في ذلك الظرف المشحون بالخطر •
وعندما يفهمان منهم وجهة سيرهم يحذرانهم من الوقوع في الفخ
المنصوب لهم ، ويحتجزان السيارة العسكرية المصفحة مع جنودها

المسلحين ، ضمن معسكر سرية التسليح المنضمة الى القوات الثائرة التي ما أن أعلنت عن حركتها الانقلابية من اذاعة الشال حتى أيدها معظم قطعات الجيش بأكثريتها الساحقة .

ويأمر الضابطان الحران الشجاعان أحد مساعديهما بالتوجه صعبة الاشخاص المدنيين الخمسة لايصالهم الى المدينة بواسطة شاحنة عسكرية ضخمة يحرسها بعض جنودهما البواسل . وتذهب بهم السيارة الشاحنة منطلقة بسرعة من المعسكر الى الطريق الموصل من كيوان الى حي المهاجرين عبر الحواكير الخضراء والبساتين الغناء . وينزل الاسرى المحررون ضيوفا على الطبيب الشرعي الدكتور سليم العطار ، وهو نسيب الاستاذ القضائي ، ومن هناك يتفرقون كل الى وجهته ، بعد أن نجوا جميعا من مخالب مجرم قاتل مجنون ، كان واقعا في تلك الحقبة الحالكة المضطربة تحت تأثير سياسي متطفل مأفون .

★ ★ ★

عاد كل منا الى داره ، بالرغم من التحذير الذي سعنناه من الضابطين الشجاعين الرئيس قباني والرئيس ملاطيه لي حول احتمال عودة القراصنة المتبردين لالقاء القبض علينا في بيوتنا .

وفعلا لم ينض على دخولي الدار بضعة دقائق ، الا ودعيت للكلام على الهاتف . وكان المتكلم مدير الشرطة والامن العام المقدم الجوي طلعة عبد القادر ، الذي عين يومئذ في هذا المنصب ، لان المدير السابق ، وهو السيد حمدي الصالح ، رفض قمع حركة الجباهير المحتشدة والمتظاهرة في شوارع المدينة ، فهو كقاض سابق ، وبحكم علمه وثقافته ، يدرك أن ليس من الحكمة في شيء أن يقف هو وقوات الامن الخاضعة له ، في طريق شعب حر أبي هب بكامله لاسترداد حريته وكرامته .

فقد انطلقت جماهير الشعب تؤيد ثورة الجيش في الشمال ،
وتقول كلمتها لاني زعامة الديكتاتور الهارب فحسب ، بل وفي عهد
التزييف والتلفيق الذي أقامه ، موهبا نفسه وأتباعه بأنه أضحي
عهدا دستوريا شرعا •

لقد اقتحم المتظاهرون مبنى المجلس النيابي ، وطرّدوا منه مثلي
عهد الطغيان الذين دنسوا بيت الشعب بعد انتخابات نيابية مزيفة
كان أكثر الناجحين فيها من أعضاء حركة التحرير ، ولم يكن قد
مضى على فرحتهم بدخول المجلس أكثر من نصف سنة •

وهاجم المتظاهرون منزل رئيس مجلس النواب الذي أعلن عن
تسميته رئيسا للجمهورية ، خلفا للرئيس الفار ، وعيلا بالدستور
الملفق الذي سقط أيضا وهو ابن أشهر معدودات • ولم ينج الرئيس
الخلف بجلده ، الا عندما أشفق المهاجمون على والدته المسنة التي
كانت تصيح في المهاجمين أن يتركوا لها ولدها حيا ، وأنها بالمقابل
ستنهائ عن مقاربة السياسة للابد •

أما وزراء العهد الاسود الذين كان بعضهم يملأ الدنيا قبل
أيام صياحا ، بأن قافلتهم تسير ، وتهديدا بأن من لا يعجبه الحال فما
عليه الا أن يتجه الى الصحراء ، فقد أفلت زمامهم بمجرد أن تخلى
عنهم رأس قافلتهم ، وذابوا أمام غضبة الجماهير ، كما تذوب أكوام
الملح أمام مياه السيل العرم •

واتجهت الجماهير بعد ذلك لتحاصر دار الاذاعة السورية في
دمشق ، وتطفيء بعزمها وارادتها ، أصوات الشؤم المنبثقة عبر المذياع ،
وكأنها نعيب البوم ، أو فحيح الافاعي ، تحاول بث سسومها في
صفوف الجماهير الغاضبة الثائرة على الطغيان والمصممة على ازالة
كل آثاره وذبوله •

★ ★ ★

لم يكن المقدم الجوي طلعة عبد القادر ، وهو صديق لي من أيام الدراسة ، بأقل من سلفه ادراكا لحقيقة الموقف . انه لم يأبه لاوامر القراصنة ، وقد صعب عليهم أن يروا تداعي البناء الذي شيده مع الديكتاتور بالظلم والارهاب والتدجيل والخداع ، فأرادوا بذل المحاولات ، ومواصلة الجهود لتدعيم البناء المتصدع وانقاذه من الانهيار التام ، ولو كلف الامر شعبهم الدماء والضحايا . ولكن ضباط الجيش الشرفاء لم ينصاعوا لاوامرهم ، كما أن المواطنين الاحرار لم يستجيبوا لنداءاتهم المتكررة المرسله عبر اذاعة دمشق .

بعد أن هنأني مدير الشرطة والامن العام على سلامتي ، دعاني للتوجه فورا لمقابلته . فأجبتة بأني واصل لتوي من السجن ، فاذا كان المراد اعادتي اليه ، فأنا بانتظار رجاله لمراقبتهم ، مرة ثالثة ، الى الاسر . فأكد لي أنه لا يريد اعتقالي ، وأنه فرح شخصا لظفري بحريتي ، وأنه يتصل بي الآن مستنجدا بشخصي لتهدة خواطر المتظاهرين ، والتخفيف من حدة الموقف المتفجر في المدينة كالبركان .

فأكدت له بدوري أن هذه ارادة الشعب ، ولن تقف عثرة في طريقها ، ولن تستطيع قوة أن تتغلب عليها ؛ فان أراد هو نفسه أن يخلص لقضية هذا الشعب ، فما عليه الا أن ينضم الى صفوف الاحرار من أبناء وطنه ، ويلتحق برفاقه الضباط الثائرين في وجه الديكتاتورية والطغيان .

فعاد الضابط الحر ليقسم بأنه لن يكون الا ، كما أعرفه سابقا ، عنصرا وطنيا ، وأنه لن ينحاز الى أعداء الشعب ، ولكن همه الآن هو اطفاء النار التي بدأت تتأجج في المدينة ، من خلال غضبة الجماهير . فطمأنته بأن الجماهير لا يمكن أن تخون نفسها وتخرّب ديارها ، وأنه اذا أراد فعلا حسم الازمة وقمع الفتنة ، فما عليه الا أن يوجه

خطابه ونصحه الى الضابطين الصغيرين المتسردين في وجه ثورة الشعب ، ليرجعا عن غيها ويعدوا الى السيل القويم •



لم تمض ساعات قلائل الا وكان كل شيء قد تم ، وفق ارادة الشعب الحر الشجاع ، وخلافا للمخطط الامبريالي الامريكي الذي اعتمد الطاغية أديب الشيشكلي ليحكم شعب هذا البلد المجاهد ، بالحديد والنار •

انقلبت الآية وسقط الديكتاتور وسقط معه عهد الطغيان والاجرام ، وتلاشت خلال ساعات جميع المؤسسات والاجهزة الضخمة الفارغة التي أوجدها بالخداع والتزوير : الدستور ، والمجلس التشريعي ، ومجلس الوزراء ، والمحكمة العليا ، البناء الكرتوني بكامله ، وقد دأبت الدعاية الشيطنة وأجهزة الاعلام الضخمة على تصويره للعالم بأنه صرح شعبي ديمقراطي شامخ ، وطيد ، دائم ، لا يقهر •

لقد انهار هذا البناء الكرتوني الهش الشفاف ، وتلاشت معه أحلام صاحبه وأعوانه ، وتبخرت بسرعة أصوات التأييد البالغة /٩٩٧٠/ بالمئة والتي زعم المزيّفون أن رئيسهم المفدى ودستوره الملقق فازا بها يوم الاستفتاء ، ولم يبق الى جانبهم الا نسبة تافهة ٣٠ بالمئة أو أقل ، وبالبحري لم يبق في الساحة الا شخصان اثنان، وهما الضابطان الصغيران ، ضابط فوج الشرطة العسكرية ، وضابط الفوج المدرع ، اللذين ما لبثا أن انهارا أيضا بعد ساعات من انهيار العهد الفاشي الذميم الدائر في فلك القوى الاستعمارية وزعيتها العظمى الولايات المتحدة الامريكية •



ولكن أنى للدول الاستعمارية أن تسلم بالهزيمة بهذه السهولة؟ وكيف يمكن أن تتخلى الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة الاستعمار الغربي والإمبريالية العالمية ، عن قلعة هي من أقوى قلاع الأمة العربية صلبة ، وعن بقعة كانت في نظرها بؤرة إشعاع وطني ، وتطلع قومي ، ونضال تحرري ؟

فلتحشد أمريكا وحلفاؤها اذن كل طاقاتها وجميع علاقاتها ، للانقضاض على الشعب الذي تغلب على الديكتاتورية المنحرفة المستبدة واعاد بناء الحياة الديمقراطية الى ربوع بلاده .
ولينشط جميع هؤلاء العملاء من جديد لانهاك الشعب ، واضعاف كلمته ، وعدم اعطائه الفرصة لبناء مجتمعه الديمقراطي ، وتدعيم قوته العسكرية التي ستولى ، بحزم وعزم ، الدود عن حياضه ، وصد كيد أعدائه ، والاستعداد بجدية وتصميم لتحرير الارض المغتصبة .

ان الطابور الخامس يعد عادة لمثل هذا الغرض ، فلتتحرك اذن عناصره على اختلاف مواقعها ومراكزها ، وبدون كلل ، لحرمان الشعب شره جهاده ، وللحيلولة دون تحقيق أهداف كفاحه ، ولتحطيم أي أمل من آماله .

★ ★ ★

ومن خلال المعركة مع الديكتاتورية ومن أعماق السجون ، انبثق أمل كبير ، سرعان ما اهتدى اليه الاحرار من أبناء هذا الشعب ، فأصبحت الانظار تنحو اليه وكأنه الشعلة المضيئة في ظلام الليل البهيم .

عرفه أترابه منذ صغره في الحي ، وفي المدرسة ، فوجدوا فيه طالبا مجدا مجتهدا .

عرفه أصدقاءه وزملاؤه فوجدوا فيه صديقا صادقا وفيما مخلصا .

عرفه جنوده فوجدوا فيه مقاتلا شجاعا ، لا يتردد في خوض
معارك جيشه وفي اقتحام المخاطر ومجابهة الموت بدون خوف أو
وجل •

عرفته الكلية العسكرية في بلده ، والمعاهد الحربية العليا في
ديار الغرب ، فوجد فيه مديروها والقائمون عليها نموذجا فذا لطالب
ناجح وضابط متفوق حتى على الضباط الكبار الاجانب ، ولقائد
يرجى منه خير عظيم ونفع كبير لوطنه وجيشه •

عرفته دوائر الاركان في قيادة جيشه فوجدت فيه قائدا يتحلى
بجميع الصفات التي تؤهله لكسب ثقة الجميع ، رؤسائه وزملائه
ومرؤوسيه ، وتمكنه من جمع الشمل ، وتوحيد الصف ، واعلاء كلمة
النظام والانضباط •

عرفته جدران السجون والمعتقلات في عهد الظلم والديكتاتورية
والظغيان ، فعرفت فيه مناضلا حرا شجاعا ، يرفض المهادنة أو المداينة
مع أعداء الحرية ، ولا يرضى عن حرية شعبه بديلا •

عرفه الاعداء ممثلين بسفاراتهم والملحقين العسكريين لديها ،
فعرفوا فيه مواطنا عفيفا ، صريحا جريئا ، يرفض باءاء الاغراءات على
اختلاف أشكالها ووجوهها الخلافة ، ويصارع الجميع بأن الوطن
هو فوق الجميع •

ان انسانا له مثل هذه الصفات والخصال كلها وأكثر ، جدير
بأن يلعب دورا ايجابيا حاسما في معارك جيشه وحياة شعبه ، وبأن
يشكل أملا جميلا من آمال هذا الشعب •

انه فارس متمرس شجاع ، خاض بعض معارك جيشه المتعددة،
فاتصر فيها ببسالة •

قاتل مرارا في الاراضي الفلسطينية ، في حرب عام ١٩٤٨ ،
وسجل انتصارات باهرة ، واختلط دمه بثرى الارض المقدسة •

أسهم مع شعبه في محاربة الديكتاتورية والظغيان ، ولم يكف
عن الكفاح حتى سقطت الديكتاتورية وزال عهد الظغيان ، وتحطمت
معهما خطط الامبريالية الامريكية •

وها هو قد عاد الى قواعد جيشه ، والى صفوف زملائه وطلابه،
وكله حماس واندفاع للتعاون معهم جميعا بقصد اعادة بناء هذا
الجيش والاستعداد لمعركة الثأر والتحرير •

ولكن للصهانية ثأرا كبيرا ضد هذا المقاتل الشجاع ؛ فقد أباد
من جنودهم المئات على روابي كعوش وعلى التل الذي سمي باسمه
« تل المالكي » •

كما أن للدولة العظمى ، أم الحرية والديمقراطية ، الولايات
المتحدة الامريكية ، ثأرا أكبر ضده ، وهو الذي شق عصا الطاعة في
وجه صنائعها الذين أغدقت عليهم وحركتهم واستخدمتهم ضد أمانتي
ومصالح شعبهم ، ضمن مخططها الهادف للسيطرة على هذه المنطقة،
ولسلب شعبها حريته وكرامته وثرواته وخيراته • وهو منذ عودته
الى الخدمة في جيش وطنه ، بعد اسقاط الديكتاتورية الخائنة ، لم
يكف عن المجاهرة في مجابهة التحدي الامبريالي وعن التصدي
لاحباط المؤامرات الاستعمارية وفضح المشاريع العدوانية ، كمشروع
الدفاع المشترك عن الشرق الاوسط ، ومشروع حلف بغداد ، بجرأة
وعلانية كان لهما الاثر الكبير في تعبئة صفوف العسكريين وجعل
أكثرتهم كتلة مترابطة مصممة على خوض المعركة الكبرى ضد قوى
البغي والعدوان •

وازاء الضغوط المتعددة والاغراء المتنوعة والمحاولات المتكررة

التي كان يبذلها معه الامبرياليون الامريكيون لثنيه عن خطته وعزمه
وصلابته ، لم يحجم عن أن يطلق في وجوههم صيحته المشهورة :
« لا •• لن تجعلوا من بلادنا غواتيسالا ثانية ، ولن تمروا الا على
أجسادنا » • فلتنشط اذن دوائر المخابرات الامريكية وحلفاؤها
وعملاؤها جميعهم ، وطابورها الخامس كله ، لاطفاء هذه الشعلة
المضيئة والقضاء على هذا الامل الكبير ، تمهيدا للقضاء على آمال
أكبر ، وأهداف أسمى ، نذر ذلك الفارس الشجاع نفسه وحرية
ودمه وحياته للاسهام مع شعبه في خوض المعارك الضارية لتحقيقها
أو الموت دونها •

جناية كبرى وطابور خامس

ان قعدتم عن اللعين فانتهم شركاء اللعين بالاثام

« ابن الرومي »

بعد ظهر يوم الخميس الواقع ٢١ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ يجري اتصال هاتفي بين دمشق وصيدا . كانت المتكلمة على الخط من الجانب اللبناني فتاة عالية الثقافة رفيعة التهذيب ، من آل الحجار ، وهم أسرة ذات محتد كريم ، ومسلك قويم ، يتصف جميع أفرادها بالوطنية والنبيل والاستقامة ، وكان أحوال الشابة من آل شهاب وهم أيضا أسرة مجد ووطنية وكفاح ، التحق مناضل من أفرادها بالثورة السورية وأبلى فيها أحسن بلاء ، وتعرض بسبب ذلك لعقوبة الاعداء، وتشرد في المنفى سنينا طويلا بعيدا عن وطنه وأهله ودياره وهو المجاهد الثائر السيد نسيب شهاب . كان المخاطب على الجهة الثانية من الخط ، خطيب المتكلمة ، وقد عقد قرانه عليها قبل أيام ولم يزف اليها بعد ، وهو ضابط كبير في الجيش السوري ، وطني مقدم ، يحصل في مؤخرة رأسه ندبة جرح بليغ أصيب به ، بسلاح الغدر الصهيوني في حرب عام ١٩٤٨ ويحصل على صدره عددا من شارات الاوسسة التي نال معظمها بسبب بسالته في القتال .

انه العقيد الركن المجاز عدنان المالكي ، رئيس الشعبة الثالثة في الاركان العامة للجيش السوري • انه واحد من أشهر ضباط جيشنا الاحرار • وقد تركزت عليه الاضواء ، بشكل خاص ، لانه استطاع باستقامته ووطنيته ، وحماسه ، واخلاصه ، وشجاعته ، وعلمه ، وثقافته ، ووفائه ، أن ينال ثقة الاكثرية الساحقة من العسكريين ، ضباطا ، وصف ضباط ، وجنودا ، فأصبح أملا كبيرا من آمال شعبنا وطد عزمه وكرس وقته وجهده لان يسير وأترابه وزملائه في طريق واحد ، طريق اعادة بناء الجيش الذي صدقته الانقلابات العسكرية ، وأنهكته الديكتاتوريات الفردية ، لينتقل بعد ذلك مع القوات المسلحة الى طريق آخر ، لابد من سلوكه لكل عسكري يعتزم أداء واجبه كاملا نحو وطنه ، خاصة اذا ما كانت أقدام الغزاة تظأ أرض هذا الوطن ، ألا وهو طريق الحرب والقتال ، الطريق الموصل وحده الى النصر ، فمن سقط فيه كان شهيدا ، ومن ظل على قيد الحياة وجبت عليه مواصلة السير فيه الى نهايته •

وكان بين الخطيبين السعيدين ، وهما في زهوة العمر يتألقان في شبابهما ، وكأنهما زهرتان من أزهار الربيع ، اتفاق على أن يلتقيا صباح اليوم التالي ، في صيدا ، المدينة اللبنانية الطبية المعطاءة ، التي يفوح من ياراتها أريج أزهار البرتقال والليمون • فالى اللقاء غدا في المدينة الوادعة الهادئة المطلة على شاطئ البحر الابيض الصافي الجميل •

★ ★ ★

ولكن أجهزة الرصد في وطننا العربي هي دائما بالمرصاد ، لكل وطني صادق ، ولكل انسان أمين ، ترصد حركاته ، وتحصي أنفاسه • وقد توصلت تلك الاجهزة على ما يظهر لمعرفة عزم الضابط الكبير على قضاء عطلة الاسبوعية خارج بلده وبعيدا عن مركز عمله المضني

الشاق ؛ فلم تكد تمضي فترة قصيرة من الوقت ، الا ويجري اتصال هاتفي ، من نوع آخر •

ويجب على الهاتف أحد أفراد أسرة الضابط ويسأل عن المتكلم ، فيأتي الجواب من الجهة الثانية من الخط الهاتفي : « السفارة المصرية يا افندم •• نريد التكلم مع رئيس الشعبة الثالثة » •

فيهرع الضابط السوري لتلقي المخابرة ، ويحسب أن هناك مسألة هامة ومستعجلة يريد المسؤولون في السفارة بحثها معه •

وبعد تبادل التحيات والاشواق ، يسأل المتكلم المصري مخاطبه السوري أين سيمضي عطلته الاسبوعية ، غدا الجمعة ؛ فيأتي الجواب : « في صيدا ان شاء الله ، وسأتوجه اليها صباحا باكرا ولن أعود الى دمشق الا في المساء » •

يعلق المتكلم بلهجة المصرية المحببة : « لا يا افندم ، ما يصحش تسافر بدري وتسيينا لوحدا ، وسيادتك عارف بأن فريق السواحل المصري سيلتقي غدا مع فريقكم العسكري في مباراة لكرة القدم ، تجري على أرض الملعب البلدي » •

ويجب الضابط السوري : « لكن يا باشا (وهذه كلمة اعتاد الضابط استعمالها لدى مخاطبة أي من زملائه أو أصدقائه) أنا عندي موعد مع خطيبتي ، وقد اتصلت بها لتوي ، واتفقت معها على اللقاء غدا في صيدا » •

ويأتي الرد سريعا : « معلش يا افندم ، انت حتلغي الموعد ، وحتلبي دعوتنا ، لانه ما يصحش تجري المباراة بين الفريقين العربيين وتكون سيادتك غايب • واحنا ما زلنا فاكرين حضورك مباراة فريقكم العسكري مع الفريق التركي ، وازاي ألهمت حماس الجمهور الدمشقي والفريق السوري • فلازم تعمل كده تاني في المباراة معنا » •

يحاول الضابط السوري الاعتذار ولكن دون جدوى ؛ وأمام
اصرار مخاطبه المصري ، يعد بحضور المباراة في اليوم التالي •

★ ★ ★

في صباح يوم الجمعة في ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ يتصل
الخطيب بخطيبته ، معذرا عن اضطراره لالغاء الموعد معها • وفي اليوم
نفسه يتوجه أفراد أسرته جميعا ، فيسا عداه هو ووالديه المسنين ، الى
منطقة الحة المتاخمة للاراضي الفلسطينية ، والمشهورة بياهاها
المعدنية • ويقضي الضابط سحابة النهار في داره ، حيث يستقبل بعض
زائريه ، وينكب بعد ذلك على دراسة أوراق كان أرسلها له من
سويسرا ضابط سوري مخلص ، تبين فيما بعد أنه الملازم الاول زياد
الحكيم ، وهي تشير الى التلاعب الخطير الجاري من قبل رئاسة
الاركان العامة في شراء بعض الاسلحة الفاسدة من معامل الاسلحة
السويسرية والفرنسية ، ومن مخلفات جيوش الحلفاء •

وفي تمام الساعة الرابعة والعشرين دقيقة ، وبينما كان أفراد
أسرة الضابط يجلسون على ضفة نهر اليرموك ، تنتشي صدورهم
بشذى رياحين الربيع ، وتكتحل عيونهم بنظر المياه الهادرة في الوادي
الضيق الجبيل ، وهضاب فلسطين وسورية والاردن تعانقه من كل
جانب وكأنها تخشى عليه من أن تستد اليه يد العدوان وتغتصب
الاراضي المحيطة به وتسلب منها مياهه ، اذا بالمحامي ، شقيق الضابط
ورفيقه في الصبا وفي المدرسة ، وفي السجن ، يشعر بانقباض شديد
في صدره ، ويطلب من أهله التأهب للعودة فورا الى دمشق • يحتاج
الجبيع بأن الوقت مازال مبكرا ، وأنهم يفضلون البقاء في مكانهم ،
ليستعوا بنظر غروب الشمس عن تلك البقعة الجبيلة المقدسة من
أرض وطنهم • ولكن الاخ يصر على العودة فورا لانه لم يعد يطيق
البقاء في هذا المكان ولا لحظة واحدة ، ودون أن يتسكن من تعليل
هذا الشعور الطارئ الغريب • ينهض أفراد الاسرة على مضض ،

ويأخذ الجميع طريق العودة بسيارتهم • ولكن لم تكد المركبة تبدأ في الصعود وبيطء شديد ، على الطريق الجبلية الملتوية والشديدة الانحدار ، حتى يوقفها حرس أحد المخافر الامامية ، ويأتي ضابط شاب برتبة ملازم ، ويهس في أذن المحامي بضرورة الاسراع بالعودة الى دمشق ، كما أبلغه ذلك قائد الجبهة الموجود حاليا في القنيطرة ، ودون أن يوضح السبب • ولدى الوصول الى مقر القيادة في القنيطرة يلتقي المحامي بقائد الجبهة العقيد نوفل شحم الذي كان ينتظره على باب مقر القيادة ، فيتلقى منه الخبر المذهل بأن أخاه أصيب بجراح بليغة بسبب اطلاق النار عليه في الملعب البلدي ، وأنه موجود حاليا في المستشفى العسكري • لقد ابلغ القائد شقيق زميله نصف الحقيقة، وأخفى عنه النصف الباقي والاكثر سوءا ، تفاديا لهول الصدمة •



وتسير السيارة منطلقة الى دمشق بسرعة فائقة ، ويدخل المحامي الى المستشفى راكضا بعد أن يبعث بباقي أفراد أسرته الى الدار • وفي إحدى قاعات المستشفى يشاهد جثمان أخيه مسجى ضمن نعش ملفوف بعلم بلاده ، وهو الراية التي كان الضابط الشهيد استلهاها، قبل تسع سنوات ، من يد رئيس جمهورية بلاده ، وأقسم على أن يحنيها بروحه ودمه ، وهو ذا قد بر بعهد ووفى بقسمه ، وهاهم بعض زملائه من رفاق دورته في الكلية العسكرية يقفون بألبستهم الرسمية ، وقفة استعداد شاهرين سيوفهم ، حول جثمان زميلهم الذي رافقوه في بعض ساحات القتال حيث قاتلوا معه بشجاعة فائقة، وجنبا الى جنب ، يوم خاض الجيش العربي السوري معاركه الباسلة ضد قوى العدوان الصهيوني عام ١٩٤٨ •

كانت برودة الموت تسيطر على كل من في القاعة وما فيها • ويبقى العلم الوطني مزهوا بالجسد الحار الجاثم بين طياته وتحت

ألوانه الزاهية ، والسيوف البيضاء مشرعة من فوق النعش ، تسك بها بحزم قبضات أصحابها الضباط الشرفاء ؛ وهي كانت على موعد لتعاقب بعضها بعد أيام قليلة ليمر من تحت قنطرتها المعدنية اللامعة موكب العروسين الشابين ، الضابط الشجاع وخطيبته المثقفة • ولكن واحسرتاه على تلك السيوف ، وعلى عيون أصحابها المستلثة غيظا وغضباً ! انها لن تفرح بذلك المشهد الموعود ، بل انها ستسضي في الغد لتشييع الفارس الشهيد الذي سيزف الى السماء ، حيث مثوى الصالحين والشهداء ، من دون عروسه الحزينة التي ستبقى على الارض لتعاني مما جنته يد الغدر والخيانة •

ألا ما أظلم الانسان لآخيه الانسان ! ••

ويستعرض الاخ المحامي ، بينه وبين نفسه ، الشريط النضالي الطويل لمسيرة شعبه ، ودرب الكفاح البطولي الذي سار عليه أخوه وقد سفكوا دمه بخسة ونذالة • ويتذكر أحداث الايام الاخيرة المتسارعة ، والمخابرة المشؤومة الواردة من السفارة المصرية ، والتي دفعت الامور في هذا المجرى الدامي الخطير ويقول : « لقد فعلتها الولايات المتحدة الاميركية اذن ، وتفذت تهديدها الذي أبلغته للضابط الشجاع والانسان الوطني قبل أيام قلائل زوجة الملحق العسكري الاميركي لدى سفارة الولايات المتحدة الاميركية في دمشق وبشكل نصح رقيق ، عندما أعلمته أن هناك خطراً يحدق بحياته ، وأنها ترى من مصلحته أن يغادر البلاد هو وعروسه • »

كانت دعوة صريحة للهرب من ساحة الكفاح الوطني • ولكن الابطال لا يهربون من معارك قومهم ، حذرا من الخطر ، وخشية من الموت •

هكذا تعلم عدنان من أبيه الصادق الأمين ؛ وهذا ما علمه البطل

الشهيد يوسف العظمة لجميع أبناء وطنه ، عندما قدم نفسه قربانا خالصا ، ومحا بدمه الطاهر الزكي ، عار الهزيمة التي جرها الخونة والمتخاذلون على أرضهم ، عندما داهمتها جحافل فرنسا بقيادة الجنرال غورو .

لقد صمم عدنان على البقاء في ساحة المعركة ، وكان عارفا سلفا أنه سيدفع حياته ثمنا لتصميمه وصوده .

وهاهم الخونة ، المتلبس بعضهم بلباس الصداقة والعقيدة ، يستدرجونهم بخسة ومكر ، الى الملعب البلدي ، لا ليشهد المباراة الرياضية في كرة القدم ، ويزكي حماس جهور هواة هذه اللعبة المحببة لنفوس أبناء مدينته ، بل ليشهد الجمهور الكبير المحتشد في ذلك المكان الربح الفسيح ، مصرع الوطني الفيور على بلده ، والمتحمس لقضايا شعبه ، والمنفاني في خدمة وطنه ، وليعطوا المواطنين درسا علنيا في كيف تكون خاتمة الحماس والاندفاع في خدمة الوطن ، ويطفئوا بذلك الشعلة الوطنية المتأججة في نفوس المواطنين .

ألا بس ما بيته الخونة الجبناء ، وتبت يدا المعتدي الاثيم !

ويعود المحامي الى داره ، حزينا ، كبير الخاطر ، مشطور الفؤاد . وهناك يجد أبويه وأخواته ، والاهل والجيران والاصدقاء من حولهم ، في مشهد مفعج أليم . فيتجلد ويتحامل على نفسه ويقبل على الام الثكلى المتفجعة ، والاخوات المنتجات بعد أن يبعد الناس من حولهن ، ويشرع بتهدئتهن ، ولكنه لا ينجح في ذلك ، الا بعد أن يقسم لهن بأنه ذهب بنفسه الى المستشفى ووجد عدنانا حيا لم يمت ، ولم يكن ، في الحقيقة الا صادقا في قوله لان أخاه قد سقط شهيدا في ساحة الكفاح والواجب ، والشهيد في عقيدتنا وديننا حي خالد أبدا .

★ ★ ★

ويأتي يوم الغد ، وتسير الجنازة في موكب عسكري رسمي
وشعبي كبير يتقدمه رجال الدولة الرسيون ويحتشد فيه الالوف
من أبناء شعبنا الطيب المجاهد . ينتقل الموكب أولا بواسطة السيارات
من المستشفى العسكري في المزة الى مدخل سوق الحديدية في آخر
شارع النصر ، ثم يتابع القوم السير على الاقدام حتى المسجد الاموي ،
حيث يصلى على الجثمان الطاهر ، ثم يخرج المشيعون ، في مسيرة
مهيبة ، صامتة ، وراء النعش وحمله العالي ، ويبضي الموكب عبر
شوارع دمشق المستدة حتى يصل الى مدفن الاسرة في حي المهاجرين ،
بعد أن يمر الجبيع والنعش المحمول على عربة المدفع من أمام منزل
الشهيد ليلقي أهله عليه نظرة الوداع ، قبل أن يوارى الثرى .



يجري في القضية تحقيق قضائي ، بطيء ومتشعب ، يتناول
عددا كبيرا من أعضاء الحزب القومي السوري ، وقد أقدم فريق من
أعضائه الكبار ، على التخطيط للجريمة الخيانية وورطوا الاعضاء
الصغار بتنفيذها . ومن ثم تجري محاكمة علنية أمام محكمة عسكرية
خاصة ، وتشر وقائع جلسات المحاكمة في الصحف والاذاعة .

كان بود أهل الشهيد أن لا يحضروا المحاكمة مودعين فقيدهم
في ذمة الوطن وتاركين جريمة قتله في ذمة القضاء ، ولكن ضغط الرأي
العام وتطوع عدد كبير من المحامين السوريين واللبنانيين لتبني القضية
الكبرى العالقة أمام القضاء ، باعتبارها قضية وطنية ، لا قضية
شخصية ، حملني على الاقتناع بضرورة متابعة الدعوى ، بعد موافقة
والدي ، ذي الواحد والثمانين عاما ، والذي هدت الفاجعة قواه
الجسدية دون أن تؤثر على قدرته الفائقة على التمييز والمحاكمة .

كنت وأنا الاخ المفجوع بفقد أخيه أحرص على أن تثل جهة

الدفاع في الدعوى أشد من حرصي على تشيل جهة الادعاء الشخصي .
ولذلك فاني لم أعارض أبدا ولم أتبرم من تولي زملاء لي ، جلهم
من أصدقائي الشخصيين ، مهمة الدفاع عن المتهمين . وقد شجعت
بنفسي المحامي الجنائي الشهير الاستاذ هاني البيطار على القيام بهذا
الواجب المقدس ، عندما عرضت عليه وكالة بعض هؤلاء المتهمين .
أليست الغاية من الدعوى كلها ، اظهار الحقيقة واتباع طريق الحق
الذي كافح عدنان ومات من أجله ؟

ولذلك عندما عمد محامو جهة الدفاع اللبنانيون الى الانسحاب
من الدعوى ، في سياق حملة دعائية ضخمة تولت القيام بها الصحف
اللبنانية الموالية لخطهم واتجاههم السياسي ، في محاولة للضغط على
المحكمة ، سعت لدى نقابة المحامين وكان يتولى رئاستها آنئذ
المحامي الكبير الاستاذ ظافر القاسمي ، لعقد اجتماع مشترك مع
الزملاء اللبنانيين ، في مقر النقابة لبحث شكواهم . وفي ذلك الاجتماع
أبدت لهم استعدادي للتضامن معهم والانسحاب من المحاكمة مع
جميع وكلاء الادعاء الشخصي الكثيرين ، فيما اذا صحت أسباب
الشكوى . وبنتيجة المداولة ، عاد وكلاء الطرفين لمتابعة أداء واجبهم
أمام ذات المحكمة حتى نهاية المحاكمة ؛ وصدر الحكم في النتيجة
قاضيا بتجريم بعض المتهمين وادانتهم بالاشتراك في ارتكاب جريمة
الاغتيال وبتبرئة البعض الآخر ، كما أدين البعض بجرائم أخرى لها
صلة بنشاطات أعضاء الحزب القومي السوري ، الذين جنى عليهم
قادتهم ، يوم قلبوا الحزب من مدرسة سياسية لها عقيدتها ، وفكرها ،
ونشاطها السياسي العلني ، تعكسه صحفها ونشراتها ، الى وكر
للخيانة ، مسخر لخدمة مخططات الاستعمار الغربي والى عصابة
للاجرام ، ولت أيادي بعض أفرادها بدم انسان وطني كان يعلق عليه
وطنه وشعبه أعظم الآمال ، كل ذلك بتدبير وتحريض من رئيس

الحزب المجرم الفار جورج عبد المسيح ، الذي خان حزبه ، كما خان وطنه ، عندما أخذ على عاتقه هو وشركاؤه من أقطاب الحزب ، ومن الاغرار من قواعده تنفيذ جريمة كبرى ، لم يذهب ضحيتها أخبي الشهيد عدنان وحده ، بل كان من حصادها القضاء على الحزب الذي أولاهم زعامته وثقته ، وطعن البلد العربي الذي فتح للخائن عبد المسيح دياره ليقبله فيها لاجئاً سياسياً ، يوم فر من لبنان والتجأ الى سورية ، هرباً من حكم بالاعدام صادر بحقه عن إحدى المحاكم اللبنانية •

ان الاحكام التي تتابع صدورها ، بحق هذا المجرم الخطير والخائن الحقير ، لم تصدر عن القضاء اللبناني والسوري وحدهما ، بل ان هناك حكماً يعتبر أهم من تلك الاحكام جميعها ، هو الذي صدر ، عام ١٩٥٧ ، عن محكمة حزبية ، شكلها الحزب القومي السوري في لبنان ، فقضت بعد عقد جلساتها السرية ، بعيداً عن ضغط الرأي العام ، وعن حملات الدعاية الصحفية ، بادانة المجرم جورج عبد المسيح بتزعم العصاة التي أقدمت على ارتكاب جريمة اغتيال الرجل الوطني البطل الشهيد عدنان المالكي •

لم ترتكب الجريمة لصالح الحزب الذي خدع أعضاؤه بسراب السلطة ، وقد أوهموهم بأنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من أبوابها ، وان العقبة الكأداء والعثرة القوية في طريق وصولهم اليها ، هو شخص عدنان • بل اننا خططت الجريمة بدقة من قبل دوائر المخابرات الاستعمارية ، وقد هيأ الجو لارتكابها ، وفي وضح النهار ، خونة وعلاء كان بعضهم يحتل مركز السلطة أو القيادة العسكرية هنا في دمشق ، وكان البعض الآخر يحتل مكان الزعامة والصدارة في بعض الاقطار العربية •

والذلك سهل على زعيم العصاة وشركائه الكبار الهرب من

قبضة العدالة ، وقد تولت حمايتهم في لبنان ذاته ، حيث كانت تنتظر بعضهم أحكام جنائية قاسية ، صادرة عن القضاء اللبناني ذاته ، دول وسفارات من بينها من كان يرفرف على مبانها العلم العربي •



بعد انتهاء محاكمة القتلة أمام المحكمة العسكرية ، واثرا المرافعة التي ألقيتها وانتقدت فيها تصرفات القيادة العسكرية التي ساعدت على ارتكاب الجريمة الشنعاء ، زارني في داري الضابط السابق النقيب برهان أدهم ، وبعد أن عبر لي عن شعوره الخاص ازاء الحادث المفجع الذي أودى بحياة أخي ، روى لي طرفا مما كان يجري من تأمر في الخفاء ، وصرح بأن المتآمرين حاولوا استدراجه للاشتراك معهم في نشاطهم ، ظنا منهم بأن كونه من أنصار عهد الشيشكلي قد جعل منه عنصرا مواتورا ضد العهد الديسقاطي الذي نشأ في البلاد بعد سقوط الحكم الديكتاتوري السابق • وقال لي السيد أدهم أنه في سياق ذاك النشاط ، قد حضر الاجتماع الذي عقد في دار المقدم حسين الحكيم بحضور عدد من المتآمرين كان من بينهم بعض العسكريين ومن جملتهم المقدم غسان جديد ، وذكر أنه كان من المتفق عليه أن يحضر معهم رئيس الأركان العامة الزعيم (العبيد) شوكة شقير بنفسه ، وإن المجتمعين كانوا على اتصال به في داره أثناء الاجتماع • والطريف أن رئيس الأركان العامة كان أدلى بإفادته ، كشاهد أمام المحكمة العسكرية بعد أن حلف اليمين القانونية ، وذكر أن رئيس الشعبة الثانية كان أطلعه على نص المكالمة الهاتفية التي جرت بين دمشق وحمص ، والتي ورد فيها أن اجتماعا سيعقد في دمشق ، في دار السيد حسن الحكيم ، وأنه أصدر أمره إليه بأن تقوم مفرزة من رجال الشعبة الثانية بمراقبة دار السيد الحكيم ، وهو رئيس وزراء سابق معروف باتجاهه اليميني المحافظ والذي هو في

الحقيقة عنصر وطني صادق لا يرقى الى اخلاصه الشك ولا يسكن
أن يكون محل شبهة •

لقد استفاد الأمر الأعلى من الالتباس الحاصل بين الاسيين ،
حسن وحسين ، ليعبد أنظار الشعبة الثانية عن المكان الحقيقي الذي
سيعقد المتآمرون فيه اجتماعهم ؛ وربما كانت لمكالمة رئيس الشعبة
الثانية معه الاثر القاطع في عدم حضوره الاجتماع الموعد • فإذا
صحت الرواية التي رواها الضابط برهان أدھم ، ولا أظنه الا صادقا
فيها ، ألا يحق بعدها القول بأن « حاميتها كان حراميا » •

لقد كان عدنان يردد في سجنه وفي رسائله التي كان يبعث بها
من المعتقل الى والدته قول الشاعر الكبير الاستاذ عمر أبو ريشة :
لا يلام الذئب في عدوانه ان يك الراعي عدو الغنم



لقد نشأنا على خطة لم نحد عنها في كل مراحل حياتنا ، وهي
تقوم على مجاهرتنا بقول الحقيقة ، بكل صراحة ووضوح ، وبدون
خوف أو موارد ، نقول الحق ولو على أنفسنا ولا نخشى في ذلك
لومة لائم •

قلتها مرارا وتكرارا في وجه رئيس الاركان العامة ، ولا هدف
لي سوى اعلان الحقيقة • قلتها له يوم اغتيال عدنان بالذات ، عندما
أتى الى دارنا معزيا على رأس وفد كبير من كبار ضباط الجيش ،
ومن بينهم معاونه الزعيم توفيق نظام الدين ، قلتها له بحضورهم :

— أتدري من قتل عدنان ؟

وكانه أدرك أنني أعرف ما يجول في نفسه ، فلم يجر جوابا •
فتابعت كلامي قائلا : « انك أنت الذي قتلته بأساليبك ومناوراتك •

أنت تعلم أكثر من غيرك أن البلاد تخوض معركة من أخطر معاركها ضد أعدائها ، وأن مثل هذه المعركة تتطلب السير في طريق واحد ، طريق تعبئة جميع القوى والامكانيات لمجابهة أولئك الاعداء ؛ ولكنك اخترت أنت وفي جو المعركة الضارية التي يخوضها شعبنا طريق اللعب على الحبال وساهمت في تمزيق وحدة الصف في الجيش الذي يعده الشعب للقتال ، وكان من حصاد هذه اللعبة ، قتل عدنان • «

قلتها ثانية أثناء المحاكمة التي جرت أمام المحكمة العسكرية المشكلة لمحاكمة القتلة المجرمين •

قلتها مرة ثالثة في قضية الرشوة واختلاس أموال الجيش التي أحيل بسوجبها رئيس المحاسبة في الجيش المقدم أحمد قصيباتي الى المحكمة العرفية ، تلك القضية التي عبرت عن خطرها وبشاعتها الفقرة الاولى من مطالعة النيابة العامة العرفية وقد ورد فيها :

« في الفترة التي كان بها الجيش السوري أحوج ما يكون الى المؤازرة والدعم ، الى القوة والسلاح ، الى المال والرجال ، ليتسكن من مجابهة العدو الذي أخذ يتسلح ويتقوى بما يقدمه له الامريكان من سلاح ومال ، في هذه اللحظة العصيبة نرى فئة من الاشخاص أصحاب النفوس الضعيفة يتآمرون على الجيش بسرقة أمواله ، أمواله التي جمعها من فقراء الشعب • فكم من رجل لا يسلك سوى قوته اليومي تبرع به لجيشه الذي أخذ على عاتقه الدفاع عنه والذود عن حياضه ، وكم من امرأة ادخرت لايامها السوداء قطعة حلي لاتسلك غيرها تسرع والدمعة في عينيها فرحا تقدم ما ادخرته ، وكم من طفل حمل حافظة نقوده وقدمها هبة ليزيد من قوة جيشه •

لقد أخذت هذه الفئة على عاتقها اضعاف الجيش ماديا ومعنويا باختلاس أمواله بشتى الوسائل • • «

هذا ما استهل به مثل النيابة العامة كلامه في تلك القضية الخطيرة ؛ ولكن للنائب العام حدودا مرسومة لم يكن يستطيع تجاوزها أو الانطلاق بعيدا عن نطاقها المحدد في قرار الاتهام ، أو في أمر الملاحقة الصادر عن رئيس الاركان العامة ذاته . لذلك فقد حصر مطالبته بالمتهمين الواقفين في ققص الاتهام من دون غيرهم من الشركاء والمتدخلين •

ولكن اذا كان قلم النائب العام أسيرا مقيدا ، فان لسان المحامي وقلمه طليقان من أي قيد ، اذا كان هدفه الدفاع عن الحق المطلق والكشف عن الحقيقة المجردة • لذلك وبدافع من الحرص على تحقيق هذا الهدف ، سلطت الاضواء في تلك القضية على الدور المريب الذي لعبه ذاك المسؤول الاول في قيادة الجيش لطمس معالم الجرائم التي ارتكبتها المتهمون في سواد الظلام وكان رئيسهم مطلعا عليها ، وذلك في المذكرة التي اشتركت في اعدادها مع بعض الزملاء دفاعا عن المخبر الرئيسي في الدعوى ، وهو لبناني الاصل وايطالي الجنسية ، وهو الذي فضح جرائم المتهمين وأعلننا باشتراك رئيس الاركان العامة معهم في صفقاتهم وتلاعبهم •

كان لا بد من المجاهرة بهذه الحقيقة على الملأ ، لتطوى بعد ذلك من تاريخ الجيش السوري ، صحيفة سوداء قاتنة ، عندما نجي ذاك المسؤول الكبير عن مركزه الخطير الذي استغله لتسزيق وحدة جيشه ، وغرس بذور الانقسام بين ضباطه ، واثارة بعضهم ضد البعض الآخر ، في خطة خبيثة ترمي الى تحقيق أهداف العدو الذي يبنى استراتيجيته الكاملة على أساس انهالك العرب بخلافاتهم الداخلية واضعاف قدراتهم القتالية •

لقد جاء ذاك الرجل الى سورية بصفة مقاتل مهندس في جيش الانقاذ ، فأودعت اليه وفي غفلة من الشعب وعلى يد ديكتاتور خائن،

أعلى أمانة ، وهي قيادة جيشنا ، في أحلك ظرف تمر به الامة العربية؛
فخازن الامانة ، وكان بحد ذاته طابورا خامسا لعب دورا ستكشف
الايام عن أنه كان من الوسائل المباشرة التي مهدت بها دوائر المخابرات
المعادية السبيل لاضعاف قدرة جيشنا على القتال •

ولم يستغرب العالمون بحقيقة هذا الرجل المارق ، الخبر المذهل
الذي أذاعته وكالة الانباء الليبية بعد نكسة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ،
وفضحت بموجبه سفره الى العاصمة الايطالية للالتقاء بممثلين عن
دولة العصابات الصهيونية وبحث المراحل المقبلة لمخططهم العدواني
وسياستهم التوسعية الرامية الى اعادة تخطيط دول المنطقة واقامة
دويلات طائفية صغيرة تشكل حزام أمان لحماية كيان اسرائيل وأمنها
واستقرارها •

ولكن خسىء جميع المتآمرين في الظلام ، فان حلم الصهاينة
سيحطم على صخرة كفاح شعبنا ولن يكتب لدولتهم البقاء
والاستقرار ، وستفشل سياستهم وخططهم الرامية الى تمزيق سورية
الى دويلات طائفية • فقد كان لابناء الطوائف السورية شرف تحطيم
تلك الخطط ، وساهموا مع جماهير شعبنا الواسعة باحباط تلك
السياسة الاستعمارية الفاشلة أيام الاحتلال الفرنسي •

فكما حطم أبناء جيل العرب الاشم ببسالتهم ووطنيتهم ، حملات
الجيش الفرنسي الواحدة تلو الاخرى ، كذلك فعلوا بالنسبة للسياسة
التي فصلت محافظتهم الباسلة عن باقي أجزاء الوطن • وهكذا
سيفعلون وهم متحلون بابائهم العربي ، ووطنيتهم الصادقة ، بالنسبة
لكل مخطط يناهض أهدافهم القومية في الوحدة الشاملة والتحرر
الكامل •

ولن تشذ من حيث النتيجة عن هذا الخط الوطني أية

طائفة أو فئة من أبناء شعبنا ، وستبوء جميع المشاريع الاستعمارية
والخطط الصهيونية بالفشل الذريع •

★ ★ ★

تذكرت بعد حديث الضابط السيد برهان أدهم ، يوم أن زارني
في مكنتي صديق لي في أوائل عام ١٩٥٥ ، وأطلعني على الاثر السيء
الذي تركه تسريح المقدم غسان جديد من الجيش في الاوساط
السياسية موضحا أن النقمة في تلك الاوساط منصبة في الدرجة
الاولى على أخي عدنان الذي كانت تعزى اليه جميع الاجراءات التي
تقوم بها القيادة العسكرية • ولخلو ذهني من أية فكرة حول موضوع
تسريح الضابط الموما اليه ، لم أعلق على كلام صديقي بشيء • ولدى
العودة الى الدار اجتمعت بعدنان وسألته عن قصة ذلك الضابط
المسرح بعد أن ذكرت ما سمعت عن الضجة التي سببها تسريحه ،
فقال لي : « ان هذا الشخص حقير ولا يستحق أدنى اهتمام ، والضجة
التي تحدث عنها ليست الا مصطنعة ، وهي بالتأكيد ليست ناتجة عن
الغيرة على مصالح الجيش وقضايا الوطن ، بل انما هي جزء من التأمر
الجاري على الجيش والبلاد معا ، ولا تستغرب اذا قلت لك ان قرار
التسريح الصادر يستهدف التأمر علي أنا أكثر مما يستهدف وضع
هذا الضابط بالذات » • كان يحدثني بسرارة وألم واضحين ، وقد
أوضح لي كيف أن اضبارة الضابط عرضت على المجلس العسكري
الذي كان أخي عضوا فيه ، مع اقتراح بتسريحه نظرا لما كانت تعج
به مستندات تلك الاضبارة من ارتكابات وفضائح كان أقلها النصب
والاحتيال والاختلاس ناهيك عن النشاط التخريبي الذي كان يقوم
به بالتعاون مع بعض الفئات المتآمرة على سلامة البلاد • وقد أكد
لي أخي أنه كان معارضا لفكرة التسريح كل المعارضة لسببين : الاول
من حيث المبدأ ، لان أخي كان يرى في التسريح الكيفي سيفا ذا

حدين ، وقد سبق أن أصيب به هو وبعض زملائه من ضباط الجيش خلال عهد الشيشكلي ؛ والثاني لانه كان يرى سلفا أن تسريح الضابط جديد سيجعل منه ضحية في نظر الاوساط السياسية التي يهملها الاصطياد في الماء العكر ؛ وقد أكد لي أنه بنتيجة معارضته الشديدة لفكرة تسريح ذاك الضابط بالذات واصراره على أن القضاء وحده هو المرجع الوحيد لمحاسبة المواطنين ، مدنيين وعسكريين ، على أخطائهم ، جرى طي البحث من جدول الاعمال في تلك الجلسة ، وأن المفاجأة الكبرى بالنسبة له كانت لدى اطلاعه بعدئذ على قرار التسريح موقعا من كل من رئيس الجمهورية ووزير الدفاع ورئيس الاركان العامة .



ان تسريح الضابط غسان جديد من الجيش دون احالته الى القضاء كان في الواقع جزءا من مؤامرة كبرى ، حيكت في الظلام ، وكان الهدف منها القضاء على الجيش ووحدة ضباطه ، بازكاء نار الخلافات بينهم ، واعطاء الفرصة للقوى والعناصر المعادية للشعب ، بأن تلعب لعبتها وتمارس دورها في ضرب القوى والعناصر الوطنية وفي اضعاف قدرة الشعب على مجابهة الاخطار التي تهدد كيانه ومستقبله ، وتحول بينه وبين تحقيق أهدافه . وقد اتضحت لي بعد حادث الاغتيال المشؤوم بعض أبعاد تلك المؤامرة وادوار بعض عناصرها ، عندما روى لي السيد محمود صافي ، وكان يؤدي خدمته العسكرية سابقا تحت امره أخي ، تقلا عن عسكري مقرب من شخص رئيس الاركان العامة ، عن المقابلة التي أجراها وفد من قادة الحزب القومي السوري مع رئيس الاركان للاحتجاج ضد تسريح « ضابط فذ » وركن خطير من أركان حركتهم ؛ فقد اتصل رئيس الاركان من مسؤولية القرار الذي صدر مقترنا بتوقيعه الذاتي دون أن يفوته

طبعاً إحالة تلك المسؤولية على الضابط الذي كان بزعمه هو المسيطر في الجيش والقيادة ، وهو عدنان المالكي •

وبعد ذلك وعندما شرع بإجراء محاكمة القتلة ، اتضح بما لا يدع أي مجال للشك أن تسريح غسان جديد ، كان حلقة من حلقات مؤامرة الاغتيال ، وأنه كان الشرارة التي أولعوا بها النار في دماغ القاتل الاداة يونس عبد الرحيم ، وكان يبيعاً منذ أشهر لتنفيذ جريمة الاغتيال ، وكان الحافز القوي الذي حمله على الاقتناع بضرورة ارتكابها هو تسريح معتمد الحزب الذي كان القاتل مهووساً ببدائه •

وعندما سئل الشاهد رئيس الاركان العامة عن علاقة رئيس الشعبة الثالثة العقيد عدنان المالكي بتسريح المتهم غسان جديد ، نفى أن تكون له أدنى علاقة بهذا التسريح ، وعل صدقه في شهادته في هذه الناحية كان ناتجاً هذه المرة عن تذكره بأنه أقسم اليقين أمام المحكمة بأن يقول الحقيقة أو خوفه من افتضاح أمره بين أعضاء مجلس الدفاع، فجاء قوله الصادق هنا مخالفاً لما كان سمعه منه وفد القوميين السوريين لدى مراجعتهم له قبيل اقدام زمرة من حزبهم على ارتكاب جريمة الاغتيال •

★ ★ ★

وبعد صدور الاحكام بمدة ، جاءني السيد حسن حامي وهو شاب عامي ، يتحسس للقضايا الوطنية ، ولمن يعتقد فيهم الاخلاص لهذه القضايا ، طالباً رأيي في مسألة على غاية تامة من الاهمية والخطورة وهي تتعلق باستعداده لقتل المجرم الفار غسان جديد المحكوم عليه بالاعدام غيباً من قبل المحكمة العسكرية لتحريضه على جريمة اغتيال أخي • ولما سألته عن قصده من ذلك ، أجابني : « الثأر لدم رجل وطني قتل ظلماً وعدواناً » • فظننت بادئ الامر أن الزائر ، مع حسن

ظني به دائما ، يريد ارضائي بالكلام والعواطف • وقلت له : « ان هذا المجرم محكوم عليه بسوجب حكم قضائي ، وهناك مذكرة استرداد صادرة بحقه عن السلطات السورية وموجهة الى السلطات اللبنانية ، فان كنت حقا راغبا في خدمة العدالة ، وقادرا على الوصول الى هذا المجرم العاتي ، للدلالة على مكان وجوده بغية تسكين السلطات العامة السورية واللبنانية من القاء القبض عليه ، فأنا مستعد ، وبالتعاون مع هذه السلطات لمؤازرتك في الامر ، وتأمين ما تحتاجه في سبيل ذلك من مساعدة » • فأجابني : « أنا قصدتك لآخذ موافقتك على القتل ، فان وافقت ، سأتيك برأسه ضمن سلة وأضعه أمام قدميك ؛ وأنا لا أريد في سبيل ذلك لا مالا ولا أية مساعدة » • وتجاه رفضي للطريقة المقترحة وتسسكي برأيي بأن القاء القبض على الجاني المجرم المحكوم عليه والمطلوب للعدالة هو السبيل الوحيد لارضاء قناعاتي ، صارخني بأن القتل أسهل عليه ، لان هناك من سيساعده على القيام بتنفيذه ؛ ولم يكتف عني أن فكرة القتل ليست فكرته ، وان كان يحبذها هو انتقاما لروح عدنان ، وان الخطة مدبرة ومرسومة في لبنان ، وسيشترك في تنفيذها الرجال المكلفون بحراسة الشخص المقصود من جماعة القوميين السوريين أنفسهم ، وأن بعضهم فاتحه في الامر عندما كان في بيروت التي يتردد عليها ، بين حين وآخر ، بحكم عمله ووعده بأنه سيجزى على تولي عملية الذبح بمكافأة نقدية سخية ان عمل على تنفيذ الخطة المرسومة له • ونظرا لعدم اقتناعي بالفكرة أصلا ، نهيته عن التورط في مثل هذه الامور لما قد تجره عليه شخصيا من آثار سيئة ، وعلى القضية التي نكافح من أجلها والتي ذهب عدنان ضحية اخلاصه لها •

وكنت ، بيني وبين نفسي ، على شك من صحة الخطة البوليسية التي سمعتها من فم انسان لم أكن لاشك في صدقه واخلاصه في

يوم من الايام ، ولكنني خشيت أن يكون واقعا تحت تأثير شبكة جديدة من شبكات التخريب ؛ ولم أستطع تقدير المراد من حبك تلك القصة التي كانت في نظري آئذ أقرب الى الخيال . وقد انصرف السيد حامي مقتنعا بالعزوف عن التفكير في مسألة القتل .

ولم تكذب تضي على ذلك الحديث أسابيع قليلة الا وطالعتنا أخبار الادعاءات ووكالات الانباء والصحف بخبر مصرع المجرم غسان جديد على يد بعض عناصر الشعبة الثانية السورية ، وقد لاحت في الافق وفي لحظة قتله اشارات استفهام عريضة حول علاقة العناصر التي كانت تتولى حراسة مقر جماعة القوميين السوريين من زمرة المجرم الفار جورج عبد المسيح بالحادث .

ولم يفت بعض الصحف اللبنانية النشطة في تسقط الاخبار واستقصاء الحقائق ، الاشارة الى اليد الخفية التي امتدت الى سيارة القتل لحظة اطلاق النار عليه لاتتراجع حقيقة خاصة كان يحرص على حملها معه ليلا نهارا .

ولا أدري اذا كان المحقق اللبناني قد توصل لمعرفة هوية صاحب تلك اليد ومضون تلك الحقيقة ، لان ما كان فيها من وثائق وأسرار وأموال ربما كان سيساعد على معرفة حقيقة الدوافع الكامنة وراء جريمة اغتيال أخي عدنان وعلاقة قتل المجرم غسان بجريسته السابقة ، لقد جاء مصرع هذا الجاني ، بعد رفضنا لفكرة قتله ، مصداقا لقوله تعالى : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا » .

★ ★ ★

كان حرصي مع أهلي شديدا ومنذ البداية على أن يأخذ العدل مجراه الطبيعي أمام القضاء ، كما كان حرصنا أشد على أن تصان

حقوق الدفاع للمتهمين كاملة غير منقوصة . وبعد هذا الحرص ، كان علي أن أقف موقفا صارما من أية محاولة تستهدف افساد سير العدالة في أية مرحلة من مراحل القضية . وبعد أن صدرت الاحكام عن المحكمة العسكرية واستنفد المحكوم عليهم وسائلهم في الطعن بها لدى محكمة النقض ، وأضحت بعد ذلك قطعية وواجبة التنفيذ، تسربت الى الصحف أخبار عن المحاولات التي جرت لدى رئاسة الجمهورية للتشكيك في صحة تلك الاحكام تمهيدا لالغائها ، وكان بإمكان السيد رئيس الجمهورية أن يارس حقه الدستوري بالعفو أو بتخفيض الاحكام الصادرة بعد استطلاع رأي لجنة العفو حسب أحكام القانون والاصول . ولكن سيادته انساق وراء حملة التشكيك المصطنعة ، وعمد الى تشكيل لجنة ادارية ، أراد أن يضعها فوق سلطة القضاء المستقلة ، لتجيز الحكم الذي خضع قبلا لمراقبة محكمة النقض ، وقد نظرت فيه مرتين فقررت نقضه في المرة الاولى ليعيب في الناحية القانونية ، وصدقته في المرة الثانية ، بعد أن تثبتت من سلامة الاجراءات الجازية أمام المحكمة ، ومن صحة التطبيق القانوني .

لقد كان رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي أحد المستفيدين من اغتيال أخي عدنان الذي كان يرى في عودة السيد القوتلي الى سدة الرئاسة ، وهو الذي وقع في عهده وبعد تجديد رئاسته الاولى الانقلاب العنكري الاول ، بادرة من بوار الضعف الذي سينتاب النظام الديمقراطي البرلماني السائد في سورية ، بعد سقوط ديكتاتورية الشيشكلي ، وإن ذلك الضعف سيؤدي من حيث النتيجة الى تكرار معزوفة الانقلابات العسكرية التي لن تكون حتما في مصلحة البلد ، لانها ستلهي الجيش عن القيام بواجبه الاساسي ، وهو الذود عن حياض الوطن والانصراف الكلي للتدريب الكشيف، والاستعداد القوي لخوض المعركة الحاسمة مع العدو .

ولذلك وجد السيد القوتلي أنه من الوفاء لمن شقوا أمامه طريق الرئاسة من جديد وللمرة الثالثة بعد الاستقلال ، وأزاحوا عثرة كبرى من طريق أحلامه ، أن يقف الى جانبهم بعد سقوطهم في قبضة العدالة ، ويحول دون نفاذ القصاص العادل الذي أنزل بهم ، والقاضي باعدام القتلة منفذي الجريمة ومحرضيهم الرئيسيين ، وان كان معظم هؤلاء المحرضين باستثناء واحد منهم قد لاذوا بالفرار خارج الحدود، اثر تنفيذ الجريمة النكراء .

فكان علي أن أجابه محاولة السيد رئيس الجمهورية بصراحة وجرأة ، لا حبا بالتشفي من القتل ، ولكن بقصد احباط مسعى اعتبرته ، وبحق ، مظهرا من مظاهر الفساد في حياتنا العامة ، ودليلا قويا على ما سبق وهاجمت به الطبقة الحاكمة من جهة انتصارها للجريمة والمجرمين أكثر من حرصها على حماية المجتمع وأمنه وسلامته، من آثامهم وأخطارهم . فوجهت الى قصر الرئاسة في المهاجرين برقية، مؤرخة في ١٩٥٦/٨/٢٥ حذرت فيها من مغبة تشجيع الاغتيال ونددت فيها بالاساليب المتبعة لحماية القتلة الذين لم تكن في الحقيقة لنهتهم كثيرا بتنفيذ عقوبة الاعدام فيهم لولا الطريقة التي سارت عليها الامور لدى أعلى مرجع في الدولة كان عليه أن يبقى حريصا على عدم تدخل أجهزة الادارة في مسألة كانت من صميم اختصاص القضاء (١) .

(١) نص البرقية :

برقية رقم ١٥٦

تاريخ ١٩٥٦/٨/٢٥

السيد شكري القوتلي - قصر الرئاسة - المهاجرين

قتلة عدنان هم احقر من أن نهتم بتنفيذ حكم الاعدام فيهم ، ولكن الاساليب التي تتبع لحمايتهم فيها مساس صريح بسلطة القضاء المستقلة وتحد صارخ لارادة الامة واستهتار بالغ بالمصلحة العامة وخدمة لمصالح الاستعمار .



وقد نشرت احدى الصحف الدمشقية نص البرقية ؛ فعقد في القصر الجمهوري اجتماع لبحث امكانية ملاحقة موجه البرقية ونشرها معا . وفي ذلك الاجتماع ، لاحظ بعض مستشاري السيد الرئيس أن البرقية بصيغتها الراهنة ، ليس فيها ، مع طابع الصراحة القاسية المسيطر عليها ، ما يمس شخص الرئيس بالذات ؛ وازاء نصح البعض الآخر بالاكْتفاء بملاحقة صاحب الجريدة التي نشرت نص البرقية ، لان قانون المطبوعات فيه ما يساعد على اتخاذ اجراءات مستعجلة بحق مرتكبي جرائم النشر ، وأهمها تعطيل النشرة الدورية المشكو منها، أثر السيد رئيس الجمهورية عدم اتخاذ أي اجراء ضد الجريدة أو ضد صاحبها ؛ وجرى طي المسألة لكونها لا تخرج عن حدود حرية المواطن في التعبير عن رأيه . وبعد أيام صدر عن رئاسة الجمهورية قرار بالتصديق على الفقرة الحكيمة المتعلقة باعدام اثنين من الاشخاص الثلاثة المحكوم عليهم بالاعدام ، لانهما كانا شريكي القاتل ، الذي انتحر فور ارتكاب جريمته ، وقد شدا من أزره لدى اطلاق النار على أخي ، وقد صدر الحكم عليهما أصلا بالاجماع . أما بالنسبة للمحكوم عليه الثالث والذي كان أحد المحرضين على الاغتيال ، فقد أمر السيد رئيس الجمهورية بتخفيض عقوبته القصوى وبانزالها الى حبس الاشغال الشاقة المؤبدة ، نظرا لان الحكم الصادر بحقه كان اتخذ بأكثرية آراء أعضاء المحكمة لا بالاجماع .

كانت البرقية الموجهة من قبلي ، وموقف السلطات العليا منها،



لنذكر جميعاً يوم ٣٠ آذار ١٩٤٩ وان التاريخ يعيد نفسه . ولنحذر تشجيع الاغتيال لانه سلاح ذو حدين ، فكما وجه اليوم الى ظهر عدنان وفي الامس الى صدغ الشهبندر في ابشع صور الخسة والغدر ، قد يمتد غدا الى صدور محترفي السياسة الذين يتخذون منه مطية للوصول ولتحقيق أغراضهم الخاصة على حساب مصلحة الشعب .

ومن الصحيفة التي نشرتها ، ثم سير إجراءات تصديق الحكم بحق
بعض المحكومين وتعديله بحق البعض الآخر ، كلها مظاهر ايجابية
تعطي الدليل على أفضلية النظام الديمقراطي الذي يتيح للمواطن
اسماع صوته ، علنا ، وجهارا ، في ظل الحماية الدستورية ، دون أن
يتعرض لأي اجراء من اجراءات السلطة التنفيذية ، بالحد من حريته
أو بالاعتداء عليه والانتقام منه ، خلافا لما عليه الحال في ظل السيطرة
العسكرية والديكتاتوريات الفردية ، اذ تكفي آثذ اساءة بسيطة بحق
أصغر مأمور من مأموري السلطة المتحكمة ، لان تجر على صاحبها
الويلات ، من حجز حرية ، وتككيل ، وتشريد ، وتجويع ، وقتل ،
وافناء قد يعتمد على تذويب الجسد البشري بالاحماض الكاوية ،
وهي وسيلة حديثة مبتكرة .

تحت القبة الفضية

«السيادة في جهنم خير من

الذل في الجنة» .

«جونى ميلتون»

في ربيع عام ١٩٥٧ دُعيت من قبل بعض الاوساط السياسية وعدد من أصدقائي وزملائي لترشيح نفسي للانتخابات التكميلية التي ستجرى في دمشق في الرابع من شهر أيار (مايو) من العام نفسه ، لاملأ مقعد نيابي شعر بسبب صدور حكم عن المحكمة العرفية قضى بعقوبة السجن مع الاشغال الشاقة بحق نائب دمشق الدكتور منير العجلاني .

حاولت التخلص والاعتذار عن تلبية الدعوة لعدة أسباب ، أهمها موقعي من الحزب الذي سبق وأن اتسبت اليه قبل سبع سنوات ، ثم ابتعدت عنه بسبب خلاف شديد كان واقعاً بيني وبين قيادته ، وهو حزب البعث العربي الاشتراكي . وإن قصة اتسائي الى هذا الحزب ، وابتعادي عنه ومواقفي منه ، ومن قيادته ، وقادته ،

وقواعده ، وأجنحته ، ونشاطي الحزبي والسياسي معه قبل اندماج أصلية البعث العربي والعربي الاشتراكي ، وبعده ، وخوضي بعض معاركه ، وانطباعي عن تجاربه في مختلف مراحل وجوده ولدى حله وإعادة تشكيله ، قصة جديرة بأن تروى ، ولكنها لسعتها وأهميتها تستحق افراد بحث مستقل بها ، آمل أن تساعدني الظروف على تدوينه ، لما فيه من دروس وعبر •

كنت أشعر بكثير من الحرج في أن أحل محل الدكتور العجلاني في مقعده النيابي الذي احتله أكثر من مرة عن جدارة وكفاءة لا يشك فيهما • فالرجل ينحدر من أسرة كبيرة معروفة في أوساط دمشق ، باستقامة أفرادها ، وإن كانت هي من صميم الطبقة البورجوازية الكبيرة ، وهو يتحلى بثقافة عالية وأخلاق حميدة ، وإن كان اشتهر بتقلب مواقفه السياسية • وكان مدرسا قديرا ؛ وقد تلقيت العلم عليه ، عندما كنت طالبا في معهد الحقوق العربي في الجامعة السورية • فكيف أسمح لنفسي بأن أرى معلمي وأستاذي يزج به في غياهب السجن ، وبأن أتربع أنا على كرسيه النيابي ؟ • انه لا شك موقف متسم بالجحود ، لا يليق ببن تعلم في صغره قاعدة أخلاقية سامية تقول : « من علمني حرفا ، كنت له عبدا » • لقد سبق لي أن سجلت على نفسي مواقف لا تقل جحودا عن هذا التصرف الذي صعب علي الاقدام عليه • لقد أسهمت أنا شخصيا بخصاسته عندما كان واقفا في قفص الاتهام أمام المحكمة العرفية ليجابه تهمة الخيانة والتآمر ، مع عدد كبير من السياسيين السوريين من جماعة اليمين ، وبينهم أعضاء في المجلس النيابي ووزراء سابقون وأساتذة جامعة وضباط كبار وصغار وصحافيون • وكان بين هؤلاء بعض الاساتذة ممن درسوني على مقاعد معهد الحقوق في الجامعة •

ما أصعب مزلق المياسة ، وما أزعج الوقوع في متاهاتها

المتشعبة وتناقضاتها المخجلة • ولكن في طريق الكفاح الوطني ، عندما يكون المناضل على حق ، أو يعتقد على الاقل أنه كذلك ، لا يجد غضاضة في أن يجابه أقرب الناس اليه وأكثرهم فضلا عليه ، معطيا الاولوية لقضايا وطنه والرجحان لمصالح شعبه • فلا كبير حرج عندئذ أن يجابه الاخ أخاه ، وأن يعسكر الواحد منهما في خندق معاكس للخندق الذي يتمترس فيه أخوه ، اذا كان الحافز لذلك هو الاعتقاد بخدمة القضية الوطنية •

قد يكون هذا المنطق صحيحا عندما يكون أبناء الامة الواحدة متروكين وشأنهم ، في معالجة قضاياهم وادارة شؤون بلادهم • ولكن عندما تكون البلاد واقعة تحت سيطرة النفوذ الاجنبي ، وعندما تكون أراضيها مهددة بالاعتداء عليها ، وبعض أجزائها مغتصبا ، يجدر بأبناء الوطن جميعا أن يفكروا كثيرا قبل أن ينقسموا الى معسكرات متعارضة ومتناحرة ، اذ يقع على الجميع عبء كامل ومسؤولية ضخمة بأن ينتظموا في جبهة واحدة ، لمجابهة الاخطار التي تهدد بلادهم ، وسيادتهم عليها ، بل وحتى وجودهم على سطح اديمها • هذه قاعدة أساسية لا خيار في احترامها ، وقد فات أبناء شعبنا الالتباه اليها والتمسك بها بعد نيل الاستقلال • فبعد أن كانوا كتلة وطنية واحدة متراسة أيام الاحتلال يكافحون جيوشه ، ويقاومون عدوانه ، وينافحون عن حريتهم وكرامتهم ، اذ بهم بعد فجر الاستقلال ينقسمون على بعضهم ويبدأون في خلق أجواء عكسة من العداء المصطنع والتناحر البغيض ، دون أن يقدروا أن هذا الانقسام والتناحر لن يخدم الا أعداءهم المتربصين بهم ، الساعين لدحرهم وطردهم من بعض أجزاء وطنهم ، وقهرهم واذلالهم في الاجزاء الاخرى ، حتى يبقوا خاضعين للنفوذ الاجنبي ولسيطرة الاستعمار بشكليته القديم والحديث ..

لقد اعتقد أصحاب اليمين أمثال الدكتور العجلاني وصحبه ، بحكم انتمائهم الطبقي ، وثقافتهم العامة ، ونزعتهم الفكرية ونظرتهم لقضايا وطنهم ، في المجالات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، أن الغرب هو حليفهم الطبيعي الذي سيمكنهم دعمه ، والاعتماد على مساعداته ، وعونه المادي والأدبي ، من مجابهة قوى اليسار ، فراحوا يبدون اليه يد الصداقة وينشدون منه التعاون ، دون أن يدركوا أن دول الغرب بخضوعها للنظام الرأسمالي القائم على الاحتكار والاستغلال ونزعتها الاستعمارية ، لا يمكن أن تكون صديقة صادقة للعرب ؛ بل كان عليهم أن يصلوا وسريعا جدا الى قناة عميقة وهي أن زعيمة الغرب الولايات المتحدة الاميركية ، لا يمكن أن تكون الا عدوة للعرب ولجميع أمانتهم القومية ، ما دامت بحكم سيطرة الرأسمال والاحتكارات الضخمة على اقتصادها وسياستها ، وتقود الصهاينة في أوساط الطبقة الحاكمة فيها ، هي الدعامية الكبرى لإسرائيل ، والمعول الهدام في كيان الوطن العربي .

لقد نسي هؤلاء المواطنون هذه الحقيقة ، فوضعوا ثقتهم الكاملة في الغرب ، ومدوا أيديهم لدوله ، فراحت أجهزة المخابرات في تلك الدول تمسك بأيدي الصداقة المسدودة لها لتتآمر على أصحابها وتشركهم في مؤامرات من صنعها وتخطيطها ، وتسلم رقابهم الى عنلائها الحقيقيين ، الذين كان بعضهم يتستر تحت شعارات التقدمية والتحرر ليحتل مراكز القوة الاساسية في وطننا العربي ويسهم مع دوائر المخابرات الاجنبية في تنفيذ لعبة من أخطر مبتكرات العصر ، وهي « لعبة الامم » .

★ ★ ★

وقد اعتمد مشروع أيزنهاور ، رئيس جمهورية الولايات

المتحدة الاسبق ، القائم على نظرية ملء الفراغ في منطقة الشرق الاوسط ، على أسلوب ضرب القوى السياسية والوطنية ببعضها البعض لتزيق وحدة الصف الوطني وتشتيت الشمل العربي باستغلال الصراع الطبقي ، وازكاء نار الحرب الهوجاء بين اليمين واليسار ، كل ذلك بقصد احداث الفراغ الكبير في ساحة الكفاح العربي ، وتصديع البناء الوطني الداخلي وتبكين النفوذ الاجنبي من السيطرة التامة على المنطقة العربية بكاملها ، ليعيش جميع انائها ، والحدائق الواسعة قبل سواها ، عيشة الفقر والذل ، تتناهب خيرات البلاد الواسعة وثرواتها الغنية ، ومحاصيلها الوفيرة ، وكنوزها الدفينة ، ونفطها الغزير ، عصابات السلب والنهب ، العاملة باسم شركات اجنبية أو احتكارات رأسمالية .

★ ★ ★

وقد تسنى لي بحكم نشاطي وظروفي التي مرت فيها بلادنا ، أن ألحظ الفرق الكبير ، بين المخططين المتعاكسين ، منطق الوحدة الوطنية القائمة على جمع قوى الشعب وحشدها كلها في صف واحد لتحقيق المطالب الوطنية ، ومنطق التكتلات السياسية المتناخزة الذي لن يلبث أن ينعكس على ذات التكتلات ، ويؤدي بالتالي الى انقسامها على بعضها وبعبثة جهودها واستشراء بدور القوضى والتفسخ في صفوفها ، واضمحلال قوتها وقدرتها على تحقيق أي معنى ايجابي ، أو مطلب وطني ، أو هدف قومي صحيح .

لاحظت ذلك ، لدى قيام الجبهة الوطنية المؤلفة من الاكثرية الساحقة للقوى السياسية التي اجتمعت في مؤتمر حمص عام ١٩٥٣ ، وانبثق عنها ميثاق وطني وكفاح مشترك أدى الى سقوط ديكتاتورية الشيشكلي والى اعادة الحياة الديمقراطية الى البلاد ، ولاحظت عكس

ذلك ، عندما انقسمت تلك الجبهة على نفسها ، وراحت فئة من أطرافها وأحزابها تستمد العون من الخارج لمجابهة ما زعمته من خطر التغلغل الشيوعي المتجسم بفوز نائب شيوعي ببقعد نيابي واحد في المجلس النيابي . ومن خلال ذلك الانقسام تمكنت دوائر المخابرات الأجنبية من توجيه شرورها باستغلال قيام الوحدة ثم بضررها . لاحظت ذلك عند قيام الوحدة بين القطر العربي السوري والقطر العربي المصري في مطلع عام ١٩٥٨ ، وقد مهدت لها جماهير الشعب في سورية المطالبة « بالوحدة باشر باشر مع هالاسر عبد الناصر » ، وهو شعار طرحه الشيوعيون الاردنيون والسوريون قبل غيرهم والتف حوله جميع السوريين ، اندفاعا منهم وراء الهدف القومي الكبير الذي حلسوا به طويلا وكافحوا من أجله .

ولاحظت عكسه عندما تصدى الشيوعيون لمعاكسة قيام الوحدة تحت ستار الحرص على الحريات الديمقراطية ، وعندما راحت أجهزة المخابرات والمباحث في عهد الوحدة تستغل هذا العداء لا لضرب التيار الشيوعي ، بل لفرض سياسة استبدادية ارهايية ، كان حصادها اضعاف وتزريق الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد ، ثم فرط عقد وحدة القطرين العربيين في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٢ ، يوم الانفصال الاسود المشؤوم ، الذي تتحمل أجهزة المخابرات ومراكز القوة وحدها مسؤولية الشهيد لوقوعه .



لقد أسهمت أنا شخصيا وفي عدة مناسبات في تشكيل لجان وهيئات شعبية كان التقاء جميع عناصر الشعب فيها ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، مظهرا من مظاهر قدرة شعبنا على الالتفاف حول مصالحه الكبرى وقضايا المصيرية ، وقد حققت تلك اللجان والهيئات انتصارات كبرى ونتائج ايجابية هامة في بعض القضايا الوطنية .

ففي عام ١٩٥٥ حصل التعاون بين ممثلين عن الاحزاب والجسميات السياسية القائمة آنذاك ، وهي الحزب الوطني ، وحزب الشعب ، وحزب البعث العربي الاشتراكي ، والحزب الشيوعي ، وجماعة الاخوان المسلمين ، وحركة القوميين العرب ، وحزب التحرير ، والحزب التعاوني الاشتراكي ، واتحاد نقابات العمال ، وبعض النقابات المهنية ، وجرى تشكيل هيئات شعبية في معظم المحافظات السورية للمطالبة بتعديل اتفاقيات مرور أنابيب البترول المعقودة مع الشركات الاحتكارية الاجنبية .

كان اسهام جميع تلك الاحزاب في نشاط تلك اللجان والتفاف الشعب حولها عاملا هاما من عوامل نجاح الحكومة السورية في تعديل اتفاقيات البترول تعديلا جوهريا أدى الى مضاعفة عائدات المرور أضعافا مضاعفة .

ولم يجد أي واحد من مثلي تلك الهيئات حرجا بالموافقة على جميع الاقتراحات الايجابية المعروضة على تلك اللجان وعلى اللجنة العليا المنبثقة عنها ، ومن جملتها التأكيد على عزم الشعب العربي في سورية على خوض معركة تأميم أنابيب البترول في حال عدم الوصول الى حل سريع ونهائي يضمن للبلاد حقوقها .

وقد عقدت تلك اللجان الموائيق بين أعضائها ، مثلي الاحزاب والنقابات ، ونظمت اجتماعات شعبية ، وأصدرت بيانات متعددة وعبأت الرأي العام عن طريق مختلف وسائل الاعلام والنشر .

كان ذلك النشاط كله مظهرا ايجابيا من مظاهر الوحدة الوطنية . فالوحدة الوطنية هي السبيل الاوحد لمجابهة قوى الشر والعدوان والانتصار عليها ، وتمزيق الصف الوطني هو الطريق المباشر للفشل والهزيمة .

لقد تصدعت الوحدة الوطنية كثيرا عندما وقع بعض نواب المجلس النيابي السوري في شباك المؤامرات التي دأبت دوائر المخابرات الغربية عاقبة ، والأميركية خاصة ، على حبكتها ، ثم تسليم رقاب المشتركين فيها الى عملائها الحقيقيين المتحكمين في مراكز القوة ، في دوائر المخابرات السورية ، لتجرى تلك الدوائر التحقيق في مؤامراتهم وتحيلهم الى المحاكم العرفية لانزال أقصى العقوبات بحقهم .

وكان من نتيجة ذلك أن تزعزع النظام الديمقراطي ، وبات مصير المجلس النيابي في خطر ، عندما صدرت الاحكام العرفية بحق عدد من نواب المجلس الموقوفين أو المتوارين عن الانظار ، وقد غادر البلاد عدد من هؤلاء النواب خشية أن تمتد اليهم أيدي رجال الشعبة الثانية وأن يلقوا مصير زملائهم الموقوفين أو المحكوم عليهم .

وكان من المنطقي أن يحل المجلس النيابي تجري انتخابات نيابية عامة ، تساعد على قيام مجلس جديد ، يوفر استمرارا للنظام البرلماني ، واستقرارا أكثر في الدولة الحديثة الاستقلال والتي أنهكتها سلسلة الانقلابات العسكرية وتسلط العسكريين على مقدراتها ، وعلى شؤون الحكم والسياسة فيها .

ولكن التجمع البرلماني الذي تألف في داخل المجلس من أكثرية النواب الذين يمثلون معظم الكتل النيابية ، والذي انبثقت عنه حكومة ائتلاف وطني برئاسة السيد صبري العسلي ، آثر الحفاظ على المجلس القائم ورأب الصدع باجراء انتخابات تكميلية ملء المقاعد النيابية الشاغرة .

كان التجمع البرلماني يجد ذاته شكلا من الاتحاد الوطني لانه كان يضم في صفوفه عناصر اليسار الى جانب عناصر اليمين ، من

البعثيين الاشتراكيين الى الشيوعيين الى الكتلة الديمقراطية التي كان
يتزعمها السيد خالد العظم ، الى كتلة المستقلين ، وبعض نواب
العشائر ، حتى الجناح المعتدل من الحزب الوطني .

★ ★ ★

وقد نذبت أنا لترشيح نفسي وتأييد من التجمع البرلماني ،
حرصاً من أعضائه النواب على دعم سياستهم وتعزيز وحدة صفوفهم .
وقد وقع اختيارهم علي لخوض المعركة الانتخابية المقرر اجرائها
في أوائل شهر أيار (مايو) ١٩٥٧ ، كما قرروا دعم عدد من المرشحين
للاتخابات التكميلية الجارية في كل من محافظتي حمص والسويداء .
وكان اعتقادهم أن الحملة الانتخابية في دمشق ستكون سهلة ،
وأن مرشحهم سيكون قاب قوسين أو أدنى من خفوفهم ، ومن المقعد
النيابي الشاغر .

ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما وقع اختيار معارضتهم على
فرس رهان قوي تكللت هامته بأكاليل الفوز والنصر في دورات
انتخابية سابقة . والمرشح الذي اختاروه لمنافستي في الانتخابات
التكميلية المزمع اجرائها ، شيخ معمم ، وعالم فاضل ، وأستاذ جامعي
قدير هو الدكتور مصطفى السباعي ، المرشد العام لجماعة الإخوان
المسلمين .

وفوق صفاته تلك ، وخصاله العديدة ، واتسابه بطريق المصاهرة
الى أسرة عريقة في دمشق ، يمارس معظم أفرادها التجارة ولهم نفوذهم
الواسع في أسواق دمشق ، وأوساطها الدينية والشعبية والتجارية ،
كان الرجل يتمتع بميزة نادرة ، وهي براعته المشهورة في الخطابة ،
فقد كان بحق من أخطب خطباء العرب والمسلمين في العصر الحاضر ،
إذا ما اعتلى المنبر وتصدى للكلام ، تمكن من السيطرة على جمهور

ساميه بقوة بلاغته وسحر بيانه ، ولم يكن لمنافسه أن يجاريه أبدا
في هذا المضمار الهام والحيوي بالنسبة لكل من يريد تشيل الشعب
في قاعة المجلس النيابي •

★ ★ ★

لقد كانت ، في الماضي ، لمنافس الدكتور السباعي ، صولات
وجولات في ميادين الخطابة وفي ساحات الجدل الكلامي في المحاكم،
وفي اجتماعات المحامين ومساجلاتهم ؛ وكان يقف الساعات الطويلة
بين زملائه يقارع الحجة بالحجة ويرد على القول بالقول • ولكن ما عاناه
ذاك المحامي من تعذيب ومعاملة وحشية في السجن ، مع ما أعقب
ذلك من تنكيل على يد الاطباء العسكريين ، قد أنهك صحته ، وهـد
من قوته ، وحد من حيويته ونشاطه للذين لازماه في السجن وحتى
في أشد حالات مرضه ، الى أن جرت مداواته على الشكل الذي
سبق وصفه ، فكان الدواء أشد وقعا على صحته من الداء • وظل
المحامي يعاني طويلا من وهن شديد في قواه ، وقد انعكس ذلك
بشكل خاص على قدرته الخطابية ، فعاد بعدئذ يتعثر في كلامه اذا
ما اضطر للخطابة ارتجالا •

فكيف تكون الحال اذن والنشاط الانتخابي يتطلب من المرشح،
أي مرشح ، أن لا يكف طيلة الحملة الانتخابية عن توجيه الكلام الى
جماهير الناخبين ، وفيهم العلماء والمثقفون والطلاب الجامعيون ،
وفيهم العامة التي تتأثر بلهجة الخطيب يصول ويجول في خطابه أكثر
من أن تعي حقيقة ما يقول ، خاصة اذا كان محدثا بارعا ، كالدكتور
السباعي •

ومع ذلك ، كان علي أن أجابه هذه الصعوبة باقدام ، وكان
علي أن أظهر أمام الجمهور على حقيقتي ، أخاطب الناس على سجيّتي،

دون بذل أية محاولة أو جهد خاص لتملقهم بحلو الخطاب ومعسول الكلام .

وفي احتفال انتخابي ضخم عقد في نادي (الابلون) في حي القصاع ، وقد حضره جمهور غفير من أناس معظمهم مثقفون وحملات شهادات عليا ، ارتجلت الكلام مخاطبا الحاضرين بقولي : « أيها المواطنون الاحرار ، أتم اليوم على أبواب معركة انتخابية تكميلية تدور بين مرشحين اثنين ، عليكم اختيار واحد منهما لتمثيلكم تحت قبة البرلمان . فان أردتم خطيبا مصقعا ومتكلما مفوها ، فعليكم اختيار منافسي الدكتور مصطفى السباعي ، لاني لا أستطيع مجاراته في هذا المجال . واذا أردتم رجلا واسع الثقافة غزير المعرفة ، أخطب وأعلم من الدكتور السباعي ومني ، فما عليكم الا أن تتجهوا الى السجن لتحطموا بابه بقوة سواعدكم ، وتفكوا أسر نزله الدكتور منير العجلاني ، لانه ، بهذا المقياس ، أجدر من سواه بالنيابة التي عقدتم لواءها عليه في الانتخابات السابقة . أما اذا أردتم انسانا حرا ، ومواطنا صادقا ، يسير معكم في طريق كفاحكم من أجل حرية وطنكم ووحدته وتطوره وتقدمه ، فما أنذا أمامكم ، أعاهدكم على أن أتابع معكم السير على هذا الطريق ، وكلي أمل في أن أكون عند حسن ظنكم متمتعا بثقتكم التي هي الدعامة الاساسية لاي نائب يتصدى لتمثيل الشعب تحت القبة الفضية » .

وبمثل هذه اللهجة في الخطاب وتحت تأثير المنطق العفوي الصريح الذي كنت أخطب به جمهور الناخبين ، كنت ألقى دائما التجاوب والتشجيع في جميع الاوساط السياسية والجمعيات الثقافية والاندية الاجتماعية ، والتجمعات الشعبية التي كنت ألتقي معها ، طيلة حملتي الانتخابية .

★ ★ ★

التقيت بجماهير المثقفين والطلاب ، فاعتبروا قضية ترشيحي
قضيتهم • التقيت بجماهير العمال فأوكلوا الي أمر تمثيلهم والدفاع
عنهم في المجلس النيابي • اجتمعت بعدد من كبار العلماء ورجال
الدين فحزت على بركة وتشجيع أكثرهم تسكنا بعقيدتهم وحدا على
قضايا وطنهم ، فكان تأييدهم لي ردا قويا على أنصار منافسي ،
ومعظمهم من جماعة الاخوان المسلمين أو من رجال الدين المتزمتين
الذين أضفوا على المعركة الانتخابية طابع الجهاد المقدس ، ووصفوها
بأنها معركة بين الكفر والايمان ، وبين ستالين ومحمد ، متخذين من
وقوف قوى اليسار الي جانبي ، وتأيد الشيوعيين لي ، ذريعة للتشكيك
في عقيدتي وصدق ايماني •

وقد حاولت جهدي ثكيلة الحملة الانتخابية ، أن أبتعد عن أسباب
التجدي والاثارة ، كما سعت بشكل مخلص ودائم ، لانه نفسي
أنا وأنصاري ، عن الانزلاق في مهاوي المهارات الكلامية ، بأدلا
كل جهدي ومبديا عظيم حرصي على أن تبقى المعركة الانتخابية في
حدودها المعقولة ، وأن تدور رحاها وكأنها مباراة رياضية •

سألني صاحب جريدة « العلم » عن انطباعي عن المعركة الانتخابية
وعن شخص منافسي ، وعن النتيجة التي أتوقعها ، وماذا سيكون
موقعي في حال النجاح أو الفشل ؟ فأشدت بصفات الدكتور السباعي
وخصاله ، ووصفت المعركة بأنها تنافس ودي على ثقة الشعب ،
وتسيت أن أفوز بهذه الثقة ، حتى اذا تسنى لي ذلك ، كان لي الفخر
والشرف بتمثيل الشعب ، وفي حال نجاح منافسي ، فسأنحي أمام
ارادة الناهخين وأسارع لتهنئته بثقتهم العالية •

وقد وجه السؤال نفسه الي الدكتور السباعي الذي بادلني ،
بعد اطلاعه على جوابي ، ذات العاطفة ، وان كان توقع الفوز لن التزم
جانب العقيدة والايمان •

ولدى مقابلي لرئيس رابطة العلماء الشيخ أبو الخير الميداني، والاستيضاح منه عن حقيقة البيان الذي أصدرته رابطة العلماء عن لسانه ، بتأييد مناسي ، نفى الرجل التقي الورع ، أن يكون قد أصدر أي بيان أو أعطى أي تصريح ، ولكنه اعتذر في آن واحد عن إصدار أي تكذيب بحجة أنه يريد ، وهو في شيخوخته ، أن يجنب نفسه مهاترات السياسة والتلوث بأدرانها . ولما أبدت تخوفي من اعطاء المعركة الانتخابية السياسية طابع صراع ديني ، ومن محاولة أنصار مناسي استغلال النزعة الدينية في الاوساط الشعبية ، طمأنني بقوله : « يا بني ، لاتخف ، ان الله معك ، وانك لنالنج باذنه تعالى » . وقد أدى حديثه بحضور بعض أنصاره ومريديه الكثيرين الى تحول نظرتهم نحوي وانعطافهم أثناء سير المعركة الانتخابية واتجاههم نحو تأييدي ودعمي .

وقد انقسم جمهور الشعب الى جبهتين متعارضتين ، جبهة تؤيدني وجبهة تؤيد الدكتور السباعي ، ولكل جبهة أحزابها وقواها السياسية وحشودها الشعبية وصحفها وأقلامها . وانبرت أفلام حرة نزيهة ، لتوجيه حملة الدعاية لمصلحتي .

وكت ألقى خطابات التأييد ورسائل التشجيع من أشخاص لا أعرفهم ولا يعرفوني ، سوى أنهم اتصروا للخط السياسي الذي اتجهته في حملتي الانتخابية ، وقد خضتها مستقلا ، غير ملتزم بأي اتجاه حزبي .



استغرقت المعركة الانتخابية شهرا كاملا ، صدف أن رافق بدؤه حلول رمضان المبارك ، شهر الصوم والعبادة والتقرب من السماء ؛ ولم يعكر صفو الامن في البلد حادث ما طيلة الشهر ، سوى أن المدير

العام للشرطة والامن العام وهو السيد يوسف مزاحم ، ظن أنه يستطيع أن يحقق عدة أهداف بانحيازه الى الشخص الذي اعتقد أنه أقوى المرشحين المتنافسين ، فوجد أن انحيازه الى صف رجل الدين الحنيف ومدرس الفقه الشريف أستاذ الشريعة الاسلامية الغراء ، سيفتح له أبواب السماء ويكسبه رضى رب العالمين ، كما سيوصله في يوم من الايام الى تسنم وزارة الاوقاف وربما يساعده لتحقيق طموحه بأن يصبح ، في المستقبل ، شيخا للاسلام . لذلك عمد الى اتخاذ بعض الاجراءات العنيفة والتعسفية بحق بعض أنصاري ، كأن أصدر أمرا بتوقيف أحد هؤلاء الانصار من شبان حي الشاغور وأبقاه في نظارة الشرطة أربعة أيام دون أن يحيله الى القضاء ، لقناعته بأن النيابة العامة ستفرج عن الموقوف فورا لعدم وجود ما يوجب احتجاز حريته . وعبثا ذهبت المحاولات التي بذلتها مع دائرة الشرطة للافراج عن المعتقل أو سوجه الى المحكمة ، وكان الجواب دائما أن أوامرالمدير العام تقضي بابقاء الموقوف في النظارة لحين صدور أمر معاكس .

وقد حاول عدد من المسؤولين والنواب الذين شكوت لهم الامر ، الاتصال بالمدير العام اياه ، ولكن لم يعد يظهر له أي أثر خلال الايام الاربعة بكاملها . وقد ظن القوم أنه قد تبخر مع كميات البخور التي اعتاد اشعالها في خلواته الخاصة مع بعض المشايخ أو في جلسات التجوى مع الاشباح ، وخلال حفلات تحضير الارواح .



وأثناء المعركة الانتخابية ذاتها ، خطر للسدير العام للشرطة والامن العام أن يتوجه في الساعة الثالثة من بعد منتصف ليل أحد الايام ، الى دار السيد رئيس الجمهورية طالبا مقابلة صاحب الدار . ولم يستطع رجال الحرس الجمهوري رفض طلب أمرهم المباشر ،

فدخل أحدهم على السيد الرئيس وأيقظه من نومه برفق ، وأنبأه
بقدوم مدير الشرطة الذي يطلب مقابله لامر هام • فذهب الرئيس
السيد القوتلي من فراشه مذعورا ، وظن أن في البلد حدثا جلا ، ربما
كان يتعلق بتحرك جديد من طواوير العساكر ، وقد قام بعضهم يوم
انتخابه قبل سنتين واثرفوزه بكرسي رئاسة الجمهورية بالطواف
أمام داره ليلا وبالتهاتف ضده وبسقوط رئاسته الجديدة • واستقبل
رئيس الجمهورية زائره الليلي ، وهو يلتف بعباءة وضعها فوق ظهره
على عجل • وقبل أن يقرئه السلام أو التحية ، سأل رجل الامن عن
دواعي زيارته غير المنتظرة ؛ فأجابه الزائر الكريم : « لا شيء في
الافق يدعو للقلق يا فخامة الرئيس ، انما جئت لابلغكم أن الحالة في
البلد هادئة ، وأن الامن مستتب تماما ، وكل شيء يدعو للاطمئنان،
فعودوا لمتابعة نومكم وأتمم تقرير العين هادىء البال » •

فعلق السيد الرئيس على خطاب المحتسب الامين بعبارته
المشهورة التي كان يرددها في حالات الرضى أو التعجب : « بارك
الله ، بارك الله ! •• » •

وانصرف الضيف بعد ذلك ؛ وعاد السيد رئيس الجمهورية الى
سريره متنفسا الصعداء ، وهو يفكر بينه وبين نفسه كيف أن الجيل
الصاعد الذي كان يعلق عليه السيد الرئيس في خطابات الرسمية أعظم
الآمال ، والذي كان السيد مزاحم يتصدى لتمثيل بعض طلائعه
التقدمية ، سوف يزود عن حياض الوطن ويخوض معارك التحرير
والنضال ، ويحقق لشعبه ووطنه النصر والسؤدد •

★ ★ ★

كان طبيعيا بعد ذاك الحادث الطريف ، أو الحدث الهام ، أن
يكافأ رجل الامن الهام ؛ فانتظرت الحكومة انتهاء الحملة الانتخابية،

وأصدرت أمرا بتنحيته عن مديرية الشرطة والامن العام ، ونقله
محافظا لدير الزور •

وشاءت الصدفة أن ألتقي به يومئذ مع اثنين من أصدقائه وهما
السيدان منصور الاطرش وذوفان قرقوط لدى زيارتهم للعقيد عفيف
البرزري ، وكان آنئذ رئيسا لاحدى شعب رئاسة الاركان العامة ،
وقد قصدته في مسعى انساني للتوسط بمعالجة مريض بائس بواسطة
بعض الاطباء الاجانب المتعاقدين مع وزارة الدفاع •• وقد سمعت
محافظ دير الزور الجديد يشدد الهجوم على الحكومة ورئيسها
السيد صبري العسلي الذي كان في نفس الوقت وزيرا للداخلية ،
مغلظا القول بحقه وفي غيابه ، ورئيس الشعبة الاولى يستمع اليه دون
أن يحير جوابا • ولما طال حديث الموظف المنقول الساخط على
حكومته ورئيسه المباشر لا شيء الا لانه نقله من مركز القوة الذي
أساء استعماله ، تدخلت أنا في الحديث ، بعد صمت وصبر طويلين ،
وخاطبت الموظف الصاحب بسؤالي اياه : « أأنت موظفا في الدولة
وخاضعا لامرة السيد وزير الداخلية ؟ » أجاب : « نعم » • فقلت
له : « بأي حق اذن تنتقد رؤساءك وتهاجنهم بهذا الشكل المقذع ،
مسجلا على نفسك مخالفة صريحة لواجباتك المسلكية ؟ » • فسألني
مستغربا : « هل تريد أن تدافع عن السيد العسلي وحكومته الرجعية
وأنت الشاب التقدمي ؟ » •

فقلت له هازئا : « اطلع من هذه الابواب ، لقد ظلمت رديحا
من الزمن تحت امرة السيد العسلي تحيطه بالتعظيم والتبجيل في
محاولة دائمة لاسترضائه واستدراار عطفه ومغانمه ، حتى اذا نقلك
الى مركز اداري كبير غير مركز الخطير ، شرعت باملاء الدنيا صياحا
وضجيجا ضده وضد حكومته التي كنت قابعا لها » • أجاب :
« ان ثقلي لا يست الى المصلحة العامة بأية صلة ، وقد جرى ارضاء

لنائب الزبداني السيد جميل الشماط الذي يخشى من منافستي له على زعامته ونيابته بالنظر للمشاريع الضخمة التي أنفذها في منطقة نيابته » . فعلقت على كلامه قائلاً : « ما دامت لديك القدرة على تنفيذ المشاريع الحيوية ، فإن محافظة دير الزور النائية هي أولى بعنايتك وجهودك من وادي بردى الذي هو قطعة من الجنة حبه الطبيعة بجمال لا يحتاج بعده لكثير من العناء . فاذهب الى محافظتك وانصرف الى عملك بصمت وجدية ؛ ودع ضباط الجيش وشأنهم ، ولا تحاول استغلالهم واستعدادهم ضد رجال الحكم والسياسة . أما اذا كنت حريصا على معالجة القضايا السياسية العامة ، فما عليك الا أن تتخلى عن وظيفتك ، وتخوض معارك السياسة بالاعتماد على نفسك وعلى كفاحك » . وانصرف الموظف الاداري والغيظ والحنق يملآن صدره ضد نائب دمشق الذي أفسد عليه خطته وعكر مزاجه .

ان هذا الرجل وأمثاله هم الذين كانوا يلتصقون بضباط الجيش والعسكريين يفسدون عليهم انضباطهم ، ويدغدغون غرائزهم وغرورهم ، ويقوون لديهم شهوة الحكم ، يحرضونهم تارة ضد المناضلين المعتقلين ، ليتخذوا منهم رهائن بقصد ارهاب ذويهم وأنصارهم ، ويحرضونهم تارة ضد الحكام والسياسيين ، ويحثونهم أخيرا على الاطاحة بالسلطة المدنية الحاكمة ، والاستيلاء على الحكم ، حتى يتسنى لهؤلاء الطفيليين اعتلاء المناصب على أكتاف العساكر أو من تحت نعالهم ، وبالتالي تحقيق المكاسب والمغانم ، واشباع نهمهم الزائد للجاه والمال على حساب الجباهير الكادحة وملايين الفقراء الجائعين .

لقد تمكن جابي البلدية الصغير ، لا عن طريق كفاحه واجتهاده ، بل عن طريق الزلغى والتقرب من العسكريين ، ثم عن طريق الالتقاء بالمولعين مثله بالبخور وتحضير الارواح ، الى ارتقاء مدارج الوظيفة

والمناصب العليا حتى وصل الى كرسي وزارة الاوقاف ، ومن المعتقد أنه لو طال المقام به وبشركائه الروحانيين العظام ، لحقق آئذ حله الكبير وأصبح شيخا للاسلام •

ان مدرسة كاملة ، لها أساتذتها وتلاميذها ، تكونت من خلال الانقلابات العسكرية التي خططتها دوائر المخابرات الامريكية للبعث بمقدرات بلادنا وانهاك شعبنا ، وافساد حياة أبنائه ، وجعلها جحيما لا يطاق ، مستخدمة أتباع هذه المدرسة ، للقيام بدور الوسطاء مع العسكريين يزينون لهم فكرة اعطاء ظهورهم للعدو والتوجه بآلياتهم الجبارة وقطعاتهم الضاربة ، لاحتلال دور الحكومة ، والامعان بالتنكيل بسواطينهم وارهابهم تحت شعارات الثورة والتحرير •



لم يجد انجياز مدير الشرطة والامن العام كبير نفع ، ذلك لان وعي المواطنين من جهة ، وسرية الانتخابات من جهة ثانية ، كفلت للسواطين حريته لدى اختيار مثله الجديد •

ويوم الاقتراع أقبل الناخبون وبشكل منقطع النظير على ممارسة حقهم الانتخابي ، ومع ذلك ، وبالرغم من أن سيل الناخبين لم ينقطع، من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر ، لم تبلغ نسبة المقتربين حد النصاب القانوني ، فجرى اكمال العمليات الانتخابية في اليوم التالي • وقد بلغ مجموع عدد المقتربين الفعليين خلال يومي الاقتراع نسبة ٣٣٪/ تقريبا من مجموع عدد الناخبين •• وبعد فرز الاصوات ، أظهرت النتيجة بأن المرشح المالكي نال /٢٠٨٠٨/ صوتا في حين أن المرشح الدكتور السباعي لم ينل سوى /١٨٤٦١/ صوتا ؛ فأعلن فوزي بالنيابة عن دمشق بأكثرية أصوات المقتربين •

ولكن منافسي لم يقتنع بالنتيجة المعلنة ، فعمد الى الطعن في

الانتخابات لدى المحكمة العليا . فقررت هذه المحكمة ، المنتخبة أصلا من قبل المجلس النيابي ، رد الطعن بحجة أن الشيخ الطاعن لا يملك حق الخصومة والطعن في نيابة منافسه الفائز ، نظرا لانه لم يكن أصلا يملك حق ترشيح نفسه للانتخابات ، وذلك بسبب اشغاله وظيفه عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق ، وقانون الانتخابات العامة لا يجيز للموظفين الإداريين ترشيح أنفسهم عن الدائرة الانتخابية التي يمارسون عملهم في نطاقها ، الا اذا كانوا قد تركوا الوظيفة قبل ثلاثة أشهر من الترشيح . وبذلك عمدت المحكمة العليا أخيرا الى اعمال النص القانوني . والطريف أن المحكمة ذاتها ، سبق لها وأن ردت الطعن المقدم من زميلي وصديقي الاستاذ عدنان السمان ، الذي لجأ ، كمواطن وارد اسسه في جدول الناخبين ، الى استعمال حقه الصريح المقرر في قانون الانتخاب ، بالاعتراض على عدم صحة ترشيح الدكتور السباعي ، وعدم قانونية اعطائه وصل الترشيح النهائي من قبل أمانة العاصمة ، استنادا لذات الاسباب التي أخذت بها المحكمة العليا لدى رد الطعن الذي قدم اليها بعد انتهاء عمليات الاقتراع من قبل المرشح الفاشل .

ويبدو أن المحكمة الدستورية ، تعمدت مخالفة النص القانوني في أول مرة ، في محاولة منها لاعطاء الشعب الفرصة للاستفتاء حول الاتجاهين السياسيين المتصارعين في ذلك الطرف السياسي الدقيق . وقد جاءت نتيجة الاستفتاء مؤيدة للخط السياسي الذي كان يسير عليه التجمع الوطني النيابي .

وعندما دخلت المجلس لأول مرة في حياتي ، أقبل علي بعض النواب من مؤيدي الدكتور السباعي ، قبل غيرهم ، يهنئوني بثقة الشعب الغالية ، كما رحب بانضمامي الى عشيرة النواب رئيس المجلس النيابي الدكتور ناظم القدسي بكلمة لبقة مشجعة .

وكان هذا الترحيب وتلك العواطف من مثلي الشعب ، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم مظهرا من مظاهر الحياة الديمقراطية البرلمانية الحرة التي تجعل الكلمة أولا وأخيرا للشعب ذاته ، فينحني الجميع أمام ارادته التي هي التعبير القوي عن سيادته •



لم يكتب لعمر نيابتي عن مدينتي دمشق أن يطول • فقد اتخبت أصلا ضمن عملية ترقيع المجلس الذي غاب عنه الكثيرون من أعضائه ، أما لسقوط النيابة عن بعضهم بسبب الاحكام الصادرة بحقهم ، أو لمغادرة البعض الآخر البلاد لما كانوا يخشونه من ملاحقة السلطات العامة لهم بسبب انحيازهم الواضح لسياسة الدول الغربية الاستعمارية وانغماسهم في نشاط تأمري محصور •

والقاعدة الذهبية في أصول المساجلات النيابية تقول بأن النائب الناجح هو الذي يعرف كيف يصمت في المجلس النيابي طيلة سنة كاملة ، لينبri بعدها للكلام دون توقف • والحقيقة انني لم أكن أطمح لأن أكون واحدا من هؤلاء البرلمانيين الفطاحل الذين يجارون مثلي المسرح والسينما البارعين ، أو يقلدهم هؤلاء المثلثون في مواقفهم الخطائية التي تهتز لها المنابر وتنال اعجاب الجمهور • ولكن كان علي أن أفي بعهدي لأولئك الذين منحوني ثقتهم ، وأوصلوني بارادتهم الحرة لتمثيلهم تحت قبة المجلس النيابي ، وأن أبر كذلك باليمين الدستورية التي أقست بموجبها علنا أمام المجلس أن أكون مخلصا لدستور البلاد مدافعا عنه وأقوم بهمة النيابة بشرف وصدق؛ ولذلك وجدت من الاخلاص للدستور أن أوجه انتباه أعضاء المجلس الى الثغرة الهامة التي أحدثتها في صفوفهم غياب عدد كبير من النواب الذين سبق لهم أن أقسوا أيضا أن يقوموا بمهمة النيابة بشرف

وصدق واخلاص • ثم تقدمت باقتراح يقضي باسقاط النيابة عن يتخلف عن حضور جلسات المجلس بدون عذر مشروع ، وقد أدى عرض ذلك الاقتراح على لجنتي الدستور والنظام الداخلي ثم على المجلس في جلسته العامة الى خلاف قوي بين النواب الذين انقسموا الى فريقين ، الاول مجبّد للاقتراح والثاني معارض له • وقد أدى ذاك الخلاف في الرأي الى حصول اضطراب شديد في الجلسة ، حمل السيد رئيس المجلس على تعليقها للاستراحة بعض الوقت ، ريثما تهدأ الخواطر ؛ ثم عاد النواب يتابعون نقاشهم الذي أفضى من حيث النتيجة الى تعديل الاقتراح بأن تقرر وضع مؤيدات مادية لأكراه النائب على حضور الجلسات •



لم يعمر المجلس بعد ذلك طويلا ، لان خطوات الحكومة والمجلس اتجهت سريعا نحو اقامة الوحدة بين القطرين العربيين الشقيقين مصر وسورية •

وقد دعي بمناسبة مرور خمسة أعوام على ثورة ٢٣ تسوز (يوليو) ، وفد برلماني سوري للاشتراك في أعياد الثورة • وقد توجه الوفد برئاسة الدكتور معروف الدواليبي وعضوية عدد من النواب ، وكنت أنا واحدا منهم • وفي تلك المناسبة تسنى لنا مشاهدة العرض العسكري الكبير الذي أقيم تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية المصرية ، وهو القائد الاعلى للقوات المسلحة البرية والبحرية والجوية ؛ وكان عرضا رائعا دام عدة ساعات وعرضت فيه نماذج من الاسلحة الحديثة التي زود بها جيش مصر من قبل الاتحاد السوفياتي ، وقد أشادت الاذاعة والخطابات الرسمية بقوة الجيش الذي أضحى أقوى قوة ضاربة في الشرق الاوسط •

وفي اليوم التالي اشتركنا مع سيادة الرئيس وصحبه ومن على ظهر مدمرة حرية ، في المناورة الحرية التي أجراها الاسطول المصري الكبير المؤلف من عدد من المدمرات والغواصات وكاسحات الألغام وزوارق الطوربيد . كانت القطع الحرية تنخر عباب البحر الأبيض المتوسط مظهرة قدرتها على مقارعة أساطيل الاعداء ومهددة باغراقها عن بكرة أبيها وجعلها طعاما للأسماك .

وفي المساء دعي أعضاء الوفد السوري لمأدبة عشاء على مأدبة السيد الرئيس في داره الصيفية الكائنة في الاسكندرية . وقد دار الحديث بين سيادة الرئيس المصري وضيوفه الذين أشاروا الى ملاءمة الظرف لاقامة الاتحاد بين القطرين المصري والسوري . ولكن السيد الرئيس أوضح بدوره أن الخطوة سابقة أوانها ، وأن التسرع في اقامة مثل هذا الاتحاد قد يؤدي الى نكسة ليست في صالح القضية العربية ، وقد يكون لها أثرها السلبي على مستقبل الوحدة العربية . ومع ذلك رحب سيادته بالخطوات التي يمكن أن تسير عليها حكومتا البلدين للتمهيد لعقد مثل هذا الاتحاد في المستقبل ، ونوه بأن المبادرة يجب أن تحصل من الجانب السوري .

وحضر الوفد النيابي السوري إحدى جلسات مجلس الأمة المصري ، وقد أجلس أعضاؤه في شرفة النظارة وتابعوا سير الجلسة وسعوا الكلمات التي أُلقيت بمناسبة عيد الثورة ، ولم يتعرض الخطباء في كلماتهم لموضوع الاتحاد أو الوحدة بين سورية ومصر ، لا من قريب ولا من بعيد .

★ ★ ★

عدت الى دمشق ، بعد انتهاء الزيارة الرسمية وانقضاء مراسم الاحتفالات بأعياد الثورة ، وتأخر رئيس وأعضاء الوفد الباقيون في

القاهرة • ولدى وصولي الى العاصمة السورية ، أقبل علي رجال الصحافة لمعرفة ما قام به الوفد من نشاط واتصالات ، فأوضحت لهم خلاصة ما شاهدناه في العرض العسكري الذي جرى في القاهرة وفي العرض البحري الذي جرى قرب شواطئ الاسكندرية ، وذكرت لهم وجهة نظر الرئيس المصري حول موضوع الاتحاد بين مصر وسورية •

ودخلت الامور مرحلة أكثر جدية ، عندما قدم من القاهرة وفد كبير من أعضاء مجلس الامة المصري برئاسة السيد أنور السادات ، وقد جرى للوفد المصري استقبال رسمي وشعبي منقطع النظير عندما هبطت الطائرة المقلّة للوفد ، حتى أن ساحات مطار المزة المدني ومهابط الطائرات كانت مزدحمة بالمواطنين السوريين الفرحين ببقاء أخوتهم المصريين مما عطل حركة الطيران في المطار ، وعوق هبوط الطائرة المصرية التي كادت تحط فوق رؤوس وأكتاف المستقبلين المبهجين بهذا اللقاء العربي الاول من نوعه •

وقد عقد المجلس النيابي السوري في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ جلسة مشتركة حضرها أعضاء مجلس الامة المصري • وكانت الجلسة مظاهرة قومية رائعة ، رحب رئيس المجلس السيد أكرم الحوراني في كلمته التي ألقاها لدى افتتاح الجلسة « بنواب الامة العربية يجتمعون لأول مرة في التاريخ ، ليعلموا على العالم كله ارادة الامة في تحقيق الوحدة العربية » •

واتخذ المجلس في نهاية الجلسة قرارا تاريخيا دعا فيه نواب المجلسين المصري والسوري حكومتي مصر وسورية للدخول في مباحثات مشتركة لاقامة اتحاد فدرالي بين القطرين العربيين •



وفي جلسة الخامس من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٥٨ عقد مجلس النواب السوري آخر جلساته ، وكانت جلسة تاريخية حضرها فخامة السيد شكري القوتلي ، رئيس الجمهورية السورية ، وجلس في المكان المعد له في القاعة ، وبعد أن رحب السيد رئيس المجلس النيابي بالسيد رئيس الجمهورية ، ألقى الرئيس الاول خطابا مطولا استعرض فيه تاريخ القطرين العربيين مصر وسورية ، والظروف التي أدت خلال العامين الاخيرين الى لقاءهما الاخوي الصادق على صعيد المبادئ القومية السامية . ثم أعلن من فوق المنبر ، الى العرب في مواطنهم ومهاجرهم ، ما سبق وأعلنه في القاهرة يوم الاول من شباط (فبراير) ، الميثاق القومي الجديد متضمنا المبادئ التي تم الاتفاق عليها لتكون أساسا في بناء الجمهورية العربية المتحدة ، وفاقا لما تقرر في الجلسة التاريخية المنعقدة في قصر القبة في القاهرة بين الحكومتين السورية والمصرية .

كان قرار أعضاء مجلسي الامة والنواب المصري والسوري المتخذ في الجلسة المشتركة التي عقدت في قاعة المجلس النيابي السوري بتاريخ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ صريحا واضحا ، أعلن فيه نواب المجلسين رغبة الشعب العربي في مصر وسورية باقامة اتحاد فيدرالي ، ودعوا فيه حكومتي مصر وسورية للدخول فورا في مباحثات مشتركة ، بغية استكمال أسباب هذا الاتحاد (١) .

(١) نص القرار :

« ان نواب المجلسين المجتمعين اذ يعلنون رغبة الشعب العربي في مصر وسورية ، باقامة اتحاد فدرالي بين القطرين ، يباركون الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومتان السورية والمصرية في سبيل تحقيق هذا الاتحاد ، ويدعون حكومتي مصر وسورية للدخول فورا في مباحثات مشتركة بغية استكمال أسباب تنفيذ هذا الاتحاد » .

ولكن الميثاق الذي قدمه السيد رئيس الجمهورية السورية الى مجلس النواب السوري ، كان يتضمن المبادئ والاسس التي اتفقت عليها الحكومتان لاقامة وحدة كاملة بين القطرين العربيين^(١) .

(١) نص الميثاق :

مبادئ الدستور الموقت

أولاً - الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الامة العربية .

ثانياً - تتكون الجمهورية العربية المتحدة من اقليمين هما مصر وسورية ويكون لكل اقليم مجلس تنفيذي يرأسه رئيس يعين بقرار من رئيس الجمهورية ويعاونه وزراء يعينهم رئيس الجمهورية بناء على اقتراح رئيس المجلس .

ثالثاً - الحريات العامة مكفولة في حدود القانون .

رابعاً - الانتخاب العام حق للمواطنين على الوجه المبين في القانون ومساهمتهم في الحياة العامة واجب وطني عليهم .

خامساً - يتولى السلطة التشريعية مجلس يسمى مجلس الامة . ويشترط أن يكون نصف الاعضاء على الاقل من بين أعضاء مجلس النواب السوري ومجلس الامة المصري .

- يحدد عدد أعضاء هذا المجلس ويتم اختيارهم بقرار من رئيس الجمهورية .

سادساً - يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية .

سابعاً - الملكية الخاصة مصونة وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية ولا تنزع الملكية الا للمنفعة العامة ومقابل تعويض عادل وفقاً للقانون .

ثامناً - انشاء الضرائب العامة او تعديلها أو إلغاؤها لا يكون الا بقانون ولا يعفى أحد من أدائها في غير الاحوال المبينة في القانون .

عاشراً - كل ما قرره التشريعات المعمول بها في سورية وفي مصر يبقى



وقد ذكر السيد القوتلي في نهاية خطابه الذي أعلن بسوجه مبادئ الميثاق ، « أنه يرى من واجبه أن يكون المواطن الاول ، في الدولة الجديدة ، يرشح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا لها ، ثقة منه باخلاص الرجل العربي المؤمن الذي تعقد عليه الامة أكبر الآمال ، وتقديرا لما يتستع به من صفات النزاهة والجرأة والاقدام ، وعلى رأسها تفانيه في خدمة أمته ، وقوميته العربية » .

وقد توجه السيد القوتلي بالشكر الى رئيس وأعضاء مجلس النواب السوري الذين مثلوا شعبهم خير تمثيل ، وتوجوا أعمالهم القومية الباهرة ، بقرارهم التاريخي في وحدة مصر وسورية ، مع أن تفويض المجلس للحكومة كان يدعو لاقامة اتحاد فيدرالي . كما أشاد برئيس الحكومة المجدة العاملة ووزرائها ، الذين بلغوا في مباحثات الوحدة القومية مع مصر العزيزة أوج التوفيق والنجاح وكتبوا بأقلامهم وثيقة الحرية والوحدة . ولم ينس سيادة الرئيس



ساري المفعول في النطاق الاقليمي المقرر له عند اصدارها . ويجوز الفاء هذه التشريعات أو تعديلها .
حادي عشر - تبقى أحكام المعاهدات والاتفاقيات الدولية المبرمة بين كل من سورية ومصر وبين الدول الاخرى سارية المفعول في النطاق الاقليمي المقرر لها عند ابرامها وفقاً لقواعد القانون الدولي .

ثاني عشر - تبقى المصالح العامة والنظم الادارية القائمة معمولاً بها في كل من سورية ومصر الى أن يعاد تنظيمها وتوحيدها بقرارات من رئيس الجمهورية .

ثالث عشر - يكون المواطنون اتحاداً قومياً للعمل على تحقيق الاهداف القومية ولحث الجهود لبناء الامة بناء سليماً من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتبين طريقة تكوين هذا الاتحاد بقرار من رئيس الجمهورية .

رابع عشر - تتخذ الاجراءات لوضع الدستور الدائم للجمهورية العربية.

طبعاً دور الجيش العربي السوري الفتى الذى كان خير عامل من عوامل تحقيق الوحدة القومية بين جيشى الجزئين العربيين المناضلين . ولم ير سيادة الرئيس من المناسب أن يشير الى دور بعض ضباط الجيش السوري الذين تطوعوا بأنفسهم للذهاب الى القاهرة لمقابلة الرئيس المصرى حيث ، هكذا بكل بساطة ودفعة واحدة ، استطاعوا هم وایاه وبقدرتهم وخبرتهم الانقلابية قلب الاتحاد الى وحدة .



ان النائب الوحيد الذى كان مهتماً نفسه لمناقشة الميثاق التاريخى الذى أعلن من القاهرة منذ خمسة أيام ، وقبل موافقة مجلس النواب السوري عليه ، كان السيد خالد بكداش زعيم الحزب الشيعى ، غير المرخص ، وقد اضطر لمغادرة البلاد عشية عقد الجلسة التاريخية التى كانت خاتمة عهد المجلس النيابى الذى كان عضواً فيه ، بعد أن أفهم صراحة بأنه لن يعطى الفرصة لمعارضة الميثاق ، وحتى للكلام . وكان ذلك المنع فاتحة لعهد سرى فيه تعطيل حرية الرأى والتعبير ، على المواطنين كافة ، وحتى على الوزراء ، الا من أسهم من خلال أجهزة الاعلام النشيطة القوية فى التمجيد بالعهد الجديد ، لا وفق السياسة التى يرسمها المجلس التشريعى الذى لحظ الميثاق وجوب تشكيله من نصف أعضاء مجلس الامة المصرى ومجلس النواب السوري ، لان هذا المجلس لم يجر تشكيله الا فى وقت متأخر جداً ، وبشكل مخالف لاحكام الميثاق الذى اعتبر بمثابة دستور مؤقت للجمهورية العربية المتحدة ، بل وفق السياسة العليا المرسومة بمعزل عن الشعب ، أو بالحري وفق أهواء المتسلطين على مراكز القوة الذين كانوا يدأبون على العمل فى الظلام كالاشباح ، والذين كان بعضهم مولعاً ولعاً كبيراً بتسيير شؤون الدولة وفق ما يوحى اليه فى جلسات تحضير الارواح .

حلم في عالم الارواح

« للسلطان نشوة تستخف أصلب
النفوس ، كما تستخف الخمر أقوى
الرؤوس ، ولذلك ينبغي أن ندرك
أن ليس هناك رجل ، مهما بلغت
حكيمته أو قوة خلقه ، جديراً بأن
يؤتمن على سلطان مطلق » .

« كولتون »

بعد أن جرى تعطيل المجلس النيابي السوري ، بمناسبة قيام
الجمهورية العربية المتحدة ، كان من المنتظر أن يجري تشكيل مجلس
الامة المبحوث عنه في الدستور المؤقت خلال فترة قصيرة . ولكن الذي
حصل هو أن استغل الحدث العظيم ، للتخلص من المجلسين معا ،
مجلس النواب السوري ومجلس الامة المصري . وانفرد السيد رئيس
الجمهورية بممارسة السلطين التشريعية والتنفيذية معا في غياب
المجلس التشريعي .

وانصرفت في ذلك الحين لعملي في مكتبي ، وصباح السابع من

شهر تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٥٨ ، وبينما كنت في القصر العدلي ،
جاءني موظف من ديوان وزارة العدلية يعلنني بأن السفارة المصرية
في دمشق تسأل عني بالحاح وتطلب الاتصال معها بأسرع ما يمكن ؛
فاستغربت الامر وأفهمت الموظف العدلي ، بأنه بعد قيام الوحدة بين
مصر وسورية لم يعد ثمة وجود لسفارة مصرية ، وان الامر قد يكون
مجرد دعاة • ولكن الموظف اللبق تركني ورجع الى مقر وظيفته ،
ثم عاد بعد قليل ليعلنني مجددا أن السفارة عادت تلح في طلب
مكالمتي ، وأن المتكلم المصري ينتظرني على الهاتف • فطلبت من
الموظف الحصول على رقم هاتف المتكلم ، لاتحدث معه عندما
أفرغ من رؤية دعاوي • وبعد ذلك اتصلت بالرقم المعين ، وسألت
عن صاحبه ، فورد الجواب بأنه السفارة المصرية ؛ ولما استوضحت
عن سبب السؤال عني ، كلمني موظف مصري ثان وأبلغني دعوة
سيادة رئيس الجمهورية لمقابلته في القاهرة ، وأن طائرة خاصة ستقلني
الى عاصمة الجمهورية العربية المتحدة وهي باتطاري في مطار المزة •

توجهت الى مطار المزة ، فوجدت عددا من كبار أساتذة
الجامعة وهم الدكتور بشير العظمة ، والدكتور شوكة الفواتي ،
والدكتور أمجد الطرابلسي ، والدكتور وجيه السان ، والدكتور
عبد الوهاب حومد الذي كان وزيرا للعدل في الوزارة الاولى المشكلة
بعد قيام الوحدة • وكان هؤلاء قد تلقوا دعوة مثلي للمثول أمام
السيد رئيس الجمهورية ، وكان واضحا أن الدعوة وجهت لهم
بصد المباحثات الجارية في القاهرة ، لاعادة تشكيل الوزارة •

وكان في الوزارة السابقة بعض العسكريين ممن أسهموا فيما
مضى بتعذيبي عندما اعتقلت قبل ثماني سنوات في عهد الديكتاتور
الشيكلي • لذلك عولت على الاعتذار عن قبول الاشتراك في
الوزارة اذا كان القصد جمع الجلادين والضحية في وزارة واحدة •

ولكن في القاهرة علنا ، وقبل مقابلة السيد الرئيس ، بأن
تشكيل الوزارة الجديدة يجري في اتجاه اقامة عدة مجالس للوزراء،
وزارة مركزية ومقرها القاهرة ومجلسين تنفيذيين ، واحد للاقليم
الجنوبي والثاني للاقليم الشمالي ، وأن الوزيرين اللذين نقرت من
فكرة مزاملتهما في وزارة واحدة قد أضحيا أعضاء في الوزارة المركزية
التي سيكون مقرها القاهرة .

ولدى تشرفي بمقابلة السيد رئيس الجمهورية في الموعد المحدد
لي في المساء ، استقبلني سيادته بحفاوة تامة . وقد بهرتني شخصيته
القوية ، وحديثه الممتع الجذاب . وأعلمني بأنه اختارني لأكون وزيرا
للثقافة والارشاد القومي ، وأنه بالإضافة لذلك سيوليني ثقته الخاصة
بتكليفني ، اضافة للوزارة ، بمعالجة مشكلة شائكة تشغل باله
ويريد لها حلا نهائيا ، وهي مشكلة الصحافة في الاقليم السوري .



وفي الاجتماع الكبير الذي عقد في قصر القبة في القاهرة برئاسة
سيادة رئيس الجمهورية وعضوية جميع الوزراء المركزيين والتنفيذيين
في كل من الاقليمين الجنوبي والشمالي ، أثير موضوع مؤامرة حلف
بغداد وما كشف عنه انقلاب الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨
من وثائق ومستمسكات تدين عددا من السياسيين السوريين وبعضا
من ضباط الجيش الذين كانوا على علاقة بالحلف المذكور ، وخاصة
بسلطات الحكم العراقية . وكان السيد وزير الداخلية التنفيذي
للاقليم الشمالي يحذر من أنه لا يستطيع ضبط الموقف وحفظ الامن
العام ما لم تتخذ تدابير فورية بحق من كشفت المستمسكات عن دورهم
في مؤامرات الحلف البغيض .

وكان سيادة الرئيس حريصا على معرفة آراء الوزراء السوريين
في مسألة الحلف المشار اليه ، وعلاقة بعض العناصر السورية به من
مدنيين وعسكريين .

فأخذ كل من الوزراء السوريين يدلي برأيه في الموضوع من الزاوية الخاصة التي ينظر منها للامور العامة •

وقد حاول وزير العدل التنفيذي للأقليم الشمالي التخلص بلباقة من الاجابة ، بحجة أنه وزير فني ، لا يهتم كثيرا بالشؤون السياسية ، ولا يمارس أي نشاط سياسي ، فلم يقبل منه سيادة الرئيس هذا العذر ، ورد عليه بأن مجرد قبوله منصب الوزارة ووجوده في هذا الاجتماع الوزاري قد جعله مسؤولا سياسيا عن معالجة القضايا الراهنة • فاضطر السيد الوزير لابتداء رأيه في الموضوع المطروح على بساط البحث بشيء من الاقتضاب •

ولما جاء دوري تكلمت بصراحة قائلاً : « كان من المنطقي تماما عندما قامت الوحدة المباركة ، بين القطرين العربيين ، أن يصدر قانون بالغفو العام عن جميع الجرائم السياسية الواقعة قبل هذا الحدث العظيم • ولكن أما وان جو البلاد أضحى مشحونا بالخطر أكثر من ذي قبل وبدأت المؤامرات تحاك ضد سلامة الجمهورية المتحدة ، كما أوضح السيد وزير الداخلية ، فأرى من المصلحة حسما لاي جدال حول موضوع مؤامرات حلف بغداد ، أن يحال من يكشف التحقيق القضائي عن اشتراكهم فيها الى المحاكم المختصة لتتولى محاكمتهم ، فتدين المجرم وتخلي ساحة البريء ، وبذلك يمكن وضع حد للشائعات المغرضة ، ولما تنشره الصحف السياسية حول الكثيرين من السياسيين والعسكريين السوريين » • ولم يسعني تجاه ما كانت تردده بعض الصحف القاهرية من أخبار ، وما تثيره من شكوك حول علاقة بعض العناصر الوطنية بالحلف الاستعماري المشؤوم ، الا أن أؤكد أن بعضا من تناولتهم الصحافة بالتشكيك ، هم وطنيون مخلصون وصادقون في وطنيتهم ، وربما كان بعضهم أكثر وطنية من بعض الحاضرين في هذا الاجتماع •

ونظرا لان السيد صبري العسلي الذي استقال من منصب نائب رئيس الجمهورية قبل أيام ، كان هدفا لغزوات تلك الصحف ، فقد ذكرت في سياق الكلام أن السيد العسلي كان زعيما لاحد جناحي الحزب الوطني المنقسم على نفسه ، وان جناح السيد العسلي كان يسير قبل قيام الوحدة في الاتجاه التحرري الذي سارت عليه الحكومة السورية السابقة المنبثقة عن التجمع الوطني البرلماني ، القائم على محاربة سياسة الاحلاف الاستعمارية ، والهادف الى التقارب مع الدول العربية المتحررة والى تحقيق وحدتها ، ولذلك فاني أستبعد أية علاقة بالحلف الاستعماري لهذا الجناح من الحزب الوطني ، أو لاي من قادته الذين كان من بينهم وزير الدولة السيد فاخر الكيالي ، الذي كان حاضرا الاجتماع ومشاركاً في المناقشة التي دارت حول هذا الموضوع الحساس .



وكم كانت دهشتي بالغة عندما زارني صديقي المحامي الاستاذ أسعد الطباع بعد مدة ، وأبلغني أن السيد صبري العسلي عاتب علي عتبا شديدا لموقفي العدائي منه في الاجتماع الوزاري الذي عقد في القاهرة . ولما استطلعت عن أسباب ذلك العتب ، روى كيف أن السيد فاخر الكيالي زار السيد العسلي ، في داره ، وأطلعته على تفاصيل الاجتماع الكبير وطلب منه التوجه معه الى القاهرة لمقابلة سيادة رئيس الجمهورية لشكره على موقفه الايجابي منه ودفاعه عنه وحياته له من انشودة المشنقة التي طالب بوضعها حول عنقه بعض الوزراء السوريين ، وخاصة منهم الوزير رياض المالكي .

فأجبت السيد الطباع : « ان سيادة الرئيس ذكر فعلا في معرض الحديث عن السيد العسلي أنه قبل استقالته من منصب نائب رئيس الجمهورية بعد أن اطلع منه على الحقائق السياسية التي تتصل بسوقف حكومته وحزبه من حلف بغداد . أما بالنسبة لشخصي ،

فلست أنا الذي أثرت موضوع الحلف وعلاقة السيد العسلي به ، ولم يجبر بحضوري وعلى مسمع من جميع الوزراء الخمسين الذين كانوا يحضرون تلك الجلسة الهامة ، أي إثارة أو تحريض من أحد ضد السيد العسلي بشكل خاص . وإن كلامي لم يقتصر على الدفاع عن السيد العسلي ، بل أكثر من ذلك فاني قد أشدت بدوره وبوطنية الجناح الذي كان يتزعمه والذي كان يضم من بين أعضائه الرسول الأمين السيد فاخر الكيالي » •

فقال لي السيد الطباع : « مادام الامر كذلك ، أرى من المفيد أن تتصل بالسيد العسلي شخصيا لتطلعه على حقيقة الامر ؛ فإن سعيت لزيارته في داره فستكون الزيارة مفيدة جدا لازالة هذه البقعة القاتمة من جو العلاقة بين السيد العسلي الذي يكن لك كل محبة وبينك ؛ وإن أردت فسأجمعكما في داري » •

فقلت له : « ان السيد العسلي رجل دولة متمرس ، وسياسي محنك ، وليس من الغفلة في شيء ، حتى تنطلي عليه واحدة من الروايتين المتناقضتين ، رواية السيد الكيالي أو روايتي أنا » • وهو كئأب رئيس جمهورية سابق ، يستطيع أن يطلب الاطلاع وبشكل رسمي على المحضر المنظم بوقائع تلك الجلسة الخطيرة التي دار البحث فيها حول موضوع الحلف الاستعماري المشؤوم ، الذي كان يستهدف أول ما يستهدف شق صفوف العرب وضربهم ببعضهم • وعندما تظهر الحقيقة المجردة أمام ناظره ، سوف يعرف ماذا قلت بحقه وبحق غيره ، وبعد أن يطلع سيادته على ذلك سوف لن أتردد في زيارته وبدون أدنى حرج » •

ولكن السيد العسلي لم يقيم بزيارة القاهرة ولم يسعه الاطلاع على مضمون المحاضر ، وإن كانت الدسيسة التي أثارت حفيظته

ضدي ، وكانت على مستوى وزاري ومن مصدر مركزي جعلته
يضيف تجربة سياسية من نوع جديد الى تجاربه السياسية المتعددة •

★ ★ ★

نوه سيادته في مقابلي الثانية له عن الالهية الكبرى التي
يوليها لأجهزة الاعلام ، وأكد أنها ، في نظره ، أهم من القوات
المسلحة ، لأن الحرب الدائرة بين العرب واليهود هي حرب نفسية
دعائية تلعب فيها أجهزة الاعلام الدور الاكبر ، أما بالنسبة للقوات
المسلحة فلا دور كبير لها في مثل هذا الظرف الذي تسر فيه القضية
العربية •

ولما لمح سيادة الرئيس على وجهي علائم الاستغراب ، لسماحي
مثل هذا الكلام ، من رجل عسكري احتل المركز الاول ومكان
الصدارة ، لا في قيادة الشعب المصري وحده ، بل في زعامة الامة
العربية كلها ، وقلوب العرب أجمعين وقد أصبحوا يعلقون على
قيادته أكبر الآمال في الاعداد الحربي للقضاء على دولة العدوان ،
قال سيادته : « ان العرب لن يقووا على محاربة اسرائيل ، مادامت
حكومة الولايات المتحدة الاميركية تقف الى جانبها بكليتها ، لا تكفي
بتزويدها بالمساعدات من جميع الانواع ، بل هي متأهبة وبشكل
دائم لحمايتها ضد أي حرب هجومية من جانب العرب ، بل أكثر من
ذلك ، انها على أتم استعداد لخوض المعركة الى جانبها ولارسال
جيوشها وأساطيلها للذود عن كيانها ، في حين أن الاتحاد السوفيتي
يحجم عن مجارة أمريكا في هذا السبيل بالنسبة لموقفه من أصدقائه
العرب ، وان أقصى حدود دعمه لهم يقتصر على مدهم بالمساعدات
الاقتصادية والسلاح فقط » ••

وللتدليل على وجهة نظره هذه ، مد سيادة الرئيس يده الى

جيب سترته ، وأخرج حافظة نقود صغيرة حمراء ، فتحها وسحب منها البرقية التي كان أرسلها له من موسكو السيد شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية السابق ، عندما قام بزيارته المشهورة الى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٦ ، وبصحبه السيد صلاح الدين البطار الذي كان وزيرا للخارجية آنذاك . وأطلعني على نص البرقية التي أوضح فيها الرئيس السيد القوتلي حقيقة موقف الاتحاد السوفيتي ابان العدوان الثلاثي الذي شنته دول انكلترا وفرنسا واسرائيل على الاراضي المصرية أثناء وجود الوفد السوري في العاصمة السوفيتية . وكانت البرقية تلخص استعداد السوفيت لدعم حكومة مصر بالمساعدات الاقتصادية والسلاح فقط ، دون خوض المعركة الى جانب القوات المصرية .

وشدد سيادة الرئيس على خطورة هذه البرقية ، وذكر أنه بالنظر لسريتها ، وأهميتها الفائقة فانه يقيها معه شخصيا ، وبشكل دائم ، من دون سائر الوثائق الرسمية التي تحفظ عادة في مكاتب الرئاسة لتضم الى « أرشيف » الدولة . وأكد سيادته أنه سيحفظ بهذا السر لحين وفاته ، وبعدئذ يترك مستنده الخطير ليقى في ذمة من يتولون شؤون الدولة بعده . وشدد سيادته في كلامه على ضرورة عدم البوح بهذا السر حذرا من تسربه الى دوائر الاعداء نظرا لانه يتعلق بستراتيجية الموقف العربي لا بل بمصير الامة العربية كلها .

ولكن كم كانت دهشتي عظيمة ، بعد أسابيع قليلة عندما وقف سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، في ميدان بور سعيد ، يخاطب جماهير الشعب المحتشدة ، يوم عيد النصر ، منددا بموقف الاتحاد السوفيتي من العرب أيام حرب قناة السويس في عام ١٩٥٦ ، وانسياقا منه مع موجة الحماس التي اكسحت نفوس تلك الجماهير الصاخبة الناقمة ، نقمة قائدها على الشيوعيين والساخطة

على بلد الشيوعية الام ، أخرج سيادته من جيب سترته ومن الحافظة الحمراء ذاتها ، برقية الرئيس السوري الموجهة اليه من موسكو ، وبعد تلاوة مضمونها الحرفي ، صار يلوح بالبرقية اياها في الهواء ، وتابع خطابه مهاجما العدو الاستعماري الجديد الذي يتلبس لبوس الصداقة ، وساخرا بشكل خاص من السيد نيكيتا خروتشوف ، رئيس حكومة الاتحاد السوفيتي آنذاك • ولا أدري في الحقيقة فيما اذا كان لهذا الهجوم الكلامي الصاعق على حكومة الاتحاد السوفيتي الصديق ، وعلى الحزب الشيوعي السوفيتي ، وعلى زعامته ممثلة بشخص السيد خروتشوف ، الاثر في حمل تلك الزعامة على منح سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، بعد فترة غير طويلة من حيلته المعادية تلك ، وسام لينين الرفيع ولقب بطل الاتحاد السوفيتي العظيم •



دعاني السيد صلاح الدسوقي ، السكرتير الاول لرئاسة مجلس الوزراء والذي عين فيما بعد محافظا للقاهرة ، الى حفلة صغيرة في داره العامرة ، ودعا اليها كلا من الفريق المتقاعد السيد عزيز علي المصري ، الذي لعب دورا كبيرا في الكفاح العربي منذ مطلع القرن العشرين ، والفريق عفيف البزري الذي أقبل قبل فترة من منصبه كقائد للجيش الاول في الاقليم السوري وفرض عليه البقاء في القاهرة حيث جرى تعيينه عضوا في المجلس الاعلى للتخطيط •

وكان الفريق عزيز المصري ، يبدو خفيف الظل ، نشيط الحركة رغم تجاوزه الثمانين من عمره ، يسأل الدار مرحا وجبورا ، وكان واضحا من حديثه أنه مؤيد لنظام الحكم ، ولخطواته الثورية • أما الفريق البزري فكان عابسا ، متجهما الوجه ، قليل الكلام ، متحفظا

في حديثه ، بينما كان المضيف السيد الدسوقي ، في منتهى الذوق والكياسة .

وفي صباح اليوم التالي ، ذهبت لمقابلة السيد رئيس الجمهورية في داره الكائنة في منشية البكري ، فبادرني بالسؤال عن الفريق البزري وعما اذا كنت ألتقي به ، فأجبت أنه الرجل صديق شخصي لي ، وأني كنت مدعوا وإياه في الامس على مأدبة السيد الدسوقي . فسألني عن رأيي فيه وعن اتجاهه السياسي ، فأجبت بأن الرجل عنصر وطني تقدمي ذو نزعة يسارية . فعاد لسؤالي : هل هو شيوعي ؟ أجبت : « لا أظن أنه شيوعي ، وفي الاصل ان تنظيم الشيوعيين سري ، وتشكيلاتهم مكتومة ، لا يتسنى للسرء معرفتها أو الاطلاع عليها . ومع ذلك اني أعتقد بأن الفريق بزري ليس شيوعيا » .

فعلق السيد الرئيس على كلامي ، بأنه مطلع على جميع تشكيلات الشيوعيين في الاقليم السوري ، وأنه لا يخفاه شيء من نشاطهم وأسرارهم . وكان من عادة الرئيس أن يستقصي المعلومات من زائريه عن الاشخاص الذين يهتم بمعرفة أحوالهم ، وأوضاعهم ، ونشاطهم ، كما يهتم بمعرفة آراء أوساط معينة بشخصه وحكمه . ومن جملة الاوساط التي كان يحرص على معرفة أخبارها ، مقهى البرازيل المشهور في دمشق ، ورواده الظرفاء ، وتعليقاتهم الذكية ، ونكاتهم اللاذعة . وقد سألني مرة : « يحكوا ايه في مقهى البرازيل؟ » فأجبت باختصار بأنني لست من رواد هذا المقهى وبأنني لا أهتم كثيرا بما يدور بين سماره من أحداث .

★ ★ ★

وفي المقابلة التالية ، لأمني السيد الرئيس على الخطاب الذي ألقته في الاحتفال الرسمي والشعبي الذي أقيم في ناحية النشائية

التابعة لمنطقة دوما ، لدى افتتاح المركز الاجتماعي الذي أسسته ، في قرية حران العواميد ، وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بمساعدة وإشراف الجامعة العربية ، كما ندد سيادته بخطابات باقي الوزراء والخطباء الذين انتقدوا في كلماتهم موقف الشيوعيين السليبي من قيام الوحدة بين القطرين •

فقلت لسيادته بأن الكلمات في الحقيقة ، لم تخرج عن حدود النقد الإيجابي البناء ، وكان الهدف منها دعوة مواطنينا جميعا للالتفاف حول الوحدة وحكومتها ورئيسها الأعلى ، والإسهام مع سائر فئات المواطنين في توطيد دعائم دولتها الفتية •

ولكن السيد الرئيس لم يقنع بكلامي ، واعتبر أن المهرجان الخطابي ، كما صورته تقارير المخابرات ومن بينها تقرير السيد وزير الشؤون البلدية والقروية الذي توجه الى القاهرة خصيصا لرفعه ، قد أفسد عليه خطته في توقيت المعركة مع الشيوعيين ، مع أنه لم يكن يخطر ببال أي من الوزراء الخطباء أن تكون السلطات العليا تتأهب لخوض المعركة مع الشيوعيين أو مع غيرهم ، وتعد العدة سلفا للزج بالاعداد الغفيرة من أبناء الشعب في السجون ، بعد أن كانت وزارة الداخلية في الاقليم السوري تغض النظر عن نشاط الشيوعيين المتزايد ، وتعطي الحزب الشيوعي ، غير المرخص ، الفرصة الكاملة لعقد اجتماعاته العلنية وتنظيم احتفالاته ومهرجاناته الخطائية التي كان السيد وزير الداخلية يحرص ، كل الحرص ، على رعايتها وحضورها بنفسه •

كان يجري ذلك النشاط الشيوعي الواسع ، في وقت كانت فيه باقي الاحزاب السياسية كلها غائبة عن المسرح ، بعد أن حلت نفسها بنفسها ، نزولا عند رغبة وشروط السيد رئيس جمهورية مصر لدى موافقته على توحيد البلدين •

وقد اتضح فيما بعد ، أن الغاية من تشجيع الشيوعيين على
المجاهرة بتصيد نشاطهم وتنشيط حركتهم ، هو كشف قواعدهم
وقياداتها معا ، تسهيدا لضربها وتصفيتها •

وقد ظل السر الكبير الذي حير دوائر الامن التابعة لوزارة
الداخلية المركزية ، هو الكيفية التي نجا بواسطتها قادة الحزب
الشيوعي من الفخ المنسوب لهم ، حيث تمكن القسم الاعظم منهم
من الفرار ومغادرة البلاد ، بينما انصبت موجات الاعتقال والتشكيل
على رؤوس أعضاء قواعد الحزب الشيوعي وأنصاره ثم امتدت
حتى تناولت غيرهم من المواطنين •



لقد كانت تنحية الفريق عفيف البزري عن قيادة الجيش الاول،
واستقصاء المعلومات عن أحوال المواطنين ، وأوضاعهم ، وميولهم ،
ونشاطاتهم ، فاتحة عهد أقصى فيه عدد كبير من الضباط الوطنيين
عن الجيش ، وزج بعدد وفير منهم في السجون ، تحت ستار محاربة
العناصر الشيوعية والنشاط الشيوعي • وربما كان خطأ الشيوعيين
في أنهم اتخذوا موقفا سلبيا من قيام الوحدة ، تحت شعار الدفاع
عن الحريات الديمقراطية ، وكأنهم أسهموا بشكل غير مباشر باعطاء
الفرصة لشن حملة الارهاب الواسعة التي لم يقتصر أثرها عليهم ،
بل انما أدت من حيث النتيجة الى تناول جميع العناصر الوطنية
وامتدت حتى تناولت جميع المواطنين على السواء ، الا من التزم بيته،
أو هجر بلده ، أو سمح لنفسه بأن يصبح جزءا من الاجهزة الخفية،
أجهزة المخابرات ، وقد اتسمت أساليبها بالوحشية البربرية ، كما
اعتمدت على دعم المخابرات الامريكية وما استقدمته من خبراء نازيين
مختصين في فنون الارهاب والتعذيب •

وقد أخذت الحملة في أجهزة الاعلام ضد الشيوعيين عامة ،
وضد حكم الزعيم عبد الكريم قاسم في العراق خاصة ، شكلا ناييا ،
بلغ حد السباب والشتائم ، ولم تقتصر على الاذاعة والصحافة ، بل
انما اوضحت المراكز الثقافية التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي
مسرعا لحملات الشتم والردح ، فخرجت بذلك عن الدور الثقيفي
المرسوم لها •

وكانت المراكز الثقافية ، المنتشرة في بعض المحافظات ، مرتبطة
في الاصل بالسفارة المصرية في دمشق ، ثم ألحقت بعد قيام الوحدة
بوزارة التربية ؛ وظل الاشراف عليها خاضعا عسليا لوزارة التربية
في الاقليم الجنوبي وبشكل خاص لتوجيه المخبرات ، الى أن أحدثت
وزارة الثقافة في الاقليم الشمالي فصار الحاق تلك المراكز بها بناء
على طلبي واصراري •

لذلك وجدت من الضروري دعوة المشرفين على تلك المراكز
لحضور اجتماع عقد في دمشق ، لاحكام ربط نشاطها بالوزارة ،
لان بعض المدراء أو معاونيهم من أبناء الاقليم الجنوبي المعينين في
تلك المراكز ، قبل ربطها بوزارة الثقافة ، ظلوا يتصرفون وكأنهم
مستشارون سياسيون ، وباعتبارهم جزءا من السلطات الخفية التي
تريد أن تتحكم بكل شيء ، دون أن يتقيد موظفوها بواجبات الوظيفة
وبالانضباط المسلكي ، حسب القوانين والانظمة المحلية التي أوجب
الدستور المؤقت احترامها •

وكان من أبرز نقاط جدول الاعمال المعد لذلك الاجتماع ،
هو توجيه النشاط الثقافي في اتجاه العلم والمعرفة ، وتنشيط الحركة
الثقافية والفنية بمعزل عن أحابيل السياسة ومتاهاتها • وقد أوصيت
الجميع بأن يسهروا على الابتعاد عن المعارك السياسية ؛ وبأن يتجنبوا
انزلاق المراكز الثقافية في هوة الحملات الكلامية الهوجاء التي لا

تضعف من قوة الحركة الشيوعية ، بل انما تورث المثقفين والرأي العام النفور والاشمئزاز •

وبينت أن السبيل الاوحد لمقاومة التيارات الفكرية المعادية لفكرة القومية العربية ، هو في التركيز وبشكل ايجابي على المبادئ القومية التي تقوم عليها حركة النضال العربي ، لان الفكر السياسي لا يجابه الا بفكر أعظم ، محذرا من مغبة اتباع الاساليب السلبية أو العنيفة ، لان العنف لا يجر الا العنف ، منها الى الالتزام بواجب أساسي ، وهو أن نجنب مجتمعنا المعارك الجانية التي تلهي أبناءه عن العمل الايجابي الخلاق ، وتشتت جهود المواطنين دون طائل •

ولكن بعض المدراء ومعاونيهم من العناصر المرتبطة بأجهزة المخابرات ، استغلوا ذلك التوجيه الصريح الذي رسمته ، ليرفعوا التقارير السرية وينشروا في المحيطات التي يعملون في وسطها ، بأن وزير الثقافة شيوعي أحمر ، وأن توجيهاته مناهضة لسياسة الدولة •

ولم يكن فشل تلك السياسة الرامية الى محو الشيوعية ، بأقل من فشل الوزارة ، التي كان لي شرف تأسيسها ، في برامجها الرامية الى محو الامية •

وعلى ضوء ذلك الفشل الذريع الذي خرجت به الخطة الامريكية في ضرب النشاط الشيوعي عن طريق الاضطهاد والارهاب والتنكيل والسجون ، عدلت السياسة الامريكية خطتها ولجأت في المستقبل وعن طريق الحكومات الموالية لها أو التي هي من صنعها ، لاتباع أسلوب توظيف اليسار الشيوعي واغراق عناصره البارزة والنشطة في المناصب الحكومية والوظائف الرسمية والمكاسب المادية والاغراءات النفعية ، وتمكنت ، بهذه الطريقة الناجعة ، من اضعاف الحركة الشيوعية وتفقيتها ، بخلق التناقضات الطبقية بين أعضائها

وأنصارها ، وضربهم ببعضهم ، وخلق الانقسامات العديدة في صفوفهم ؛ وحقت بذلك نجاحات كبيرة أضحت آثارها وتائجها بادية للعيان •



توجهت الى القاهرة وكان قد مضى أكثر من شهرين على تشكيل الوزارة ، والتقيت بوزير الصحة المركزي ، وسألته عن أحواله وعن سير شؤون وزارته • فشكا أنه لم يتسن له ، حتى الآن ، التعرف على أي شأن من تلك الشؤون ، لأن وزارته محدثة وليس لها أي نظام أو جهاز ، وأنه يستغرب كيف دعي للاسهام في الحكم ، في الوقت الذي يلاحظ فيه أنه ليس له أية مهام أو صلاحيات يتولاها • وقال انه ليس رجلا سياسيا ، وليست له أية علاقة بالاحزاب السابقة في الاقليم السوري ، فلو ترك لعمله الاساسي كأستاذ في الجامعة ، وكطبيب صاحب عيادة ، لافاد المجتمع أكثر من وجوده في منصب وزاري لا عمل له فيه • فسألته : « ولماذا لا تقابل سيادة رئيس الجمهورية وتبحث معه مسألة تحديد صلاحيات الوزارة المركزية وتقدم لسيادته مشروعا بتنظيم أجهزة ودوائر الوزارة وتعيين وظائفها ، كما جرى بالنسبة لوزارة الثقافة والارشاد القومي التي أحدثت أخيرا وسميت أنا وزيرا لها في الاقليم الشمالي ؟ » •

فأجاب بأنه طلب أكثر من مرة مقابلة سيادة الرئيس ، ولكنه لم يحدد له موعد لذلك حتى الآن رغم مضي هذه المدة الطويلة على تسميته وزيرا • فقلت له : « ربما كان موظفو قصر الرئاسة الذين طلبت المقابلة بواسطتهم لم يبلغوا سيادة الرئيس ذلك ، اما عن اهمال أو لكثرة الاعمال » • فعقب على كلامي قائلا : ان المسعى لم يقتصر على موظفي الرئاسة ، اذ أنه ومنذ أكثر من شهر قابل زميله السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة وأظهر له عدم رضاه عن الحالة التي

هو فيها ، وأن وزير الدولة وعده خيرا ، ولكنه حتى الآن لم يلتق
منه خبرا ، سليا أو ايجابيا . فوعده بأنه أبحث المسألة مع سيادة
رئيس الجمهورية ، لدى مقابلي له في الموعد المحدد في اليوم التالي .
وفعلا لدى اجتماعي بسيادة الرئيس ، سألني عن الاحوال في الاقليم
الشمالي ، فأجبت : « يصح أن تسألوني عن أحوال الاقليم الجنوبي ،
فنظر الي ، والدهشة بادية على وجهه ، مستطلعا الخبر ، فأردفت قائلا :
« أرى من الضروري أن تلتقوا سيادتكم بالوزراء المركزيين السوريين
الموجودين في العاصمة لتستطلعوا منهم أخبارهم وتطلعوا على
أحوالهم » فأكد سيادته بأنه يلتقي دائما بمن يطلب منهم مقابله ،
فأردفت : « ان وزير الصحة المركزي لم يحظ بهذه المقابلة ، رغم
سعيه الحثيث لها ، منذ أكثر من شهر » . فففى سيادته أن يكون أحد
ما قد أطلعه على رغبته هذه . قلت : « ولكن الوزير المركزي قابل
زميله وزير الدولة لشؤون الرئاسة ، ورجا منه السعي لتحديد موعد
لمقابلة سيادتكم » . وتجاه هذا الالاحاح من جانبي على هذا الموضوع ،
قال سيادته وبلهجة جافة : « أنا لا أريد مقابلة وزير الصحة المركزي ،
أنا ما عنديش وقت أضيعه بالدردشة مع الوزراء . ان نائبى المشير
عبد الحكيم عامر عندما يقوم بمقابلي ، يقصر بحثه معي على المواضيع
المحددة للمقابلة ولا يتعداها لغير ذلك من الامور الخارجة عن الصدد ،
رغم كونه صديقا شخصيا لي » . قالها سيادته بنبرة قاسية ، وكأنه
يريد أن يفهني أنني تجاوزت حدود الدائرة المرسومة لي . فكففت
عن متابعة الحديث حول الموضوع المتعلق بوزارة الصحة المركزية ،
وانتقلت الى بحث الامور المتعلقة بوزارة الثقافة والارشاد القومي
وخاصة ما يتعلق بشؤون الصحافة في الاقليم السوري التي اعتمد
علي السيد الرئيس شخصيا لمؤازرته في معالجتها ، حسب الخطة
المرسومة قبل اشتراكي في الوزارة والتي شرحها سيادته في الاجتماع

الوزاري الكبير الذي عقد اثر تشكيل الوزارة الثانية في أوائل
تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٨ •

★ ★ ★

زارني في فندق سبير اميس في القاهرة السيد محمود رياض
المستشار الخاص لدى رئاسة الجمهورية ، وقد كان سابقا سفيرا لمصر
لدى حكومة الجمهورية السورية ، وقد أسهم بشكل بارع في دفع
السياسة السورية للتعجيل باقامة الوحدة بين القطرين العربيين
المصري والسوري • وكانت هذه أول مرة ألتقي فيها بهذا الدبلوماسي
العربي الذي يتحلّى بكثير من اللطف واللباقة ، فظننتها بادية الامر
زيارة تعارف • ولكن بعد تبادل عبارات المجاملة التقليدية ، فاتحني
سيادته بأنه يود أن يبحث معي موضوعا خاصا ، يهمه شخصا ، وهو
يتعلق بالسيد أحمد عسة صاحب جريدة « الرأي العام » التي كان
جرى تعطيلها بأمر اداري قبل اشتراكي في الوزارة • ورجاني أن
أسعى مع سيادة الرئيس ، لدى مقابلته ، بأن ألطف الجو بينه وبين
السيد عسة وبأن أسعى للافراج عن صحيفته ، ولو مؤقتا ، ريثما
تتم معالجة قضايا الصحف حسب السياسة المرسومة ، فيخضع آنئذ
صاحب « الرأي العام » لما يخضع له أصحاب باقي الصحف السورية •
وفسر لي السيد رياض اهتمامه بأمر هذه الجريدة ، بأن صاحبها
ساهم في تقديم خدمات كبرى للسفارة المصرية في دمشق قبل قيام
الوحدة • فسألته بصراحة : « ولماذا لا تقوم أنت بهذه الشفاعة لدى
سيادة رئيس الجمهورية ، خاصة وأنتك ساعده الايمن فيما يتعلق
بشؤون الاقليم السوري ، وشهادتك بسا قدمه صديقك الصحفي من
خدمات سابقة قد تكون مقنعة أكثر من مساعي الشخصي المنشود » •
فأجابني السيد رياض ، وسحابة ظاهرة من الالسم تعلو وجهه :
« عجيب أمركم أيها السوريون ، انكم تعتقدون جميعا أن لا حاجبا
أو بوابا يحول بيني وبين مقابلة سيادة الرئيس • والحقيقة التي لا

أكتبها عنك هي أنه تمضي أسابيع وشهور لا أقابل فيها سيادته الا اذا دعاني لمقابلته ، وآئذ يقتصر البحث بينه وبينني على الامور التي يهتم سيادته ببحثها معي . واذا كنت قد قصدتك أنت بالذات للاهتمام بقضية « الرأي العام » ، فما ذلك الا لانك الوزير المكلف بمعالجة قضايا الصحافة في الاقليم الشمالي ، وسيتسنى لك ، حسب تقديري ، اثارة موضوع هذه الجريدة ، واقتراح الافراج عنها ، ولو لايام ، كي يكون ذلك بمثابة رد اعتبار لشخص صاحبها الذي هو متألم جدا لغضب سيادة الرئيس عليه ، في حين أنه لا يبتغي الا مرضاته ، وأملني أن لا تهمل القيام بهذا المسعى لان أمر السيد عسة يهمني شخصيا وأعتقد أنه يهكم أيضا » . فوعدت المستشار السيد رياض بأن أقوم بذلك اكراما لخاطره ، وقد نفذت وعدي وبذلت مساعي ، ولكن دون تحقيق النجاح الذي كان يشده السيد رياض ..



سألني السيد رئيس الجمهورية في احدى المقابلات قائلاً : « ايه دي حكاية المواطن العربي الاول معاكم ؟ » فحسبت أن هناك ثمة شكوى من جانب رئيس الجمهورية السورية السابق السيد شكري القوتلي حول اساءة ، أو سوء تصرف قد يكون بدر بحقه من بعض مرؤوسي في الوزارة ، أو في أجهزة الاعلام ، ولما استوضحت سيادة الرئيس عن الامر ، قال : « ان أجهزة الاعلام السورية لا تهتأ تكرر اسم وأخبار الرئيس السابق كل يوم وفي مطلع النشرات الاذاعية ، كما لو كان هو الرئيس » .. وأكد سيادته على أن جميع أجهزة الاعلام في الدول الراقية لا تسلط الاضواء الا على الرئيس الاول الذي هو رمز للبلاد . وأوصى سيادته بأنه لا يريد ، من الآن فصاعدا ، أن يتكرر هذا الخطأ .

ولما عدت الى عاصمة الاقليم السوري ، قدرت بيني وبين نفسي

ما سيحدثه مثل هذا التوجيه من مشاكل وعقد في نفس الرئيس السابق وفي الاوساط المؤيدة له ، خاصة وأن مديري الاذاعة والدعاية والانباء هما من أنصاره الشخصيين ولن يلبثا أن يسرعا اليه بحمل خبر السوء ؛ ولذلك أصدرت الاوامر الى كل منها بشكل مطلق ومجرد عن ذكر الاسماء . وأكدت في توجيهي لهما بأن الاضواء لا يجوز أن تسلط ، بعد اليوم ، الا على شخص السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة دون غيره من الاشخاص الرسميين وغير الرسميين ، فهو الزعيم المفدى ، وهو الرمز السامي ، وهو السلطة العليا ، التي يجب أن تحتجب من دونها كافة الزعامات وسائر السلطات . أما بالنسبة لباقي المسؤولين والوزراء ، فالاضواء لن تسلط على أشخاصهم والاختبار لن تزداد من الآن فصاعدا ، الا حول نشاطات الاجهزة التي يتولون زمام أعبائها ، وبشكل موضوعي بعيد عن الدعاية الشخصية لهم .

وفي صباح اليوم التالي لاصدار هذا التوجيه ، اصطدم مدير الاذاعة بشكيلة عويصة التجأ الي لحظها؛ ذلك أن قائد الجيش الاول ، العائد لتوه من زيارة شخصية لامارة الكويت أرسل الى دار الاذاعة نص البرقية التي وجهها الى سمو أمير الكويت ، يشكره فيها على ما لاقاه لديه ، وفي رحاب امارته الغنية ، من حفاوة وكرم . وعندما اعتذر مدير الاذاعة عن اذاعة البرقية في نشرة الاخبار ، هددته قائد الجيش وأنبذته بالويل والثبور ان هو وقف عائقا في طريق اذاعة النبأ السعيد والحدث الخطير . واستغاث مدير الاذاعة بي مبديا أن حالته ومركزه وأعصابه لن تتوى على مجابهة مثل هذا التهديد ؛ فشجته على المضي في طريق تنفيذ الاوامر كما أعطيتها له ولزملائه؛ واتصلت بدوري بسيادة قائد الجيش الاول الذي حاول الاحتجاج بشدة وصخب ضد هذا الاجراء التعسفي والغبن الشديد الذي يلحقه

من جرائه ؛ ولكنه ما لبث أن تراجع عن صحبه ، واقتنع بجدية الموقف وصحة التوجيه ، عندما اطلع مني على أنه ليس تصرفا فرديا من جانب مدير الاذاعة ، أو أمرا اعتباطيا صادرا عني ، بل انه تنفيذ لاوامر عليا صادرة عن سيادة رئيس الجمهورية ، القائد الاعلى للجيش والقوات المسلحة .

★ ★ ★

كنت في القاهرة متأهبا للعودة الى دمشق ، بعد أن أنهيت الاعمال التي قصدت العاصمة العربية الكبرى من أجلها ، وبعد أن حجزت لي شركة الطيران العربية مقعدي وحددت رقم الرحلة الجوية وموعدها ، اتصل بي موظف كبير من قصر الرئاسة ، ودعاني للسفر صحبة سيادة الرئيس ونوابه والوزراء المركزيين والتنفيذيين في الاقليم المصري ، في رحلتهم المقررة الى الجنوب . ولما حاولت الاعتذار بحجة السفر الى الاقليم السوري في نفس اليوم ، للاتحاق بعلمي ، ألح موظف الرئاسة على ضرورة اشتراكي في تلك الرحلة ، وذلك بناء على دعوة سيادة الرئيس نفسه ورغبته في سفري بصحبته ، مع سائر المسؤولين الموجودين في القاهرة . فأرجأت عودتي الى دمشق ، وفي الموعد المحدد أقلتني عربة الرئاسة الى محطة القاهرة حيث التقيت بسوكب سيادة الرئيس وصحبه ، وامتطينا جميعا القطار الخاص الذي أقلنا عبر أقاليم مصر الواسعة ، حتى وصلنا الى مدينة المنيا .

كانت السفرة ممتعة حقا ، ومفيدة جدا ، لانها أتاحت لي الاطلاع ، عبر المسافات الطويلة التي اجتازها القطار ، على الريف المصري ، وبناطه وقراه ، والتعرف على جماهير الشعب العربي المصري الطيب . وكان لقاء الملايين من أبناء هذا الشعب العظيم المحتشدين على امتداد الخط الحديدي ، لقاء مؤثرا جدا ؛ لقد خرجت

جباهير الفلاحين والمواطنين عن بكرة أبيها ، الشباب والشيوخ ، النساء والاطفال ، خرجوا جميعا للقاء الموكب الرسمي الكبير ، والسعيد من بين هؤلاء من يحظى برؤية طلعة القائد العظيم ، والاكثر سعادة هو من يتسكن من الاقتراب من شخصه الكريم ، أو على الاقل من القطار ، وهو يخفف من سيره ليقف دقائق معدودات في المحطات الفرعية ، أو لمدة أطول في المحطات الرئيسية •

كانت الحشود الكبيرة تتحرك في الساحات والميادين وكأنها البحر المتسوج ، والهاثفات تنطلق من الحناجر مدوية في الفضاء وكأنها الريح الهادر ، تهتف بصوت واحد للزعيم المفدى ولبادئ القومية العربية • وكان الشعار السائد : « حنبلي السد » ، تعبيرا عن عزم أصحاب السواعد السراء المتنولة على بناء سد أسوان الكبير ، واللافئات الكبرى تحمل عبارات الترحيب والولاء للأمة العربية ولقائد مسيرتها المظفرة ، وعلم الجمهورية العربية المتحدة يعاق العلم المصري الاخضر القديم ، يزينان الابنية والاكواخ ، ويزيدان المشهد رونقا وبهجة •

ولا يسع الانسان العربي ، ازاء هذا المنظر الرائع وهذا الاتجاه الجماهيري الواسع في طريق القومية العربية ، الا أن يتهيج ويتفأل بمستقبل الامة العربية • فعشرات الملايين من العرب المصريين حاولت سياسة التجزئة الاستعمارية أيام الاحتلال ، عزلهم نهائيا عن جسم الامة العربية ، فاذا بحركة الضباط الاحرار التي حررت القطر العربي المصري من ربة الاستعمار وذل الاحتلال ، وقضت على النظام الملكي وعلى الاقطاع في آن واحد ، تدفع بالشعب كله في طريق الوحدة العربية • وقد عبرت عن انطباعي هذا لسيادة الرئيس خلال الحديث الذي دار بينه وبينني في القطار أثناء تلك الرحلة الميمونة ، وأشدت بالدور الايجابي للضباط الاحرار الذين كان لهم الفضل

وتحت قيادته الحكيمة في تحقيق هذا الانعطاف التاريخي الكبير في حياة شعب مصر • فعلق سيادة الرئيس على كلامي ، مؤكدا بأنه لم يكن للضباط الاحرار أي دور في قيام الوحدة ، وأنه هو وحده الذي دفع الامور في هذا الطريق ؛ وأنه عندما لاحت تبشير الوحدة بين القطرين المصري والسوري ، طرح الموضوع على مجلس الثورة فعارض جميع أعضائه فكرة قيام أي شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد بين البلدين ؛ وكانت حجتهم الاساسية بأن مشاكل مصر وحدها تكفي لاستغراق وقت الحكومة المصرية واستنفاد جهود أعضائها ، وأنهم لا يجذون اضافة أعباء جديدة فوق أعبائها • وذكر سيادته بأنه لم يأبه لتلك المعارضة ، ومضى في سياسته العربية وخطواته الايجابية التي عجلت بقيام الجمهورية العربية المتحدة •



وكان حريا بالقيادة التي قابلها الشعب العربي في اقليسي الجمهورية الجديدة ، مصر وسورية ، بمثل هذا التأييد الجماهيري الواسع والمنقطع النظير ، أن تسلك السبيل الصحيح الذي يساعد على توطيد دعائم الوحدة ، وتعزيز جانب الدولة الفتية ، وذلك باحترام مبادئ دستورها الموقت ، وباعطاء مثلي الشعب الشرعيين فرصة وضع دستور دائم ، يكفل للسواطن حريته وكرامته ، وللمؤسسات الدستورية أدوارها وحصاتها •

ولكن الذي حصل هو عكس ذلك تماما ، حيث لم يحترم الدستور الموقت ، ولم يوضع الدستور الدائم ؛ وظلت السلطان التشريعية والتنفيذية منحصرتين في يد رئيس الجمهورية ، في حين أن الدستور الموقت لم ينص أصلا على تفويض السيد الرئيس بممارسة السلطة التشريعية •

وفي غياب المجلس التشريعي ، ولانعدام الرقابة الدستورية على

أعمال السلطة التنفيذية ، مضت مراكز القوة المثلة بأجهزة المخابرات وعناصرها الفاسدة ، الظاهرة والخفية ، تستهتر بالحريات العامة ، وتسعن في طغيانها على حريات الافراد وكراماتهم ، بدون رادع ، وبشكل لم يعهده شعبنا في القطر العربي السوري ، في أسوأ عهود الديكتاتورية المظلمة ، وحتى أيام الاحتلال الاجنبي .



أقام السيد حامد الخوجا الوزير السابق حفلة ضخمة ، في فندق سمير اميس في دمشق ، بمناسبة عقد قران كريسته على التاجر الدمشقي الشاب السيد عبد الفتاح العوا ، ودعا عددا غفيرا من الشخصيات السياسية لحضور الحفلة . وكان من بين المدعوين الوزير المركزي السيد فاخر الكيالي وهو من أقطاب الحزب الوطني ، وقد قدم خصيصا من القاهرة لحضور الحفلة . وبينما كنت أتحدث مع بعض الاصدقاء في ركن من أركان الصالة الكبرى في الفندق ، لمحني السيد الكيالي من بعيد ، فترك صحبه واتجه نحوي باهتمام ولهفة بالغين ، وبادرني قائلا : « لك معي رسالة من القاهرة » . ولما استوضحته عنها ، وعن مصدرها قال لي : « من أخيك عدنان » وعندما لمح الامتعاض على وجهي لهذا الذي تصورته مزاحا غير مستحب ، أردف متابعا : « اننا نعمل في القاهرة مع بعض الوزراء المركزيين على عقد جلسات تحضير الأرواح » . فقاطعته قائلا : « انك راغب اليوم في التنكيت ولا أحسب أن لدى الوزراء المركزيين وقتا يضيعونه في ممارسة (الجلا جلا) » فأجاب مؤكدا : « لا ، ليس في الامر أي هزل ، والوزراء المركزيون يقضون معظم أوقاتهم في عقد جلسات تحضير الارواح . ويجب أن تثق أن هذه مسألة علمية لا شك في جديتها ، والسلطات العليا والمسؤولون الكبار في القاهرة ، يهتمون بها ويسارسونها ، لأنها في نظرهم على غاية كبرى من الاهمية ،

وهي تساعدهم على حل عقد كثيرة لدى معالجة شؤون السياسة والحكم» .. ثم ذكر أنه وزملاءه الوزراء سعوا في احدى الجلسات وأحضروا روح المجاهد الكبير ابراهيم هنانو كما أحضروا عدة أرواح ومن بينها روح أخي عدنان ؛ وأضاف قائلاً : « وقد سألنا أخاك عن رأيه في الاوضاع العامة ، فأجابنا بأنها ليست سيئة ، ولكن على القيادة أن تتخلى عن أنانيتها » . فنهته عند سماع هذه الرواية، الى أن الرسالة التي أنبأني بحملها الي ، موجهة اذن لسيادة الرئيس ذاته لانه هو الذي يتولى زمام القيادة .. ثم تابع السيد الكيالي روايته مضيفاً : « ولما سألنا أخاك عن شخصك أنت ، أجابنا : « رياض انسان صريح وجريء ، ولكن عليه أن يخفف من غلوائه » ... فعلمت على قول السيد الكيالي هذا ، قائلاً : « أنت تحمل لي رسالة من المخابرات لا من أخي » . فأجاب محتداً : « لا ، أبداً ، صدقني، ان ما رويته لك هو الحقيقة » . ثم عاد السيد الكيالي بعد انتهاء حديثه الروحاني ، يسألني عن مضمون المذكرة التي سمع ، في القاهرة، بأني رفعت نسخة منها للرئاسة للاطلاع ، ولمس ما تركته في الاوساط القاهرية من هزة ، ملحا علي بأن أعطيه صورة عنها ، فرفضت طلبه مداعبا اياه بقولي : « ما دمت تشتغل أنت وزملاؤك المركزيون بالروحانيات ، وهي تكشف عن بصيرتكم للاحاطة بما كان وبما هو كائن وبما سيكون ، وتساعدهم على حل معضلات الحكم والسياسة، فأنت لم تعد بحاجة للحصول على نسخة مطبوعة من المذكرة ، لانك تستطيع بوسائلك الروحانية الاطلاع على أي شيء ترغب في معرفته» .

★ ★ ★

وجهاً لوجه مع مراكز القوة

« اذا لم يكن أمامنا الا الجبن
أو العنف ، فسنسلك طريق
العنف » .

« غاندي »

زارني في فندق مينا هاوس الواقع في منطقة اهرامات الجيزة اللواء علي أبو نوار الرئيس السابق لاركان الجيش الاردني ، وكان يومئذ لاجئاً سياسياً في الجمهورية العربية المتحدة ، وحدثني عن سوء الاحوال في الاقليم السوري ، وشكا بصورة خاصة من سوء المعاملة التي يلقاها اللاجئون السياسيون على يد دوائر المباحث السورية ، وعزا مسؤولية ذلك لسياسة وزير الداخلية التفتيشي السوري ، وألح على ضرورة اثاره الموضوع لدى مقابلي لسيادة رئيس الجمهورية لمعالجة الموقف قبل تفاقم الحالة ، مؤكداً أنه ماكان شخصياً ليثير الموضوع لولا غيرته على الجمهورية الفتية ، وعلى مستقبل الوحدة العربية التي تتوقف خطواتها المقبلة على نجاح الخطوة الاولى . فقلت له : « الواقع أنني لا أنفك أبداً عن توجيه

النقد بصراحة للسيد وزير الداخلية السوري وعن مجابته مباشرة
ازاء ما تركبه الاجهزة والدوائر والعناصر التابعة لوزارته من أخطاء
وتصرفات سيئة ، كما أنني أثير أحيانا مثل هذه الامور بحضور وزير
الداخلية أثناء اجتماعات المجلس التنفيذي ؛ ولكني لن أعمد في أية
حال على نقد تصرفات وزارة الداخلية في غياب زميلي القائم على
شؤونها ، متسنيا لو أن اجتماعات الوزارة المركزية تتكرر برئاسة
السيد الرئيس وبحضور الوزراء التنفيذيين السوريين ، لأنني لن
أتوانى آتئذ عن اثاره أي موضوع أرى فيه خدمة للمصلحة العامة» .
ولكن الزائر الكريم لم يقنع بسوقي وخطتي ، وودعني بعد أن حملني ،
أنا وزملائي الوزراء السوريين ، مسؤولية السكوت عن حقيقة ما
يجري في داخل الاقليم السوري من أخطاء وتصرفات ، ستكون لها
تأثير خطيرة على نظام الحكم القائم وعلى مستقبل الوحدة بين اقليمي
الجمهورية العربية المتحدة .



لدى قدوم سيادة رئيس الجمهورية العربية الى الاقليم السوري
بمناسبة العيد الاول لقيام الوحدة ، وكان بصحبته بعض نواب
الرئيس وبعض الوزراء المركزيين والمارشال تيتو رئيس اتحاد
الجمهوريات اليوغسلافية والامير محمد البدر ولي عهد امام اليمن ،
زحفت الجناهير في المدن السورية عن بكرة أبيها لاستقبال الرئيس
القائد وضيوفه وصحبه ، وبالرغم من روعة الاستقبالات وضخامة
الحشود ومعالم الزينة التي كانت تسلأ كل مكان ، كان الشك بدأ
يتسرب للقلوب المفعمة بحب الرئيس ، وللنفوس المبتهجة بالمناسبة
الخالدة . وكانت تترأى في الافق السحب القاتمة الدكناء منذرة
بهبوب العواصف المدمرة ؛ ومثل هذه العلام لا يسكن أن تخفى عن
أنظار القائد الذكي ، وعن عيون أجهزة المخابرات المتمرسه ، لا في

قراءة التقارير فقط ، بل حتى في قراءة أفكار الناس ، ومحاسبتهم على ما يخلج في صدورهم من أحاسيس ، وما يدور في أذهانهم من هواجس . وفي صبيحة ذات يوم اتصل بي السيد وزير الداخلية وأبلغني أنه يحل لي رسالة شفوية من السيد رئيس الجمهورية الذي كان منهمكا كل الانهماك في مقابلة الحشود الهادرة ووفود المستقبلين الضخمة . فتوجهت الى مقر وزارة الداخلية في سراي الحكومة الرئيسي ، قرب ساحة الشهداء ، وهناك أعلمني زميلي أن سيادة الرئيس كلفه بأن يحل الي ملاحظته بأن أجهزة الاعلام لا تؤدي دورها بشكل فعال للرد على هجمات أجهزة الاعلام العراقية ، والشائعات التي ينشرها الشيوعيون ، ولنبديد بوادر النقرة والاستياء التي بدأت تتسرب الى الاوساط الشعبية . فسألته : « ولماذا لم يفتاحني سيادة الرئيس بالامر وكلفك أنت ببلاغي هذه الرسالة ؟ » وأعربت عن خشيتي من احتجاب سيادة الرئيس عن وزرائه ، وحذرت من مغبة ذلك ، ونوهت بأن شؤون الدولة لا يمكن أن تعالج بين سيادة الرئيس وسائر المسؤولين الا في جو من الصراحة التامة ، لتبادل الآراء ، ومراجعة الاخطاء مباشرة ، كي لا تتراكم وتجبر الى مضاعفات لن تكون في مصلحة الوطن ووحدة البلدين .

أما فيما يتعلق بأجهزة الاعلام فقد أوضحت لزميلي السيد وزير الداخلية بأن وضعها في هذا البلد شبيه بوضع حصان جامح ، جسمه موجود في الاقليم السوري ولجامه مشدود من القاهرة ، وان اشرافي على الجهاز ان هو الا اشراف صوري لا يخرج عن حدود معالجة شؤون الموظفين المسلكية ، وان ولاء معظم هؤلاء الموظفين ليس للوظيفة أو لرؤسائهم ، بل للاجهزة الخفية التي لا تتورع عن تحريكهم أحيانا في اتجاه معاكس لاوامر رؤسائهم ، ولا تتردد أحيانا أخرى في تحريضهم على الاتيان بتصرفات مخلة بهيبة الحكم ومسيئة لمصلحة الشعب .

واستفدت من ذلك اللقاء ، لاوضح أن أجهزة الاعلام ليست هي المسؤولة عن حقيقة ما يجري في الاقليم السوري ، وأن المسؤولية تقع في الدرجة الاولى على السلطات السياسية العليا ومن ثم على أجهزة الامن التي تبالغ في اتباع أساليب البطش والارهاب ، وأن أجهزة الاعلام لا تستطيع أن تفعل شيئاً ازاء ما ترتكبه أجهزة المخابرات والمباحث من آثام وأخطاء جسيمة . وبينت للسيد الزميل ، بأن « واجبنا في هذه الاحوال الخطيرة لا يجوز لنا المسaire و غرض النظر عن أسباب الازمة ، بل علينا جسيما ، وأنت في الدرجة الاولى ، بحكم اتصالك المباشر بالسيد الرئيس ، أن نصارحه بأرائنا وملاحظاتنا خدمة له وللوطن بأن واحد ، لان سكوتنا هو الذي سيؤدي الى زيادة التوتر وتردي الاحوال » . وقلت للسيد الوزير : « اني لم أشعر في حياتي كلها بالمهانة ، مثل هذه الايام ؛ فقد دخلت المعتقل وتعرضت لاقسى أنواع التعذيب والتكيل وخرجت منه وأنا رافع الرأس . أما الآن فاني أشعر بوخز الابر ، يؤرق ضميري ، ويشغل كاهلي ، لما يلقاه المواطنون من عنت على يد سلطات الحكم وأجهزة الامن ، حتى بت لا أطيق البقاء في هذا المنصب ؛ ولولا الحرص على عدم تعريض الوضع القائم لهزة مبكرة ، لما تأخرت لحظة في تقديم استقالتي ؛ وأنت يا عبد الحميد ، اذا أردت مني النصح والحقيقة ، فاعتقد أن حالك ليس بأحسن من حالي ، خاصة وأن صورتك في نظر الشعب بدأت تنقلب من مناضل وطني مخلص ، الى جلاد مرعب عدو للشعب . وغدا سترى كيف أنني عندما سأترك هذا الكرسي الزائف وأعود الى بيتي لن يتسكروا لي أهلي وأصدقائي والواثقون بوطنيته واخلاصي ؛ أما أنت فانك لو ثابرت على اتباع النهج الذي تسير عليه الامور الآن ، ستضطر يوما للتخلي عن كرسي الوزارة ؛ وآنداك لن تستطيع البقاء في هذا البلد ولا السير في شوارعه ، وسيستكر لك المقربون منك اليوم ، قبل الخصوم والاعداء ؛ فخذها نصيحة خالصة

من زميل مخلص ، لا يريد لك الا النجاح ، ومن مواطن صادق لا يريد لوطنه وشعبه الا الفلاح » •

وبعد هذا الخطاب الصريح الصادق الموجه الى شخص كان له بحكم المركز الذي يشغله والثقة الكبيرة الممنوحة له من سيادة رئيس الجمهورية والصلاحيات المخولة اليه ، الدور البارز في تسيير دفة الحكم من خلال أجهزة الامن الخاضعة لامرته ، تفرق الدمع في عيني مخاطبي الذي أيدني في كلامي قائلا : « ان ما تقوله الآن صحيح تماما ، وأنا أشعر بشئ ما تشعر به أنت • ولكن ما العمل؟ ان ثقة سيادة الرئيس بي غالية وأنا لا أريد أن أجرحها » • فقلت له: « انك لن تستطيع الحفاظ على هذه الثقة وتعزيزها الا بالسير في الطريق القويم ، وتجنب الاخطاء وبصارحة الرئيس بما يقع منها ، حتى لو كان هو مسؤولا عن ذلك » •



كان سيادة رئيس الجمهورية دعائي للاستعانة بعدد من الموظفين المصريين عن طريق نديهم للعمل في وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري • والواقع أنني لم أر حاجة ماسة لخبرة الموظفين المصريين ، والخطبة التي اتبعتها في اشغال الوظائف المحدثة في ملاك الوزارة المحدثة أيضا ، هو نقل بعض كبار الموظفين أو نديهم من وظائفهم في الوزارات والدوائر الحكومية السورية للقيام بأعباء الوظائف العليا • أما بالنسبة للوظائف الوسطى ، فقد آثرت العودة لاتباع القواعد العامة في التعيين ، رغم الصلاحيات المطلقة المعطاة لي لاجراء ذلك بصورة استثنائية ، ولمدة سنة من تاريخ احداث الوزارة • وقد فعلت ذلك نظرا لكثرة الوساطات وشدة الضغط لتعيين الطلاب المجازين من الجامعة والذين كان عددهم كبيرا جدا ، بسبب انتشار البطالة في صفوف المتعلمين ، وقلة الوظائف الشاغرة في دوائر الدولة

ومؤسساتها • وبناء على توجيهاتي ، أعلنت الوزارة عن اختبار
ستجريه لاملأ عدد من وظائف الحلقة الاولى من المرتبة الخامسة من
بين حملة اجازتي الآداب والتربية ؛ فبلغ عدد الذين اشتركوا في ذلك
الاختبار أكثر من سبعة أضعاف العدد المطلوب • وقد تشكلت اللجنة
الفاحصة برئاسة أمين عام الوزارة وعضوية المدراء الكبار فيها ؛ ولما
عرضت علي النتائج النهائية ، لفتت نظري حالتان اثنتان ، الاولى
نجاح قرية لي بتفوق جعلها بين الناجحين الاوائل ؛ وبالرغم من أن
الطالبة الناجحة كانت عالية الثقافة ، وهي حفيذة للكاتب الكبير
الاستاذ محمد كرد علي ، الا أنني أردت التوثق من ظروف نجاحها •
وكان رئيس اللجنة كان ينتظر مني هذا السؤال ليجيب عليه بشكل
يبيض معه وجهه ووجوه أعضاء اللجنة ؛ فأجاني بابتسامة ذات مغزى
واضح تعلو شفتيه : « ان الطالبة ذكية وممتازة • وطبعا هناك اعتبارات
خاصة كان على اللجنة أن تراعيها » • وأمام الجواب الذي أطلقه
رئيس اللجنة وكأنه اتهام سافر بأن المسابقة لم يعلن عنها ولم تجر
بتوجيهي الا لتغطية تعيين قريتي في احدى الوظائف الشاغرة ، لم
يكن مني الا أن شطبت اسمها من بين الناجحين ، وأمرت بتعيين
الطالب التالي ترتيبه لآخر طالب ورد اسمه في عداد الناجحين • وكان
ذلك الاجراء القاسي على نفسي درسا للجنة الفاحصة ، في كيف
تكون الامانة ، وكيف يجب أن يتحلى المؤتسئون على الوظائف العامة،
والمهام الرسمية ، بالتجرد التام ، وبعدم الخضوع لاية اعتبارات
خاصة ، خارجة عن نطاق المصلحة العامة التي لا يسكن أن تحقق
الا باحترام مبادئ العدالة والمساواة ، دون الاخذ بعين الاهتمام
الاعتبارات العشائرية والعائلية ، وسواها من الرواسب التي مازالت
تعيق تطور مجتمعا • ربما كنت ظلمت تلك القرية بحرمانها من حقها
في التعيين ، خاصة بعد أن قررت اللجنة الفاحصة فوزها في الاختبار
الذي أجرته ؛ ولكني مازلت قانعا بأن ظلم ذوي القربى

أقل مضاضة من دوس المصلحة العامة بتأثير من الشفاعة ، أو الوساطة ،
أو صلة العشيرة ، أو القربى •

أما الحالة الثانية ، فكانت حالة طالب مجاز كان سابقا عضوا
في حزب البعث العربي الاشتراكي المنحل ، وكانت تربطني به صلة
المعرفة والمودة • كان ذلك الطالب يسعى لتعيينه في إحدى الوظائف
الشاغرة ، وكان بعض الاصدقاء من الحزبيين السابقين يتوسطون
لتعيينه مباشرة بالاستناد الى الصلاحيات الاستثنائية المخولة لي •
ولكنني اعتذرت من الجميع بحجة اجراء المسابقة المنوي الاعلان عنها ،
وتسيت له النجاح فيها من كل قلبي • ولكن النتيجة أسفرت لا عن
رسوبه فقط ، بل عن كون ترتيبه هو الاخير في قائمة المتسابقين الاثنين
والسبعين •

أتيتا الحزبية العمياء ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ، وتحت
ستارك ، بحق الشعب والوطن !!



عاد وزير الداخلية التنفيذي بعد زيارته للقاهرة واجتماعه
بسيادة رئيس الجمهورية ، ولدى اجتماع المجلس التنفيذي أبلغني
تساؤل سيادة الرئيس عن عدم تنفيذ رغبته بنذب عدد من الموظفين
المصريين للعمل في وزارة الثقافة والارشاد القومي ؛ فقلت له :
« الواقع أن عدد الوظائف في الوزارة محدود جدا ، وأن البطالة
منتشرة في صفوف المعلمين بشكل ينذر بالخطر ؛ كما أن لغطا يدور
في أوساط الاهلين حول تدفق الموظفين المصريين على الاقليم السوري ؛
وهناك من يتخذ من هذه الظاهرة حجة للدعاء بوجود تسلط أو
استعمار » • فلم يعلق السيد وزير الداخلية على كلامي بشيء •
ولكنني عندما ذهبت الى القاهرة وقابلت سيادة الرئيس ، سألتني بلحجة
حازمة عن عدم تلبية طلبه الاستعانة ببعض الموظفين المصريين لتسيير
الاعمال فأجبتة : « انني مازلت أدرس حاجة الوزارة ، وسأستعين

بجربة من أرى ضرورة للاستعانة بهم من أبناء الاقليم المصري عند اللزوم» • فقال : « عليك أن تأخذهم دون الالتفات الى ادعاء المعارضين بوجود تسلط أو استعمار ؛ وعلينا في خطواتنا أن لا نغير أدنى اهتمام للمعارضة التي لو أردنا مسايرتها لما استطعنا القيام بأي عمل » • ولكني استمررت في اتباع خطتي بالاعتماد على أبناء الاقليم الشمالي ، فيما عدا حالة واحدة ، عندما قصدني أستاذ جامعي مصري منتدب للعمل في جامعة دمشق ، فقد أسعفت طلبه بنقل زوجته الى دمشق •

والذي لوحظ مع الاسف الشديد أن الموظفين المصريين الذين كانوا يندبون للعمل في الاقليم السوري بدءا من الامناء العاميين ومساعدتهم ، وانتهاء بأصغر معلم مدرسة ابتدائية ، كانوا مرتبطين بأجهزة المخابرات يعملون بتوجيهاتها السرية وبوحي من مراكز القوة التي يشغلها أشخاص لم يكونوا حريصين على خدمة الشعب ، وحماية وحدته ، بقدر ما كانوا يسعون لقهر الشعب وتقويت وحدته الوطنية •



كانت بعض العناصر المصرية ، العاملة في الاقليم السوري ، تعتقد أن بإمكانها فرض سيطرتها على جميع السوريين ، مدنيين وعسكريين ، دون استثناء ، بصرف النظر عن أشخاصهم أو مراكزهم السياسية أو الادبية ، وحتى الوزراء التنفيذيين منهم •

فمعاون قائد الجيش الاول العميد عبد المحسن أبو النور ، وهو مصري ، كان يتصور نفسه وكأنه مفوض سام يجب أن تكون له الكلمة الاولى في أوساط الجيش وفي نطاق السلطة المدنية على السواء ؛ ومطلوب من الجميع اطاعته وتنفيذ أوامره ، والا حاق بهم غضب السلطان وتعرضوا لنقمة مراكز القوة واجراأتها القاسية التي لا حدود لها ، لافي الدستور الذي أصبح في خبر كان ، ولا في القانون

الذي أضحي محل استخفاف تلك المراكز المتحكمة في شؤون الاقليم،
وفي حريات مواطنيه وكراماتهم •

وموظف الاستعلامات المصري الذي كان سابقا ملحقا صحفيا
في السفارة المصرية ، وارتباطه المباشر هو مع مصلحة الاستعلامات
في القاهرة ، أضحي بعد قيام الوحدة يتمتع في دمشق بسر مركز ممتاز،
يسرح ويمرح ، ويوزع الاموال والاتاوات ، ذات اليسين وذات
الشمال ، ويدس ويخرب ، دون أن يكون على تصرفاته في دمشق
ثمة رقيب أو حسيب • ولا بأس لديه وحتى لدى رؤسائه أن يسخر
للتشويش على الوزراء السوريين والجهزة المحلية ، وأن يصبح
مصدر ازعاج ومحرضا على عرقلة الاعمال •

وأمثال هؤلاء الموظفين كانوا يجدون تجاوبا من جميع عناصر
التخريب ، ومن المرتقة المنافقين الذين كانوا يلتفون حولهم ،
ويركضون وراءهم ، استمطارا للغنائم والمنافع ، وأعين الزعامة
المصرية وآذانها ، متغافلة عنهم وعن أساليبهم ، وغير مستعدة لسماع
أية شكوى • بل الامر على العكس ، انها كانت تحيطهم هم وأمثالهم
بالحصانة المطلقة والرعاية التامة ، تاركة لهم العنان في العبث والمجون،
وتوزيع الاساءات على الجميع ، بشكل لم يعهده شعبنا ، حتى
في أيام حكم العشائين أو في ظل احتلال الفرنسيين •

كان على الوزراء السوريين أن يتدارسوا هذه الاحوال بعين
الجد والاهتمام ، وأن يحاولوا معالجتها بالاتفاق فيما بينهم وبتضامنهم
مع بعضهم بعضا • ولكن شيئا من هذا لم يحصل ، بل كان كل واحد
منهم يحاول اتقاء الشر بالتتي هي أهون •

وكان لا بد من التساهل حيال الامور الصغيرة ، دفعا للمشاكل
وحرصا على عدم ازعاج الزعامة المصرية باثارها ، وخوفا من خلق

أزمة سياسية قد لا تمس العاملين في نطاق السلطة والحكم ، بقدر ما تصيب كيان الجمهورية الفتية ومصير وحدتها المفداة .

وفي القاهرة ، لم تكن معاملة المسؤولين السوريين ألطف بكثير، وكان أغلب الوزراء السوريين يلقون من بعض الاعوان في القاهرة ، معاملة مسيئة تنعدم فيها مبادئ البروتوكول ، وتخلو من أي أثر من آثار قواعد المجاملة واللباقة المتعارف عليها .

وكان بعض هؤلاء المستشارين يعتقد أن حظوته لدى مقام الرئاسة تخوله التصرف على هذا النحو أو ذاك ، وكأن العلاقة بين المصري والسوري هي علاقة غالب ومغلوب ، أو متبوع وتابع . وكان البعض من هؤلاء يعتقد أن تساهل المسؤول السوري ، حيال تلك التصرفات الشاذة ، ناتج عن الضعف ، وبحسب التواضع استسلاما ، والحلم والصبر خضوعا واستسلاما .

ولذلك كان من الضروري وقف المهزلة عند حدودها ، ومجابهة القضايا الهامة بحزم ، ليشعر المستهترون بالمبادئ والقيم ، بحقيقة الآثام التي يرتكبونها ، والاساءات التي يوجهونها ، والاضرار التي يلحقونها بصالح شعبهم وقضية وطنهم . ولم يكن من الجائز لمن اعتاد على رفض الظلم ، ومجابهة الانحراف ، منذ نعومة أظفاره ، أن يطيل الصمت ، وكان لابد له من أن يجاهر بحاربة الاعوجاج ، أيا كان مصدره .



توجهت ذات صباح الى مطار المزة للسفر الى القاهرة بصحبة السيد وزير التربية التنفيذي الدكتور أمجد الطرابلسي لحضور اجتماع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة ، وقد كنا عضوين طبيعيين فيه بحكم كوننا وزيرين للتربية

وللثقافة والارشاد القومي في الاقليم الشمالي • ولكن سوء الاحوال الجوية حال دون اقلاع الطائرة ؛ فعاد كل واحد منا الى مقر وزارته بعد الاتفاق على ارجاء السفر الى اليوم التالي • ولكنني ما كدت أجلس وراء مكتبي ، حتى دخل علي الامين العام للوزارة ، وأطلعني على الاجراء الذي اتخذته بحق احدى الصحف اليومية ، اذ أنه أصدر أمرا الى المديرية العامة للدعاية والانباء بمصادرة العدد الصادر من تلك الجريدة في صباح ذلك اليوم وبتعطيلها يوما واحدا عن الصدور بسبب مخالفة نظام المطبوعات المطبق آنئذ على الصحف اليومية ؛ فليسته على تصرفه ، ونبهته الى عدم جواز تدخله في مسألة هي خارجة حتما عن نطاق وظيفته ، لان المديرية العامة للدعاية والانباء لم تكن مرتبطة ، اطلاقا ، بوزارة الثقافة والارشاد القومي ، وان كنت أنا قد كلفت شخصا وبقرار من سيادة رئيس الجمهورية بالاشراف على تلك المديرية العامة • وكنت في سبيلي الى تدارك الخطأ الذي ارتكبه الامين العام للوزارة في فترة غيابي القصيرة عن مقر الوزارة، عندما اتصل بي هاتفيا معاون قائد الجيش الاول العميد عبد المحسن أبو النور • وبعد التحية والمجاملة ، فاتحني في مسألة الاجراء المتخذ بحق الجريدة الدمشقية ؛ فكان رد الفعل المباشر لدي أنني نهيته عن التدخل في الشؤون المتعلقة بي كوزير • وعبثا حاول الضابط اقتاعي بوجهة نظره ، وبدوره في توريث صاحب الجريدة بتسجيل تلك المخالفة البسيطة ، وقد استفدت من فرصة تلك المخبرة الهاتفية لاوضح للضابط الكبير ، وبشكل صريح وجوب ابتعاده كمسكري عن التدخل في شؤون الحكم •

وعندما سافرت في اليوم التالي الى القاهرة ، طلبت من سكرتارية رئاسة الجمهورية تحديد موعد لمقابلة سيادة الرئيس لبحث بعض المسائل المتعلقة بشايع وأعمال وزارة الثقافة والارشاد القومي •

وفي بدء المقابلة بادرني سيادته بالسؤال عن المشكلة التي بيني وبين معاون قائد الجيش ، فأجبتة بإيجاز : « ما في شيء » • • فعقب سيادته على جوابي أنه لا يريد أن يسمع الناس عن الخلافات فيما بيننا • فأجبت بصراحة : « أنا لم أحك شيئا لأحد وأستغرب أن تكونوا سيادتكم قد اطلعتم على الامر ، وهذا يعني أن السيد أبا النور هو الذي رفع لكم تقريراً بما جرى • وحقيقة الامر هي أنني رفضت تدخله كرجل عسكري ، في شأن يعتبر من صميم شؤون الاعباء الوزارية التي أنا مسؤول عنها » • فقال لي سيادته بلهجة اختلفت عن لهجته المعتادة : « حتى أنا ، لا أريد أن أسمع عن أي خلاف بينكنا » ؛ قالها سيادته ، وكأنه يريد ترويضني على مداخلات معاون قائد الجيش الاول • فأكدت أن القضية تتعلق ببدء أساسي يجب على العسكرين العاملين في القوات المسلحة احترامه ، وهو عدم جواز تدخلهم في شؤون الحكم • وطوى سيادة الرئيس البحث بالانتقال الى مناقشة المسائل التي جرت المقابلة من أجلها •

★ ★ ★

كان موظف الاستعلامات المصري السيد عدلي حشاد معروفاً في الاوساط الدمشقية منذ القديم ، فقد بدأ عمله في العاصمة السورية مدرسا للرياضيات في بعض المدارس الثانوية معارفاً من وزارة التربية المصرية ، ثم عين ملحقا صحفيا لدى السفارة المصرية • وبعد قيام الوحدة بين الاقليمين السوري والمصري ، لم يعد للسفارة داع للبقاء ، فغادر الموظفون فيها الاقليم السوري ، وألحقوا بوظائف جديدة في وزارة الخارجية وسفارات الجمهورية العربية المتحدة المنتشرة في عواصم دول العالم • ولكن السيد حشاد الذي أحب هواء الشام ووقع في هواه أكثر « الشوام » نفعية وتقرباً من الحكام وأعاونهم ذوي النفوذ ، آثر البقاء في أحضان قاسيون وعلى ضفاف

نهرى بردى وتورا ، لىسارس نشاطا لا يعرف أحد كنهه ، الا أولئك الذين كانوا ينعنون بزيارته في مكتبه الكائن في مبنى السفارة المصرية القديم والذي أضجى مقرا لوزارة الثقافة والارشاد القومي ، وظل السيد حشاد يحتل بعض غرف الطابق العلوي منه ، مع موظف مصري آخر كان يدير جهاز الارسال والاستقبال اللاسلكي الموضوع تحت تصرف السيد حشاد .

وكل من تعرف على السيد حشاد ، يوم كان مدرسا ناجحا في المدارس الثانوية ، وبعد أن أصبح ملحقا صحفيا في السفارة المصرية في دمشق ، يشهد بأن الشاب يتمتع بلطف وكياسة بارزين . وقد تعرفت عليه أنا شخصا لدى بداية اضطلاعي بأعباء الوزارة وشارافي على شؤون مديرية الدعاية والانباء ، حيث كان يأتيني أحيانا حاملا معه نسخا عن التوجيهات المرسلة برقيا من القاهرة والمتعلقة بالاخبار والتعليقات السياسية الواجب نشرها واذاعتها عن طريق أجهزة الاعلام والصحافة ، فلم ألس منه الا اللطف والكياسة المعروفين عنه .

ولكن يبدو أنني لم أحل ذاك الموظف المصري المكانة التي كان ينتظرها مني مثل تلك التي كان يحظى بها من بعض زملائي السوريين؛ فلم أعد أراه أبدا . غير أن أخبار نشاطه كانت تصلني تلقائيا ودون أي مسعى من قبلي ، ذلك لاني بحكم اشرافي على شؤون الاعلام، كنت ألس آثار الخطة السلبية والاساليب التخريبية التي أخذ يتبعها ذاك الموظف الصغير وقد أراد هو نفسه ، أو أراد له رؤساؤه أن يضعوه فوق الحكم المحلي في الاقليم السوري ، وخارج الدوائر المرسومة لاي من أجهزة الدولة الرسمية في دمشق .

وقد تبادى ذاك الموظف في استهتاره وتطاوله وبلغ بذلك حدا لا يطاق ، وربما شجعه على ذلك ، ما كان يلقاه من المرتزة المتنفين حوله والذين كانوا يأتونه الى مكتبه الكائن في ملحق مبنى وزارة

الثقافة والارشاد القومي ، زرافات ووحدانا ؛ فيهم وزراء سابقون وأعضاء في المجلس النيابي المعلق ، وموظفون كبار وصغار ، ومخبرون سريون . وكان واضحا للملا أن السيد حشاد كان يشكل آنذاك مركزا هاما من مراكز القوة المسيطرة من دون أجهزة الحكم المحلي ، على مقدرات الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة .

وكان معظم رشاش ذلك النشاط ينعكس على الشؤون المتعلقة بالوزارة التي أقوم بحمل أعبائها وببديرتي الدعاية والانباء والاذاعة اللتين أنتولى الاشراف عليهما . فبعض الموظفين في هذه الاجهزة أضحوا مرتبطين بالسيد حشاد ، ويتقاضون منه رواتب اضافية ، ولم يكن السيد حشاد ليتورع عن تحريضهم ضد رؤسائهم . كما أن المخلصين منهم ومن العاملين في ميدان الصحافة ، لم يكونوا ليكتسوا عني ما كان يزودهم به السيد حشاد من توجيهات وتعليقات معاكسة تماما للخطة السياسية التي كنت أسير عليها في معالجة شؤون الوزارة والاجهزة الملحقة بها أو الموضوعة تحت اشرافي ، تلك الخطة التي كانت مرسومة في القاهرة ومتفقا عليها مع السيد رئيس الجمهورية نفسه الذي كان قد قرر ما هو متعلق منها بشؤون الصحافة في الاجتماع الكبير الذي حضره الوزراء المركزيون والتنفيذيون المصريون منهم والسوريون ، اثر تشكيل الوزارة الثانية في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٨ .

★ ★ ★

وذات يوم زارني في مكتبي في الوزارة الدكتور حافظ الجمالي ، وكان يومئذ أستاذا في جامعة دمشق ، وسألني في سياق حديثه عن مدى ارتباط السيد حشاد بأجهزة الحكم في الاقليم السوري ، وعن محل هذا الكائن الحي من الاعراب . ولم يكتف عني الدكتور الجمالي ملاحظاته العديدة حول سلوك هذا الموظف

المصري ، وعن الدور الخطير الذي يمارسه ، والحظوة الكبرى التي يستمتع بها في الكثير من الاوساط الرسمية وشبه الرسمية ، حتى أنه يرى بأم عينه كيف أن بعض الوزراء السوريين يلتفون حوله في الحفلات العامة والمناسبات ويحيطونه بالكثير من التعظيم والتبجيل، الى درجة صار معها الرائي المتفرج ، يقدر أن هذا الشخص هو الحاكم ، وأن هؤلاء من حوله هم المحكومون . وفي نفس اليوم كان مدير مكتبي في الوزارة قد أطلعني على معلومات اكتشفها بنفسه لدى اطلاعه وبطريق الصدفة على الكيفية التي يشتري بها موظف الاستعلامات المصري ضمائر بعض ذوي النفوس الرخيصة ، ليمارسوا دور التخريب والتشويش الذي يحدده لهم موظف الاستعلامات اياه .

وبعد انصراف الدكتور الجبالي ، طلبت من أمين عام الوزارة أن يستدعي السيد حشاد ويأتي به الى مكتبي ، وأكدت عليه ضرورة البقاء معه لدى مقابلاتي . ففعل السيد الامين العام ما طلبته ، وأحضر السيد حشاد معه وأدخله الى غرفتي ، ولكنه انسل هو بخفة تاركا اياه في مواجهتي . فبادرته سائلا : « ماذا تفعل أنت في هذا البلد، وما هي صفتك الرسمية ؟ » .

فأجابني والدهشة بادية عليه : « أنا خادم يا افندم » .
فنهزته قائلا : « اقلع عن هذه اللهجة التي لا نستسيغها هنا في هذا البلد المكافح وأجيني بصراحة : هل أنت موظف في الدولة أم لا ؟ » .

فأجاب : « نعم يا افندم » .

فقلت له : « مادمت كذلك ، فهل تعلم أن على الموظف التزامات وواجبات لا مناص له من القيام بها ، وأهمها احترام الانظمة والقوانين واحاطة أجهزة الدولة والقائمين عليها جميعا بالهيبة والاحترام » .

أجاب : « بالضبط يا افندم » ..

فواصلت كلامي سائلا : « بأي حق اذن تقوم أنت بالاخلاق بكل تلك الالتزامات والواجبات ؟ .. » فنفى أن يكون فعل أي شيء من ذلك .

فقلت له : « الحقيقة أنك تفعل أكثر من ذلك ، وقد دعوتك لمقابلتي لفهامك أمرين اثنين : الاول يتعلق بك وبسلوكك كموظف رسمي . والذي أريد أن تعرفه أننا اعتدنا في هذا البلد على احترام النظام والقوانين وعلى ردع كل من يحاول الاخلال بها . ولذلك فإن أية بادرة مخلة بواجبات الوظيفة تصدر عنك في المستقبل سأجابهها بإحالتك الى مجلس التأديب لتتال عنها جزاء عملك ، ولن تفيديك آئذ حماية من تلوذ بهم من الاشخاص المتنفذين والرؤساء ، لان القانون بنظرنا هو فوق الجميع . أما الامر الثاني فهو المتعلق بهؤلاء الاشخاص والرؤساء ، من كان مقيما هنا في دمشق ، أو قابعا هناك في القاهرة ، فبإمكانك أن تبلغهم عن لساني أن أسلوبهم في معالجة الامور بهذا الاستخفاف بمصلحة الشعب في الاقليم السوري والاستهتار بما فيه من قيم وكرامات ومقدسات ، لن يعود عليهم وعلى الشعب والوطن الا بأسوأ العواقب . أقول هذا لا عن اقلية ضيقة ، بل عن شعور كامل بالمسؤولية نحو أمتنا العربية وأهدافها الكبرى التي نخوض معاركها لا كمرتزقة أو مستورزين ، بل كمكافحين لا نبخل في التضحية من أجلها بأعلى التضحيات » .

وازاء هذا الدرس القاسي ، لم يعد السيد جشاد يعرف مايقول ، وهو الذي اعتاد على أن يري الناس من حوله ، وكأنه هو السيد المطاع ، وهم الاتباع المطيعون .

وقد قصدت من وراء استدعاء موظف الاستعلامات المصري ،

تحقيق غايتين اثنتين : الاولى وضع حد لتصرفاته الرعناء التي لم يكن من الجائز اطلاقا استمرار السكوت عنها ، والثانية يقيني التام بأنه لن يخرج من عندي الا ليرفع ولتوه وبواسطة جهاز اللاسلكي الذي بحوزته ، تقريرا مسهبا بهذا الذي أسعته اياه كتحذير لاولئك الذين كانوا في القاهرة يصمون آذانهم عن سماع أي نداء حق ، ويعضون الطرف عن جميع ما يجري في هذا الجزء الغالي من الوطن من اساءات بالغة لا بحق الافراد والجماعات ، بل بحق الوطن نفسه ، والامة كلها ، وضد ما تحمله من أمان وتكافح في سبيله من أهداف .



زارني بعد ذلك السيد يوسف السباعي ، الامين العام لمجلس رعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لبحث الشؤون المتعلقة بفرع المجلس في الاقليم السوري . والرجل مثال للانسان الواعي ، الحصيف ، الحريص على أداء واجبه دائما والقيام بأعباء مهامه المتعددة في ميادين الفن والادب والصحافة والسياسة ، بالاضافة الى تتاجه السخي الرائع من القصص والروايات الادبية والمقالات السياسية ، فلم أكنم عنه سخطي وانطباعي حول حقيقة ما يجري في الاقليم مما سيكون له أكبر الاثر على كيان الجمهورية العربية المتحدة ، ونظرة الشعب لاشخاص الحكام ، مع تبدل هذه النظرة بين الايام الاولى لقيام الوحدة وبين هذه الايام . فتأثر الرجل للصورة التي طالعه بها عن حقيقة الاحوال ، ونصح بمعالجة الحالة بترو وصراحة في آن واحد ، بأمل الوصول الى حلول سليمة لها ، ووعد بأن يسعى من جانبه لفعل ما يساعد على تدارك الخطأ والخطر .

ولكن يبدو أن جميع الصيحات الصارخة ، والنصائح الصادقة لم تكن تستطيع أن تبدل شيئا من سير الامور التي كانت تديرها

من وراء ستار مراكز القوة والسيطرة ، وعناصر المخابرات ؛ وهي
لم تكن لتتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم وأفحش الاساءات ، الى
جانب استهتارها بجميع القيم والاماني القومية والاهداف المقدسة
التي كافح الشعب من أجلها وقدم في سبيلها أجل التضحيات •

كانت الصيحات الحارة والنداءات الصادقة تصدر عن أصحاب
النوايا الحسنة من مسؤولين وغيرهم من المواطنين الشرفاء ، ولكنها
كانت كلها تذهب هباءً في وادٍ سحيق من الاستهتار واللامبالاة ،
وتضطدم بجدار شاهق من التعالي والغرور •

التراب المقدس والتراث التليد

« أعجب الاشياء أن يغلب البطل

• الحق »

« عمر بن الخطاب »

راجعني نفر من أبناء لواء اسكندرون الذي اغتصبته تركيا من الكيان السوري ابان الاحتلال الفرنسي ، وأبدوا رغبتهم في اقامة الاحتفال السنوي بمناسبة سلخ اللواء السليب تحت رعاية سلطات الاقليم الشمالي • فقابلت سيادة رئيس المجلس التنفيذي لهذا الغرض، ونقلت له رغبة الاخوة العرب ورجاءهم بأن يرعى الاحتفال الخطابي وأن يلقي كلمة فيه ، فوافق على ذلك دون تردد • وبعد أيام قلائل، وبينما كان المهتمون بهذا الموضوع القومي قد بدأوا يعدون عدتهم لليوم الموعود ، وشرعوا بطبع رقاع الدعوة ، تلقيت مكلمة هاتفية من القاهرة وكان مخاطبي السيد رئيس المجلس التنفيذي ، وأبلغني سيادته عدوله عن رعاية الحفلة المقررة ، مع قرار الرئاسة بمنع أي من الوزراء السوريين من حضورها • ولما عاد سيادته الى دمشق ، قابلته مستوضحا ملابسات الموقف من هذه المناسبة القومية ، فأجابني بأن سيادة الرئيس أبدى رفضا كليا لا لمشاركة المسؤولين بالاحتفال

فقط ، بل وحتى باقامته ، حرصا منه على حسن علاقات الصداقة
والجوار مع الجارة تركيا ، التي كانت تتعاون تعاوناً وثيقاً مع السلطات
الاسرائيلية في ميادين السياسة والسياحة والاقتصاد .

وقد قابل أبناء اسكندرون هذه المبادرة السلية بكثير من
الاستياء ، وأصروا على عقد اجتماعهم واقامة احتفالهم في مقر ندوتهم ،
ولكن بشكل مختصر ؛ ولم تعارضهم سلطات الاقليم في ذلك نظراً
لحساسية الامر بالنسبة لابناء الاقليم السوري الذين تقلقهم مشكلة
سلخ قطعة عزيزة عليهم من أرض وطنهم العالي .

وقد فسرت الامور بيني وبين نفسي آنئذ ايجابياً ، وقلت ربما
كان القائد العربي الذي يمتلك أقوى قوة ضاربة في الشرق الاوسط ،
لا يريد تعكير مياه خليج الاسكندرون ، بالخطابات الحارة والكلمات
الصاخبة ، استعداداً لمفاجأة خاطفة شبيهة بمفاجأة بيرل هاربور ،
يعدها أسطوله البحري الجبار في جو من الصمت والسكينة ، مقدراً
أن للعسكريين حساباتهم الدقيقة وأساليبهم الخاصة في خوض المعارك
الحربية ، وهي أبعد ما تكون عن حسابات السياسيين وحداقة الخطباء
المفوهين .



شكوت مرة لسيادة رئيس المجلس التنفيذي السوري احجام
مقام رئاسة الجمهورية عن الرد على الرسائل والخطابات الرسمية التي
أرفعها له فيما يتعلق بشؤون الوزارة .

فسألني السيد رئيس المجلس التنفيذي عن الطريقة التي أتبعها
في توجيه تلك الخطابات والرسائل ؛ وأجبت بآني أوجهها مباشرة الى
سيادة الرئيس ، أبدؤها بالبسملة جرياً على طريقة السيد الرئيس في
ما يوجهه إلينا من خطابات ، وأختنها بأسى عبارات الاحترام ، ثم

أودعها لدى الامانة العامة لرئاسة المجلس التنفيذي لرافقها بالبريد الرسمي الذي يرسل يوميا الى العاصمة •
فصارخني السيد رئيس المجلس بالخطأ الذي أقع فيه عندما أوجه الخطاب مباشرة الى السيد رئيس الجمهورية ، اذ يجب أن يرسل الى السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة الذي يتولى بدوره عرض المسائل المتعلقة بمختلف وزارات الدولة على السيد الرئيس ، بعد دراستها واعداد الاقتراحات والمشاريع اللازمة لتصريفها •

فسألت السيد رئيس المجلس التنفيذي ، وكان في آن واحد وزيرا للاشغال العامة : « وسياذتكم ، هل تخاطبون السيد رئيس الجمهورية عن طريق وزارة الدولة لشؤون الرئاسة ؟ » فأجابني مؤكدا : « نعم » •

فسأله : « وهل تردكم الاجوبة عن رسائلكم ؟ » • فأجابني وبحسرة بادية في لهجته : « بكل أسف ، لا تردني الاجوبة عن رسائلي وخطاباتي الا نادرا » •



أطلعني الامين العام في الوزارة على رغبة الفرع السينمائي لدى ادارة التوجيه المعنوي في الجيش الاول ، بعرض شريط سينمائي على الرقابة وهو من اخراج وانتاج ذلك الفرع • فاستغربت الامر ، وشككت في أن يكون في المسألة لغز أو لغم • ولما طلبت الاستيضاح عن موضوع الفيلم ، جاء الجواب بأنه يتعلق بالدعاية لانجازات الوحدة • فأدركت أن لجنة الرقابة على الافلام السينمائية في الوزارة، لن تستطيع التصرف حيال قضية يبدو سلفا أنها شائكة ؛ كما أنني آثرت عدم الانفراد لوحدي بالبت في الموضوع • فدعوت السيد رئيس المجلس التنفيذي مع عدد من الوزراء ، من بينهم وزير الصناعة ووزير الصحة ووزير التربية ووزير المواصلات ووزير الشؤون

البلدية والقروية ، لمشاهدة الفيلم قبل اعطاء الاذن بعرضه ، مع أن العادة جرت سابقا بأن لا تعرض الافلام التي ينتجها الفرع السينمائي لدى ادارة التوجيه المعنوي لاية رقابة خارجة عن نطاق الدوائر العسكرية . وقد جرى عرض الفيلم الوثائقي على شاشة مدرج جامعة دمشق ، فاذ بمشاهده المتعددة قد شملت عددا كبيرا من المشاريع المنجزة قبل الوحدة ، كمرقأ اللاذقية ، ومشروع الغاب ، وجر مياه الفرات الى حلب ، والهاتف الآلي ، وغير ذلك من المشاريع العديدة المنفذة سابقا . وكان في الحوار المرافق لعرض مشاهد الفيلم تبجح ومبالغة بما أعدقه حكم الوحدة على الاقليم السوري من خيرات ومبرات ، وبما جره على أبناء الشعب من منافع ومغانم وما تم انجازه من مشاريع . ولدى الانتهاء من مشاهدة الفيلم ، أجمع رئيس المجلس والوزراء التنفيذيون على أن عرض الفيلم بشكله الحالي على الجمهور ، سيشكل فضيحة كبرى ، وأن المصلحة تقضي بمنعه بالكلية . وكان الضابط مثل ادارة التوجيه المعنوي المشرف على تجربة الفيلم حاضرا في القاعة ، فأصدرت الامر اليه ، بناء على موافقة زملائي الوزراء ، بمنع عرض الفيلم . فتلقى الضابط السوري الغيور التوجيه الوزاري باغتباط بدا واضحا على وجهه لانه هو الذي سعى لاختضاع الفيلم للرقابة ، في محاولة لتفادي الفضيحة ، فتحقق له ما أراد .

ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، فقد شنت علي بسبب الموقف الذي اتخذته بمشاركة وموافقة رئيس وأعضاء المجلس التنفيذي المختصين ، حملة ضارية مؤداها أن الوزير المسؤول عن شؤون الدعاية والاعلام ، قد حال دون مشاهدة الجواهر العريضة لما حققه عهد الوحدة في عامها الاول ، من انجاز واعجاز ، في ميادين الصناعة والانشاء والتعمير .

★ ★ ★

كان من جملة مهام وزير الثقافة والارشاد القومي الاهتمام بتجسيد البطولات باقامة التماثيل والنصب التذكارية لابطال الامة العربية ورجالاتها الافذاذ . فاتجه التفكير الى أن تكون باكورة أعمال دائرة النصب التذكارية التابعة لمديرية الفنون في الوزارة ، اقامة نصب تذكاري للشهيد البطل يوسف العظمة في موقع المعركة التي سقط فيها عند هضاب ميسلون ، قرب الحدود السورية اللبنانية . وتشكلت من أجل ذلك لجنة مؤلفة من عدد من كبار الموظفين الفنيين والاداريين يشلون الوزارات والدوائر المختصة ، فقامت اللجنة بعد الكشف على موقع المعركة وعلى الطبيعة ، باعداد تقرير دقيق ضمنت نتاج دراستها واقتراحاتها ، وأرفقت مخططا مرسوما حددت فيه المكان الملائم لاقامة ساحة عامة يتوسطها تمثال البطل ويشاد في بعض أركانها نصب تذكاري مع متحف تحفظ فيه بقايا تراث الشهيد الخالد بعد جمعها من الاحياء الباقين من أقربائه وزملائه ومرؤوسيه قبل أن تندثر مع الزمن .

وقد رأي أن تكلف دائرة الاشغال العامة بتنفيذ المشروع بالامانة . وتوفيرا لنفقات الحفر والتمهيد لاقامة الساحة المنشودة ، جرى اتصال مع قيادة الجيش الاول لتسهم بعض آليات الحفر العسكرية في أداء هذه المهمة اليسيرة . وقد اجتمعت من أجل ذلك بالفريق قائد الجيش الاول في مكتبه في مبنى وزارة الدفاع ، وقد أبدى السيد الفريق بادی الامر اهتماما بالموضوع ووعده بدراسته ؛ ولكن قبل الانتهاء من الحديث ، دخل عليه معاونه العميد عبد المحسن أبو النور ، الذي تجهم وجهه لدى رؤيته لي عند قائد الجيش ؛ ولما أطلعه قائده على الفكرة ، لم يبد أي حماس لها ، وأوحى بأن لاعلاقة لقيادة الجيش بشئ هذا المشروع ، دون الالتفات الى النفع المعنوي الذي يوفره تنفيذه لاءاء الامة العربية جوعاء ؛ لان الامة بحاجة

لامثال القائد البطل يوسف العظمة ، قائد يتقدم الصفوف لدى خوض المعركة ، فيضرب لجنوده المثل على الجرأة والاقدام ؛ قائد يصمم على مجابهة العدو بنفسه ، وفي خطوط النار الامامية فلا يسمح له بتخطيها الا على دمه وجسده .

لقد ظنت فرنسا لدى عبورها الحدود السورية فوق جسد وزير الدفاع العربي أنها حققت معجزة بانتصار جيشها الجرار المزود بالآليات المدرعة والمدافع الثقيلة والطائرات الحربية ، على شعب أعزل كانت نواة جيشه الصغير مزودة ببنادق حششتها أصابع الخيانة بذخيرة لا تجانسها .•• ولكن ما لبثت القوات الفرنسية ، بعد ربع قرن فقط ، أن تراجعت وتلاشى حلمها الكبير تحت وطأة المقاومة المستمرة التي خاضها الشعب العربي في سورية ضد عدوانها الظالم على سيادته ، واحتلالها الغاشم لاراضيه •

وكان دم الشهيد العربي البطل يوسف العظمة ، وسيظل للأبد ، وقودا حيا يزكي أوار المعارك التي يخوضها شعبنا ، ويؤجج نيران الحماسة والوطنية في نفوس أبناء هذا الوطن • فالعدوان عابر لا يلبث أن يتحطم على صخرة ارادة الشعب ، ولكن الشهادة خالدة تبقى دائما وأبدا المنارة المشعة التي تثير للأجيال طريق الحرية والكرامة •

ان يوم ميسلون هو يوم مشهود في تاريخ هذا القطر العربي ، فهلا من حق ذاك اليوم أن تكرم ذكرى أكرم شهدائه تكريما لائقا بما قدمه هو ومن سقطوا معه في أرض المعركة من خدمات وتضحيات ؟ ان تكريم ذكرى الشهداء هو في الحقيقة تكريم لكفاح الشعب وتجسيد للبطولات التي تظهر بين صفوفه ؛ وتكريم ذكرى البطل الشهيد يوسف العظمة ، باقامة نصب تذكاري لائق له في مكان سقوطه شهيدا ، في ميدان المعركة ، في ساحة الشرف والفداء ، هو تكريم لشعبنا

المجاهد الابي الذي لا يرضن أبناؤه بدمائهم وأرواحهم عندما يدعوهم
نداء الواجب اذا لم تحل بينهم وبين معاركهم الوطنية أصابع الخيانة •

لقد تركت الوزارة دون أن يتسنى لي شرف وضع حجر
الاساس في هذا المشروع الوطني ؛ وقد ظل فيما بعد وحتى الآن
حبرا على الورق • ولا أدري ان كان سيحظى باهتمام الوطنيين
الصادقين في المستقبل أم لا ؟ •

★ ★ ★

ان الامم الراقية تسعى لتخليد تاريخها الوطني وحفظ تراثها
القومي بمختلف السبل والوسائل ، لان في ذلك تجسيدا لكفاحها
ونضالها ودروسا لابنائها وأجيالها •

وكم كانت المفاجأة مذهلة عندما طرح على المجلس التنفيذي
الذي كنت عضوا فيه ، اقتراح بهدم قلعة دمشق للاستفادة من أرضها
المتاخمة للسوق التجاري الرئيسي في المدينة ، ويبيعها بعد تقسيمها
الى مقاسم تعد للبناء • وقد اعترضت على الاقتراح اعتراضا شديدا ،
رافضا الفكرة من حيث المبدأ والاساس • ولما عاد السيد رئيس
المجلس التنفيذي الذي كان في ذاك الوقت وزيرا للاشغال العامة ،
وهو كهندس اعتاد أن يقيس الامور بالارقام والمعادلات الحسابية
المجردة ، وأبدى رأيه حول ضرورة مناقشة المشروع قبل رفضه ،
طلبت ارجاء البحث فيه ، ريثما يتسنى للسيديرية العامة للآثار والمتاحف
المرتبطة بوزارة الثقافة والارشاد القومي اعداد دراسة حول هذا
الموضوع الخطير • فجاء تقرير السيد المدير العام للآثار والمتاحف
موضحا أهمية هذه القلعة التاريخية ، وقد تضمن نبذة عن تاريخها
الاثلي ، وعن بناتها العظام من قادة وحكام ، والعهود التي بنيت فيها ،
والمعارك التي دارت حولها ، مع ابراز أهميتها في صد غارات الاعداء

عن المدينة الخالدة ، عبر تاريخها الطويل الحافل بالماثر والبطولات .
كما تضمن التقرير اقتراحات مديرية الآثار حول المشاريع الهامة
الواجب تنفيذها لاطهار معالم هذا الاثر التاريخي النادر المثل في
عواصم دول العالم قاطبة .

وبعد اطلاع المجلس التنفيذي على هذه الدراسة ، صار رفض
الاقتراح « المريب » الذي يستهدف تبديد جزء ضخم من تراثنا
القومي .



أخذت الاعتقالات الكيفية وعمليات البطش بالمواطنين الابرياء
تتعاظم يوما بعد يوم ، وليس ثمة مسؤول واحد يحاول مناقشة هذه
المسائل الخطيرة المتعلقة بحريات المواطنين وكرامتهم . والمجلس
التنفيذي برمته غارق في دراسة المسائل الروتينية ، والقضايا الادارية
العادية ، التي يمكن أن يتولى تسييرها أي موظف اداري حصيف
في الدولة . ونادرا ما كانت تطرح الامور السياسية على بساط البحث،
فكانت المناقشة حولها تدور على ألسنة أعضاء المجلس بكثير من
التحفظ ، لان الحذر والخوف كانا مسيطرين على الوزراء أنفسهم،
كلهم يشعر بالمراقبة الشديدة من حوله ، والعيون تترصده في كل
مكان : في الوزارة ، في السيارة ، في الذهاب والاياب ، وفي الاجتماعات
والحفلات ، وحتى في البيت . والبعض يخشى البعض الآخر لشعوره
بأن المراقبة مفروضة حتى داخل اجتماعات المجلس التنفيذي لان عيون
المخابرات كانت حريصة على الاطسئان على أحوال المواطنين جميعا
بدون استثناء ، نواب رئيس الجمهورية قبل الوزراء ، والوزراء
قبل غيرهم . والآذان المرفهة كانت تستعين بأجهزة الاستماع ،
لالتقاط جميع مايدور بين الناس من أحاديث .

وقد راجت في تلك الايام سوق الاشرطة الصوتية بشكل منقطع النظير ، وقد شاهدت بأم عيني أكواما منها مكدسة فوق بعضها في مكتب الرئاسة في منشية البكري • وقد ظننت بادئ الامر ، أنها تحبل تسجيلات للاغاني والموسيقى تستعمل للترويح عن النفس ، والتخفيف من ثقل الاعباء والمسؤوليات • ولكن العارفين بأحوال تلك الاشرطة كانوا يتهمسون حول حقيقتها ، ويتندرون ببعض ما تحمله من أخبار وأسرار ، دون أن يكتسوا عن بعضهم أن الاهتمام بهذه التسجيلات أصبح يشكل الجزء الاضخم من تلك الاعباء والمسؤوليات •



طرح السيد وزير العدل التنفيذي على المجلس مشروعا يتعلق بالعتفو عن المحكومين السياسيين ، ودار جدل شديد حول الموضوع بين محبذ للمشروع ومعارض له ؛ وقد ظلمت ساكنا طيلة فترة النقاش • وكان سبب المعارضة التي لقيها المشروع أن الموجبات التي قدمها صاحبه لم تكن مقنعة ولا كافية • ولما أراد السيد رئيس المجلس معرفة رأيي شخصيا ، قلت : « يبدو أن الاسباب الموجبة للمشروع غير كافية بنظر السادة الزملاء ، ولكنني أقترح تبني سبب جوهري سيقنع به أعضاء المجلس جميعا ومعهم الرأي العام الذي يحسب معارضو المشروع حسابه ، وهو اصدار العفو لا بمناسبة الوحدة التي مضى على قيامها أكثر من سنة ونصف ، بل بمناسبة تشكيل الاتحاد القومي ، خاصة وأن عددا غير قليل من أعضائه ليسوا أرقى وطنية ولا أكثر صلاحا من أولئك الذين هم في السجون » • ولكن هذا الرأي لم يرق على ما يظهر للسيد وزير الداخلية الذي كان الموجه لانتخابات الاتحاد القومي بواسطة أجهزة المخابرات والمباحث ؛ فأتحتى بوزير الاصلاح الزراعي السيد مصطفى حمدون الذي كان يجلس بقربه ،

وقال له : « لماذا يصر وزير الثقافة على خلق المتاعب لنا ولنفسه ؟ »
فسأله السيد حمدون : « أليس من حق الوزير أن يتكلم ويسهم في
النقاش الدائر في المجلس مادام هو عضوا فيه ؟ » فأجابه السيد وزير
الداخلية : « بلى ، ولكن ليس باللهجة والاسلوب اللذين يتبعهما
الزميل * . والذي أريد أن يعرفه رياض وأتم معه ، أنني لست الوزير
الوحيد المكلف بكتابة ما يجري بين الوزراء من أحاديث وتعليقات
خاصة ، فهناك غيري من يتولى الكتابة أيضا » * أبلغني الوزير السيد
حمدون هذا الحديث الذي دار بينه وبين زميله وزير الداخلية دون
أدنى تعليق من جانبه .

ولكن الامور كانت في الحقيقة تتفاقم باضطراب ، والحالة تزداد
سوءا دون أن يتجرأ أحد على رفع صوته أو اثاره أي من الموضوعات
المتعلقة بحالة الاقليم السوري والاعتقالات الواسعة الجارية بين
المواطنين .

وفي احدى جلسات المجلس التنفيذي المعقودة في القصر
الجمهوري في حي المهاجرين ، وقبل الشروع في بحث المواضيع
المدرجة في جدول الاعمال الموزع على السادة الاعضاء ، بادرت
الحاضرين بقولي :

« انكم تطرحون علينا في جدول الاعمال مواضيع غير ذات
أهمية ، في حين أن هناك مسائل على غاية كبيرة من الخطورة يجدر
اعطاؤها الاولوية في البحث والدراسة خلال اجتماعاتنا » * وأثرت
موضوع الاعتقالات والجو الرهيب الذي تعيشه سورية ؛ فأجاب
السيد وزير الداخلية باقتضاب بأن الجو ليس رهيبا ، ولا صحة
مطلقا لوجود اعتقالات أو معتقلين ، سوى نفر قليل من الشيوعيين
المحتجزين لاسباب تتعلق بالامن * فأكدت أن الاعتقالات تتعدى

الشيوعيين الى غيرهم من المواطنين الابرياء ، وأن الارهاب بالغ حدا
أضحى لا يستطيع معه الوزير بحث اعتقال أقرب الناس اليه . فنفى
السيد وزير الداخلية صحة هذا الاتهام ، وطلب اعطاء أمثلة واقعية .
فسردت على مسامع السادة رئيس وأعضاء المجلس قصة قريب للسيد
وزير الزراعة جرى توقيفه بشكل تعسفي ، وبيئت حرص السيد
الوزير على عدم بحث مسألة قريبه مباشرة ، وسعيه مع زميليه
وزيري الاصلاح الزراعي والشؤون الاجتماعية والعمل للتوسط لدى
وزارة الداخلية للافراج عنه بصورة خاصة . فسأل السيد وزير
الداخلية السيد وزير الزراعة عن اسم قريبه ؛ ولما ذكره له ، قال :
« ها ، هذه مسألة ثانية ! .. ان هذا الشخص الموقوف مشاغب كبير
في حصص ، وقد كاد يحدث لي فتنه شديدة في تلك المدينة » . فعلقت
على كلامه بقولي : « ما دام الامر كذلك ، فلماذا لا تحيلونه الى
القضاء ليلقى جزاءه العادل فيكون رادعا له ولغيره من الناس الذين
يشكلون خطرا على الامن ؟ » . فتساءل السيد وزير الداخلية
باستخفاف : « وهل لدينا قضاء في هذا البلد حتى يمكن الاعتماد
عليه ؟ ان أجهزتنا لا تكاد تلقي القبض على المجرم وتحيله الى المحاكم
حتى تفاجأ بتركه فورا . » فأجبت : « ان زميلنا السيد وزير العدل
حاضر ويمكن سؤاله عما اذا كان في البلد قضاء أم لا . ومع ذلك
اذا كان القضاء يعاني بعض الخلل فيمكن العمل على اصلاحه . أما
أن نفرض من الاجهزة القسعية سلطة كاملة على حريات الناس
وكراماتهم بحجة تأديبهم ، متجاوزين بذلك سلطة القضاء المستقلة،
ففي هذه الحالة تصبح تدابير تلك الاجهزة ضربا من القدر » .

فسألني السيد وزير الداخلية محتدا : « وأنت ما علاقتك بهذه
الامور ؟ » فسألت بدوري : « ألسنت وزيرا مسؤولا ؟ واذا كان
محروما على الوزراء بحث هذه القضايا الهامة ، فمن صلاحية من

بحثها ومعالجتها ؟ » قال : « يجب أن تذكر أننا نعمل في ظل نظام رئاسي ، وأن كل واحد منا مسؤول أمام سيادة رئيس الجمهورية عن المسائل المتعلقة بوزارته فقط . فأنت مسؤول عن الثقافة ، وأنا مسؤول عن شؤون الأمن . وإذا ما وقع اضطراب أو ثورة في البلاد فلن يسألك السيد الرئيس عن ذلك » . فأجبت : « ان مفهومنا للمسؤولية يختلف عن الشكل الذي تحدده أنت حصرا ، لان مسؤوليتنا جميعا ، ومعنا السيد الرئيس ، هي مسؤولية قومية ، وشعبية ، وأدبية ، وسياسية ، قبل أن تكون مسؤولية مسلكية ، واتي اذ أثر مثل هذه المواضيع الحساسة المتعلقة بالمصلحة العامة ، فما ذلك الا حرصا على حسن تسيير الامور ودفع احتمالات السوء والمضاعفات التي يمكن أن تنجم عن استرسال أجهزة القمع في أساليبها التعسفية وعن سكوتنا عن حقيقة ما يجري على حساب حريات المواطنين وكراماتهم التي هي من كرامتنا ومن كرامة الحكم نفسه ، لان مثل هذا السكوت هو الذي سيؤدي في النتيجة الى الاضطراب وسوء العواقب » . فقال السيد وزير الداخلية : « ان جميع هذه المسائل خارجة عن اختصاص المجلس الذي هو مجلس تنفيذي ، يقتصر دوره على تنفيذ السياسة التي ترسمها السلطات العليا ، وليس هنا ثمة مجال لمناقشة تلك السياسة » .

ونظرا لحدة الجو وتوتر الموقف اضطر السيد رئيس المجلس التنفيذي لتعليق الجلسة ريثما تهدأ الخواطر .

تداعي الهرم العتيق

« والله ما ذل ذو حق وان

أطبق العالم عليه ، ولا عز ذو باطل

ولو طلع القمر من جبينه » .

« المستنصر بالله »

اتصل بي ذات يوم العقيد أكرم الديري طالبا تحديد موعد لمقابلتي ، وفي الوقت المحدد وأثناء الدوام الرسمي قدم بلباسه العسكري ؛ ولما استقبلته في الوزارة مرحبا به كصديق غال وعزيز مضى زمن طويل لم أره فيه ، اعتذر عن احتجابه طيلة فترة وجودي في المنصب الوزاري ، مبينا أن مبعث ذلك هو الحرص على تفادي المشاكل التي قد تنجم عن احتكاكه كعسكري بأوساط السياسيين * وانتقل بعد هذا الاعتذار اللطيف الى تفسير أسباب زيارته هذه ، بعد ذاك الانقطاع الطويل ، وقال : « أما اليوم فاني أتيتك بتكليف رسمي من أمري معاون قائد الجيش الاول العقيد عبد المحسن أبو النور » فقاطعته بقولي : « أنا لا أتقبل أي تدخل في شؤون الوزارة من جانب العسكريين ، وقد جرب السيد أبو النور قبل هذه المرة مباحثتي هاتفيا في مسألة تتعلق بإجراء اتخذ من قبل أحد مسؤولي

في الوزارة ، فنهيته عن مثل هذه المحاولة ورفضت الاستماع اليه » • فقال لي العقيد ديري : « دعني أكمل حديثي ، فالعמיד أبو النور لا يكن لك الا كل تقدير واحترام ، وهو في هذه المرة مكلف بأمر من سيادة الرئيس الذي يحمل لك أيضا كل مودة ومحبة ، وسيادته متمسك بك في الوزارة أكثر من تمسكه بغيرك من الوزراء » • فقلت له : « اذا كان في المسألة مساومة على الوزارة فأنا عازف عنها وبرم بوجودي فيها نتيجة الجو الموبوء الذي نعمل فيه » • فقال العقيد ديري : « من الواضح أنك تعاني بعض الصعوبات ، وتلقى كثيرا من المعاكسات لدى ممارسة صلاحياتك ، ولكن ثق أن جميع هذه الصعوبات ستذلل من طريقك ، ولن تلقى الا كل مساعدة عندما تعدل عن الخطة التي تتبعها كوزير مسؤول » ، ولما استكرت أن يكون سلوكي محل شك من قبل أي كان ، أو أن أوضع موضع الاتهام ، أكد العكس قائلا : « أنت حائز على تمام الثقة ، ويجب أن تعلم أنك من دون الوزراء الآخرين جميعا قد سميت وزيرا ، لصفات لاصقة بشخصك ولاعتبارات خاصة بك ، وعليك كي تعزز هذه الثقة أن تعمل على تحقيق أمرين اثنين : الاول تخفيف حدة مواقفك من القضايا العامة ، والثاني قطع الصلة نهائيا بالوزراء الحزبيين ؛ وآئذ ستري كيف أنهم سيذهبون جميعا ، وستبقى أنت في الوزارة معززا مكرما » ، فقلت له : « هذه مساومة رخيصة لا أقبل بها البتة ، واني أستغرب كيف يريد مقام الرئاسة مني أن أقطع صلتي بأناس جعلني قرار تشكيل الوزارة زميلا لهم ، ملتصقا بحكم عملي بهم ، هذا بالاضافة الى كون بعضهم أصدقاء شخصيين ورفاقا سابقين في النضال السياسي المشترك ، واني أستغرب أيضا كيف ينظر الى هؤلاء الوزراء كحزبيين في حين أنهم أسهموا في حل حزبهم عن قناعة ورضى تسهيلا لقيام الوحدة بين القطرين • ومع ذلك ، فما دام الامر يتعلق ببقائي في الوزارة أو خروجي منها ، فاني أصبحت أفضل التخلي عن هذا

المنصب اليوم قبل غد ، ولا يهمني أبدا أن يبقى سائر الزملاء في مناصبهم الوزارية • والذي يجب أن يعلمه مقام الرئاسة قبل غيره ، هو أنني لست سياسيا محترفا ، ولا اتهازيا مستوزرا ، وان صراحتي هي جزء من كياني ووجودي ، وأنا لا أعمل الا بوحى من قناعتى ، وان ضميري مرتاح لسلوكي ولجميع تصرفاتي ، وان كنت أُلوم نفسي على شيء فهو أنني قبلت الاشتراك في هذه الوزارة منساقا وراء عاطفتي الوطنية وحماسي القومي اللذين تأججا لدى قيام الوحدة بين القطرين العربيين • والآن ان أخشى ما أخشاه هو أن تؤدي الأخطاء السياسية التي تتراكم يوما بعد يوم الى تصدع هذه الوحدة، التي نريدها دائما وأبدا قوية خالدة سرمدية » •

وبعد أن عددت للعقيد ديرى الكثير من الملاحظات حول الأخطاء التي ترتكب والاساءات التي توجه الى الشعب والحريات العامة وكرامة المواطنين بما فيهم الوزراء أيضا ، لم يكتف عني بدوره سخطه وتقته هو وأغلبية العسكريين السوريين لما يجري على صعيد السياسة والحكم والادارة ، سواء في النطاق المدني أو في الميدان العسكري • وانصرف السيد ديرى الى قيادته لينقل بالتأكيد خبر فشله في اقناعي بالشروط التي كلف بحملها الي ، كما أطلعت أنا بدوري نائب رئيس الجمهورية السيد أكرم الحوراني على خلاصة الحديث الذي دار بين مندوب الرئاسة والجيش وبينى • ولكن السيد الحوراني الذي استهجن مثل هذا الاسلوب في معالجة شؤون الحكم وفي توجيه سلوك الوزراء الزملاء نحو بعضهم ، فاتح سيادة الرئيس معاتبا من جهة ، ومحفذرا من مغبة الاسترسال في اتباع هذا الاسلوب في تهديم علاقات المسؤولين ببعضهم من جهة ثانية • ولم يكتف السيد الحوراني عن سيادة الرئيس أيضا وبحسن نية أكيدة الصورة التي

أعطاهما السيد العقيد ديرى عن استياء العسكريين من الاوضاع العامة وتلك الخاصة بهم، وما قد يجره هذا الاستياء على نظام الحكم من أخطار. ولكن هذا الحديث الصريح من قبل نائب الرئيس مع سيادة الرئيس لم يسفر الا عن مزيد من التعقيدات والصعوبات التي أمعنت السلطات العليا بواسطة الاجهزة التابعة لها مع دوائر المخابرات ، في وضعها في طريق ممارسة نشاطي الرسمي وصلاحياتي الوزارية .



في أول شهر أيار (مايو) ١٩٥٩ تلقيت رسالة وردتني بالبريد الرسمي عن طريق رئاسة المجلس التنفيذي في الاقليم السوري ، وهي صادرة عن وزارة الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية ، مهبورة باسم الوزير السيد علي صبري ، ولكن دون أن يكون عليها أي توقيع أو امضاء منه أو من غيره .

والرسالة كانت على جانب كبير من الخطورة والاهمية . ولكن لماذا أرسلت الي مغفلة من التوقيع ؟ هل لان السيد الوزير ، المرسله باسمه ، كان مدركا تماما لمعنى كلماتها ، ومغزاها العميق ، ومدلولها البعيد المرتبط بنظرة الحكم الى موضوع الحريات العامة وعلى رأسها حرية الكلمة ؛ ولذلك لم يشأ أن يأخذ على عاتقه مسؤولية مثل هذا التوجيه الخطير الذي تضمنته الرسالة ؟ أم أن موظفي الوزارة أرسلوا الرسالة دون أن يعرضوها على وزيرهم ، عمدا أو نتيجة السهو أو الاهمال ؟

قد لا تكون للورقة أية قيمة من وجهة نظر القانون الذي يعتبرها بحكم العدم لانها لاتحمل توقيع من صدرت باسمه ؛ ولكنها ، بما كانت تحمله من أوامر ونواه ، في أدق مسألة تتعلق بسياسة الدولة،

وبالمسلك الذي يجب أن يخضع له الوزير ، في ظل نظام الحكم السائد فيها ، كانت لها أهمية وقوة أعظم من قوة القانون .

لقد صدرت وكأنها صك دستوري ملحق جاء متسا لمبادئ الدستور الموقت الذي تضمنه الميثاق القومي المتفق عليه بين رئيسي جمهورية مصر والجمهورية السورية في مطلع عام ١٩٥٨ ، والحائز على موافقة كل من مجلس الأمة المصري ومجلس النواب السوري . ولكن مصدر الصك الجديد لم يكن الشعب ، ولا مجالسه التشريعية المعطلة ، ولا سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة الذي بايعه الشعب في كل من القطرين العربيين ، مصر وسورية ، وجعله رئيسا للجمهورية الفتية ، وأميناً على مقدراتها وحامياً لدستورها الموقت ريثما يتم وضع الدستور الدائم الذي أمر الدستور الموقت باعداد العدة لاصداره نهائياً .

لقد كانت الرسالة في الحقيقة تشكل مخالفة دستورية بالغة الأهمية وشديدة الخطورة . انها تشكل تجاوزاً صريحاً للصلاحيات من جانب وزير ليس له أن يأمر وزيراً آخر ، بالإضافة لما ترمي اليه من جهة تعطيل حرية الكلام ، حتى على الوزراء أنفسهم ، في حين أن المادة الثالثة من الدستور الموقت نصت على أن « الحريات العامة مكفولة في حدود القانون » . وقد تذكرت ، لدى اطلاعي عليها وتأملتي فيها ، ما كان وجهه السيد رئيس الجمهورية من كلام قارص الى السيد وزير العدل التنفيذي السوري ، عندما حاول الاعتذار عن الاجابة عن سؤال السيد الرئيس حول موضوع سياسي حساس ، بحجة أنه وزير فني لا يريد الاهتمام بشؤون السياسة . فقد كان تعليق السيد الرئيس على ذلك الاعتذار ورفضه له ، صريحاً حاسماً ؛ اذ أكد سيادته على أن مجرد وجود شخص الوزير في الوزارة يجعل منه سياسياً مسؤولاً عن مناقشة القضايا السياسية ومعالجة شؤون

الدولة • فكيف يريد السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة من زميله في الحكم ، أن لا يبوح ولو بكلمة ، ولا يدلي بأي تصريح له علاقة بشؤون السياسة وقضايا الساعة ؟ وإذا كان مطلوباً من وزير الاعلام أن لا يتكلم أو يدلي بأي تصريح ، فمن سيكون اذن الناطق بلسان الدولة والموجه لشؤون الدعاية في ما يتعلق بالقضايا التي تهم المواطنين بدءاً من القضايا الوطنية المصرية وانتهاء بأبسط المسائل الادارية أو المحلية ؟ وما هو ياترى موقف السيد رئيس الجمهورية من هذا التصرف الغريب الذي أقدمت عليه وزارة الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية ، والذي بلغ حد المخالفة الدستورية ؟ هل هو صادر حقيقة بتوجيه من سيادته ، أو على الاقل باطلاعه وموافقته ؟ وإذا كانت هذه رغبته ، فلماذا لم تصدر الرسالة عنه مباشرة ، كما جرت العادة أن يفعل في الحالات العادية ، وفي الامور الاقل خطورة وأهمية ؟

وتسارع الظروف لتعجل بوضع من وجهت اليه الرسالة أمام تجربة صعبة ، واختبار دقيق لمدى استعدادده لمسايرة الركب ، وانزلاقه الى هاوية الصمت التي كان يراد للقضايا الوطنية المصرية أن تدفن فيها •



ففي ليلة الخامس عشر من أيار (مايو) وهو نفس اليوم المشؤوم الذي أعلن فيه عن قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٧ أي قبل اثنى عشر عاماً ، أتاني الى داري المدير العام لهيئة الاذاعة السورية السيد يحيى الشهابي ، مبدياً أسفه الشديد لانه لم يتلق من القاهرة وحتى ذلك الوقت المتأخر ، أي توجيه يتعلق بهذه المناسبة القومية الهامة ، مؤكداً على أن الدولة لم تكن في الماضي تهمل اعطاء هذه المناسبة ما تستحقه من اهتمام ، وأن لا بد من القاء كلمة تعبر عن الموقف الرسمي من هذه

الذكرى الالوية القاسية • ولما طلبت منه اعداد تعليقات سياسية تفي بالغرض المنشود ، واذاعتها بأعقاب النشرات الاخبارية ، أجب بأن التعليقات الاذاعية المعتادة لا تكفي ، ولا بد من توجيه كلمة الى المواطنين بلسان أحد المسؤولين تعبر عن سياسة الحكم تجاه فلسطين، وألح على أن أتولى أنا بنفسى توجيه الكلمة بالنظر لكونى الوزير المسؤول عن أجهزة الاعلام فى الاقليم السورى •

وكان على ، حسب تعليمات السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة، فى رسالته الموجهة فى أوائل الشهر ذاته ، أن أتوجه بطلب المشورة من القاهرة ، للحصول على الاذن بالكلام وعلى ما يجب أن أتكلم به • ولكنى أنا شخصا ، وبعد الاقتناع بوجهة نظر مدير الاذاعة ، ودون الرجوع الى القاهرة ، نظرا لضيق الوقت ، عزمت على توجيه كلمة صريحة الى الشعب ، عبر موجات الاذاعة ، أضمنها رأيى وأحاسيسى المستمدة من وجداني القومي ومن مبادئ الكفاح العربى المواصل فى سبيل استعادة الارض المقتصة • وانبرت اثر ذلك لكتابة كلمتى ، بينا طلب مدير الاذاعة من بعض الموظفين الفنيين احضار الجهاز اللازم لتسجيل الكلمة تهيذا لاذاعتها فى الوقت المناسب •

وفى صباح اليوم التالى ، تولت اذاعة دمشق بث الكلمة المسجلة بصوتى عبر موجات الاثير ^(١) • ولم تكن عباراتها لتخرج فى الحقيقة

(١) نص الكلمة المداعة من اذاعة دمشق :

فى الخامس عشر من شهر ايار عام ١٩٤٨ ، نفذت على ارض فلسطين العربية ، اخطر واحقر مؤامرة هرفها تاريخ البشرية ، منذ القديم وحتى الآن •

وكان المتآمرون هم اقطاب الدول الاستعمارية جميعها ، وعملاءهم من الحكام العرب الذين اعمتهم انانياتهم الشخصية ، ومصالحهم الفردية ، وجعلتهم ينحدرون الى الدرك الاسفل من الخيانة ؛ فكانوا



عما يختلج في صدر أي مواطن عربي ، وعما تلقفه كتب التاريخ لطلابنا في المدارس الرسمية منذ الصفوف الابتدائية وحتى نهاية



هم انفسهم الاداة المباشرة التي استخدمها المستعمرون والصهاينة لتوجيه الطعنة الفادرة الى جسم هذا الجزء الغالي من الوطن العربي .

وكان اقحام الجيوش العربية في غمار المعركة ، هو الفصل البارز من فصول هذه المؤامرة الدولية الخطيرة التي قامت على اكبر خدعة انطلقت ، لا على شعب فلسطين وحده ، بل على الشعب العربي كله ، اذ لاقت فكرة دخول هذه الجيوش ارض المعركة تأييد وحماس جماهير الشعب في كل مكان . وكان الاعتقاد السائد ان القيادة العليا لهذه الجيوش كانت في ايد امينة ، وان الجولة من شراذم اليهود لن تطول ، وان من مصلحة ابناء فلسطين اخلاء ارضهم وهجر بيوتهم الى حين قصير ، ريثما يتم تطهير بلدهم من رجس العصابات الصهيونية الباغية ، وبذلك يوفرون على انفسهم الخسائر والضحايا ، ويضمنون العودة الى ارضهم الطاهرة في وقت قريب .

ولكن بفعل الخيانة ، وحدها ، انتقلت المبادهة الى ايدي الاعداء الفادرين . وكان الثمن الذي دفعه العرب ، نظير خيانة حكامهم ، هزيمة مصطنعة ، وعارا الصق بجيوش سبعة ، كان اي منها كفيلا لوحده بتحرير فلسطين ، فيما لو ترك الزمام لضباطه الاحرار ، وخسارة لارض يفنديها اهلها بالدماء والارواح ، وتشريدا لمليون عربي ما لانوا يوما في وجه الطفافة المستعمرين واتباعهم الصهيونيين ، وولادة دولة مسخ هي دولة اسرائيل المزعومة .

وهكذا نجحت المؤامرة نتيجة غفلة الشعب ، وتعدد القادة ، وزيف القيادة التي لم تكن نابعة من صميم الشعب ، بل كانت مفروضة عليه ، اما بالخداع ، أو بقوة الاستعمار وحرب المحتلين الفاصين .

ولو ان عرب فلسطين تركوا وشأنهم ، لما كانت اقترنت المؤامرة على ارضهم ، الا بمثل ما باغت به المؤامرة على بور سعيد الباسلة . وما بطولة شعب فلسطين الا كبطولة شعب مصر والجزائر ، ولكن



مراحل التعليم الجامعي • ولكن النظام الرئاسي اذا لم يحط
بالضمانات الدستورية الكافية ، وان لم تنهض فيه السلطات العليا ،



يد الغدر والخيانة هي التي فعلت فعلها في احلال الكارثة ، ووقوع
المأساة .

ولكن الكارثة لم تكن لتثني الفلسطينيين عن عزمهم على استعادة
أرضهم ، والمأساة لم تكن لتفت في عضد العرب في كافة ديارهم ؛ بل
على العكس ، فمن آثار تلك الكارثة الرهيبة ، وفي جو المأساة الاليمة ،
عرف العرب حقيقة حلفائهم المزعومين ، وواقع حكاهم المخادعين .
وتنبه الوعي العربي ، واستيقظ المارد الجبار ، ونشبت في بلاد العرب
الثورات التحررية . وكان من أبرز تلك الثورات ، ثورة مصر الجبارة
بقيادة البطل الناصر جمال عبد الناصر الذي رسم ، منذ البداية ،
لهذه الثورة أهدافها . وكان على رأس هذه الاهداف ، تحرير البلاد
العربية جميعها ، والكفاح في سبيل تحقيق وحدتها .

ولذا كان من منطوق الامور أن تلتقي مصر وسورية ، بعد تحررها ،
التقاء تاماً ومباشراً ، وأن تتحقق الوحدة التامة بينهما ، بقيام هذه
الدولة العظمى في الشرق الاوسط ، الجمهورية العربية المتحدة . وكان
من بداهة الامور ايضا أن تتجه هذه الجمهورية بكليتها حكومة وشعباً ،
نحو تحقيق اهداف العرب جميعاً في التحرر والوحدة ، وأن تستقطب
في هذه المعركة ، معركة التحرر العربي ، أحرار العرب كلهم ، لان هذه
المعركة ليست معركة الجمهورية العربية وحدها ، بل معركة العرب
جميعهم .

وقضية فلسطين نفسها ، وذكرى الخامس عشر من ايار ذاتها ،
تنهضان اليوم ، في هذه المرحلة الخطيرة التي تجتازها الامة العربية ،
لتذكراننا بالعبرة التي خرجنا منها من معركة فلسطين ، وهي أن السبيل
الاسرع لانتقاذ باقي أجزاء الوطن العربي من براثن الاستعمار والعبودية ،
هو في اتحاد العرب وتضامنهم ، وأن تحرير فلسطين يمكن أن يتحقق
بتجميع جهودنا وقوانا ، وتوحيد قيادتنا ، والاخلاص لمبادئ ثوراتنا



كالسلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، لتارس دورها ورقابتها بشكل دستوري فعال ، لا يلبث أن ينقلب الى نظام فردي ديكتاتوري ، لا يدع أي مجال لأي انسان أيا كانت صفته أو منزلته أن يعبر عن رأيه ومشاعره حتى في القضايا المصيرية التي لا تتعلق بوطنه وشعبه وحدهما بل وحتى بكيانه وكرامته ووجوده على أرض هذا الوطن . لذلك اعتبرت الكلمة المذاعة من قبلي في اذاعة دمشق مخالفة صريحة للتعليمات الموجهة الي خطيا ، من السيد وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية ؛ اذ كان يتحتم علي حسب تلك التعليمات أن لا أدلي



التي ما قامت هنا وهناك الا بقصد تحرير الوطن العربي وتحقيق وحدته .

وفي هذا اليوم بالذات ، يوم الخامس عشر من ايار ، حيث تعلمنا درساً يجب أن لا يطوى من ذاكرتنا ، وأن لا يغرب بأي حال عن الينا ، وهو أن القوة هي في اتحادنا وتضامننا ، وأن الهزيمة والخسران هما في تفرقنا وتناحرنا ، وأن خلافاتنا لن تخدم الا أعداءنا المستعمرين الذين يهللون ويكبرون لمنازعاتنا التي فيها خدمة لمصالحهم ، ودوام لسيطرتهم ، وبقاء لريبتهم المسخ اسرائيل .

فهلا وعينا هذه الحقيقة التي ما فتى زعيمنا وقائدنا المفدى جمال عبد الناصر يؤكدنا ، في كل مناسبة ، اخلاصاً منه لمبادئ ثورتنا العربية ، وحرصاً منه على تحرير الوطن العربي عامة ، وفلسطين خاصة ، وهي التي روى ثراها هو وزملاؤه الاحرار ، من ضباط وجنود الجيوش العربية ، بعرقهم ، ودمائهم الزكية .

فبراً بهذه الدماء وثأراً لارواح الشهداء ، يقتضي الواجب احرار العرب في كافة ديارهم وأقطارهم ، أن يقفوا اليوم صفاً واحداً في الطريق التي سقط ويتساقط فيها شهداء القومية العربية في كل مكان ، طريق تحرير فلسطين والجزائر وعدن وعمان وغيرها ، طريق الوحدة العربية الشاملة .

بأي تصريح في أية مناسبة ، وأن أحصل مسبقا على موافقة مقام الرئاسة على كل كلمة أو حرف أفكر بالتعبير عنه بأية وسيلة من وسائل التعبير •

لقد خرقت اذن الصك « فوق الدستوري » الذي تضمنته الرسالة الواردة الي ، بدون توقيع ، وأسأت استعمال الجهاز الاداعي الذي هو من أهم وسائل الحرب النفسية التي صممت الزعامة السياسية والقيادة العربية على خوضها ضد اسرائيل عوضا عن المعركة المسلحة . ولذلك كان لابد من اتخاذ اجراء حاسم ، لمنع تكرار هذا الخرق الفاضح للتعاليم فوق الدستورية ، وللحيلولة دون أن يعلو صوت ما في الجمهورية الفتية القوية ، على صوت المعركة • فليزرع اذن هذا السلاح الرهيب ، الذي هو سلاح المعركة الاول والاخير ، من يد هذا الوزير الشاب المتهور وقليل الخبرة في الشؤون الدبلوماسية والعلاقات الدولية ، بعد تطاوله على دولة هي عضو في الامم المتحدة، وكيانها مكفول من دول المعسكرين الكبيرين • ولم تمنح برهة وجيزة من الزمن ، الا وصدر الامر السامي بتجريد وزير الثقافة والارشاد القومي من صلاحية الاشراف على المديرية العامة للإذاعة في الاقليم السوري ، وبربطها مباشرة بوزارة الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية •

★ ★ ★

لم أتأثر كثيرا لانهاء ندبي للاشراف على شؤون الإذاعة ولم اعتبره حرجا للثقة كما راحت تروج لذلك الصحف والاذاعات المعادية، لان هذا الاشراف ظل في الحقيقة شكليا منذ بدء تكليفي به • فالصلاحيات المتعلقة بسديرتي الدعاية والانباء والاذاعة كانت أصلا من اختصاص رئاسة مجلس الوزراء ، وقد انتقلت برمتها الى رئاسة

الجمهورية لدى قيام الوحدة بين القطرين ؛ وقد كان سيادة الرئيس حريصا كل الحرص على الاحتفاظ بهذه الصلاحيات ، ولم يوافق البتة على نقل ولو جزء منها الي ، رغم صدور قرار جمهوري باعطائي صلاحيات الوزير المختص فيما يتصل بمديرتي الاذاعة والدعاية والانباء ، وهي صلاحيات تقتصر على ادارة شؤون الموظفين فقط .

وقد استفادت هيئة الاذاعة من تسعي بهذه الصلاحيات للتخلص من بعض الموظفين الذين كانت تربطهم صلات خفية بأجهزة المخابرات أو المباحث ، فكانوا يشكلون في أوساط موظفي الاذاعة مراكز قوة يستغلونها لارهاب زملائهم بدءا من المدير العام و انتهاء بالفنانين والفنانات المساهمين في احياء برامج الاذاعة الفنية والغنائية . وقد نقلت بعض هؤلاء الى وظائف أخرى في وزارة الثقافة حيث وضعتهم خارج مراكز القوة . أما التوجيه السياسي فكان مصدره وزارة الدولة لشؤون الرئاسة ، وكان يأتي مباشرة الى هيئة الاذاعة والى مديرية الدعاية والانباء ، وكانت تأتيني أحيانا نسخ عنه على قصاصات من ورق وبالقلم الرصاص يحضرها أو يبعث الي بها موظف الاستعلامات المصري . والحقيقة التي لمستها بنفسي أن جهاز الاذاعة كان كالطبل الاجوف ، ضجته تصم الآذان ، ولكنه فارغ ، خاو على عروشه ؛ ويسكن تشبيهه بسلة ذلك المارد الاسر الذي شاهدته في صباي يعرض ألبابه على جمهور المتفرجين الدمشقيين وعلى قارعة الطريق ، فيأخذ عليهم ألبابهم ويعقد ألسنتهم من الدهشة ببراعته وحكته الفائقين .

كانت السياسة تستهدف من وراء ذلك الجهاز الفارغ ، اخراج كؤوس المر والعلقم والايحاء الى شاربها المواطنين بأنها اللبن والعسل؛ ثم لا تلبث أن تخرج من جوفه سيوفا براقة توهم العرب بأنها ستجهز بنصائها الحادة على دولة العصابات الصهيونية ، ولكن سرعان ما كان

المواطنون المقهورون يكتشفون أن تلك السيوف انغrust في حلوقهم لتخنق حرية الكلمة حتى في أفواه الوزراء • ويأتي بعد ذلك كله دور الدنانير والليرات الذهبية التي كان الحواة البارعون يوهمون الرأي العام بأنها ستملأ خزانة الدولة وجيوب رعاياها عن طريق برامج التنمية ومشاريعها السخية ، فلم يكد يمضي حين قصير من الدهر حتى وقعت الخزينة العامة في عجز مالي كبير ، وفرغ المصرف المركزي من مدخراته الوفيرة من القطع النادر ، ووجد الناس أنفسهم يقفون أرتالا أمام دوائر الشؤون الاجتماعية والعمل يشدون العمل البسيط والاجر الزهيد يسدون به رمق أطفالهم الجياع ، وكثيرا ما كانوا يعودون بعد طول انتظار وفارغ صبر ، خالي الوفاض صفر اليدين •



جاءني ذات يوم المواطن السيد منير الشريف بخبر جد مثير ، وهو أنه تابع بنفسه ما يتلى صباح كل يوم في الاذاعة من آي الذكر الحكيم ، فلاحظ أن التلاوة لا تشمل الآيات والسور التي يندد فيها القرآن الكريم ببني اسرائيل • وقد استدعيت مدير الاذاعة خصيصا لهذا الغرض وأمرته بالتحقيق في هذا الامر الخطير ، ولكن الامر السامي بالغاء اشرافي على الاذاعة حال دون متابعتي لهذا الموضوع ، الذي ربما كان لاهتمامي به ، كما كان لكلمتي الاذاعية تلك ، الاثر الفعال في ما صدر من اجراء حجب عني صلاحية الاشراف على الاذاعة •



نصت المادة الخامسة من الدستور الموقت على أن يتولى السلطة التشريعية مجلس يسمى مجلس الامة ، واشترطت أن يكون نصف أعضائه على الاقل من بين أعضاء مجلس النواب السوري ومجلس الامة المصري ، كما نصت على أن يحدد أعضاء هذا المجلس ويتم

اختيارهم بقرار من رئيس الجمهورية • وكان من المفترض أن يتم تشكيل المجلس غداة الاعلان عن قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ليتولى السلطة التشريعية ، حسب أحكام الدستور ، وتكون له الرقابة الدستورية على أعمال السلطة التنفيذية •

ولكن مضى أكثر من عامين على قيام الوحدة دون أن يصار الى تشكيل المجلس ، وقد افرد رئيس الجمهورية خلال تلك المدة الطويلة لوحده ، دون تفويض من الشعب أو من أي من مجلس الامة المصري أو مجلس النواب السوري ، بممارسة السلطة التشريعية الى جانب السلطة التنفيذية التي أولته اياها المادة السادسة من الدستور •

وكانت هذه مخالفة دستورية صريحة ، رافقها عدد من المخالفات الدستورية الاخرى ؛ وهي لا تقل عنها شأنًا أو خطرا • فالمادة الثانية من الدستور تنص على أن يكون لكل اقليم مجلس تنفيذي يرأسه رئيس يعينه رئيس الجمهورية ويعاونه وزراء يعينون بناء على اقتراح رئيس المجلس • ولكن نص هذه المادة لم يحترم بشكل تام ، فرؤساء المجالس التنفيذية لم يقترحوا تعيين الوزراء ، وانهم لو فعلوا ذلك لتحروا اختيار عناصر يتوفر بينها الانسجام ، في حين أن من جرى تعيينهم بدون اقتراح رؤساء المجالس التنفيذية في الاقليم السوري كان يشكلون خليطا غير متجانس من الموظفين المدنيين والضباط العسكريين ، وقليل من السياسيين السابقين •

واذا كان لبعض هؤلاء العذر في السكوت عن المخالفات الدستورية المرتكبة لكونهم من الموظفين أو من الضباط ، فانه لم يكن للسياسيين ، وأنا واحد منهم ، أي عذر في ذلك ، لان التفاوضي عن المخالفة الدستورية هو اشتراك في ارتكابها ؛ وللمخالفات الدستورية حساب دقيق وصارم لدى الشعوب الراقية ، وان كنا قد

اعتدنا في متجمعاتنا التستر على مثل هذه المخالفات والتجاوز عنها حتى ولو بلغت درجة الخيانة العظمى •

وقد تراكمت المخالفات ، الواحدة فوق الاخرى ، دون أن يتصدى انسان ما ، لا لاجباطها أو قسها ، بل وحتى لرفع عقيرته بالنقد أو الشكوى • وكان للسواطين العذر في السكوت عن تلك المخالفات ، لما ساد الاقليم السوري من جو ارهابي قاس مرير ، لم يكن لينجو من ويلاته حتى الصامتون • أما الوزراء والسياسيون منهم خاصة فإن سكوتهم بل ومجرد قبولهم الاشتراك في حبل أعباء السلطة في ظل غياب المؤسسات الدستورية يشكل اشتراكا في الاثم بحق الشعب ؛ وان كان انجراف هؤلاء مع التيار يعود الى أسباب عدة أهملها الموجة الحساسة العاطفية التي رافقت قيام الوحدة وطغت على أي تفكير حر هادىء سليم ، وقوة شخصية رئيس الجمهورية الذي كان محط آمال الامة العربية ؛ فقد انحلت بأمره الاحزاب ، وتخلت عن قياداتها الزعامات ، وانحنت أمامه الهامات ، وغدت الانظار شاخصة الى القائد الكبير ورائد الامة العظيم والآمال الضخمة معقودة عليه ، والنفوس تواقّة للنصر الكبير الذي كان يأمل الشعب بتحقيقه تحت قيادته المظفرة •

ولكن سرعان ما اكتشف الشعب أنه يسعى وراء السراب ، وتكشفت الصورة أمامه واضحة سافرة ، وهي أن نظام الحكم الذي يسوده ليس الا حكما ديكتاتوريا بوليسيا ارهابيا ، تسيره أجهزة المخابرات والمباحث التي راحت تسعن في ارهاب المواطنين والتنكيل بالمعارضين بشكل لم يعهده شعبنا في أظلم عهود تاريخه •

★ ★ ★

كان يمكن أن تسير الامور على غير هذا المنوال فيسا لو احترم

الدستور ، وتكونت المؤسسات الدستورية كما حدد خطوطها العريضة ورسم معالمها الواضحة الدستور المؤقت للدولة الجديدة . وقد نصت المادة الثالثة عشرة من هذا الدستور على تكوين اتحاد قومي للعمل على تحقيق الاهداف القومية ولحث الجهود لبناء الامة بناء سليما من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وقد عهدت المادة المشار اليها الى السيد رئيس الجمهورية تكوين هذا الاتحاد بقرار منه .

وكان المعتقد أن الاتحاد القومي سيكون الدعامة الاساسية في بناء الدولة الجديدة ، وسيكون هو المصدر الرئيسي والموجه الاول لجميع السلطات ، وان اتاحة الفرصة ومنذ البداية للسواطين الاحرار والناس الشرفاء على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، لتشكيل هذا الاتحاد سيشكل القاعدة الشعبية الديمقراطية الواسعة في بناء هيكل التنظيم السياسي الجديد . وكان من المنتظر أن تشكل الاجهزة الدستورية وأن تنبثق القيادات السياسية عن طريق التسلسل الهرمي بدءا من القاعدة وانتهاء بالقيادة ؛ فيكون الشعب هو قاعدة الهرم ، والقيادة العليا هي رأسه . ولم يكن ليخطر ببال أحد من المواطنين العرب أن تنعكس الامور وتنقلب الاحوال ، بأن يقف الهرم العتيد على رأسه وأن تبقى قاعدته العريضة الواسعة معلقة في الهواء . فالهرم في مثل هذه الحال لا يمكن أن يقف طويلا ، وأن يصعد كثيرا أمام العواصف ولا بد أن يتعرض سريعا وسريعا جدا للانهار مهما بلغت ضخامة الرأس وقوته ، بعكس الهرم الفرعوني الاكبر في الجيزة الذي ظل صامدا آلاف السنين يتحدى أعاصير الزمان ويجابه خطوط الدهر ، لان قاعدته راسخة على الارض وأنفه شامخ في الفضاء .

★ ★ ★

لقد تأخر كثيرا صدور قرار رئاسة الجمهورية بتشكيل الاتحاد القومي ، وكان في غيابه وغياب أي تنظيم سياسي حزبي أو شعبي ، فرصة لاجهزة المباحث والمخابرات لتمعن في الفتك بحريات الناس وكراماتهم ومصالحهم وحتى بأرواحهم ، لم ينج من برائتها مدني أو عسكري ، سياسي أو حزبي ؛ يرافق ذلك سوق رائجة للمتاجرة بالضمان وشراء المحاسيب والانصار • وأخيرا وفي مثل هذا الجو من التفسخ جرت انتخابات الاتحاد القومي • وكانت فرصة جديدة لتمزيق وحدة الصف الوطني ، ولإلهاء الشعب بمعركة وهمية كانت من أقذر المعارك التي زج فيها بالمواطنين ، لا ليتعاونوا على تكوين اتحادهم الوطني المنشود ، بل لاثارتهم ضد بعضهم بعضا ، بتحريك فلول القوى السياسية وبقايا الاحزاب المنحلة للتناحر على مراكز فارغة ومكاسب وهمية •

وقد رافق عمليات الانتخابات لعضوية الاتحاد القومي موجة من التلاعب والتزوير لم يشهد لها تاريخ سورية الحديث مثيلا ، لا أيام الانتداب ولا في عهد الاستقلال ، وحتى في أيام الديكتاتوريات العسكرية الفاجرة •

وقد أكره جميع الوزراء التنفيذيين السوريين على ترشيح أنفسهم لتلك الانتخابات في حين أن بعضهم كان لا يود خوض هذه المعركة الانتخابية مع رغبة أكيدة في التخلص من أعباء الحكم ومآزقه السياسية • وكان أحد هؤلاء السيد وزير التربية والتعليم التنفيذي، فقد سافر خصيصا الى القاهرة وكنت بصحبته وسعى مع زميله السيد وزير التربية والتعليم المركزي لاعفائه من هذا الحرج الكبير ، فهو أديب وشاعر وأستاذ جامعي ، وقد سبق له الانتساب الى الحزب العربي الاشتراكي ، واحتل مركزا قياديا رفيعا فيه ، ولكنه بعد قيام عهد الشيشكلي والاجراءات السياسية القسرية التي رافقته وبعد دمج

حزبي البعث العربي والعربي الاشتراكي وتوحيدهما ، عزف الرجل
الاديب وأستاذ الجامعة القدير ، عن العودة لممارسة أي نشاط حزبي
أو سياسي ، وانصرف الى ممارسة التدريس في الجامعة موجها اهتمامه
باخلاص وأمانة للعلم والادب والثقافة ، حتى ندب لدى تشكيل
الوزارة الثانية ليتولى وزارة التربية والتعليم ، حيث لاحظ تسلط
المستشارين المصريين على مقدرات الوزارة ، فعافت نفسه مرة جديدة
العمل السياسي ، ووجد في الاعتذار عن ترشيح نفسه لعضوية
الاتحاد القومي فرصة مواتية للتخلي عن منصبه الوزاري • ولكن
الدوائر المركزية المسؤولة أثنته عن عزمه ، وأقنعتة بترشيح نفسه
وكفلت له النجاح سلفا في الانتخابات ، التي كان يحسب هو والكثيرون
من الوزراء الفنين مغبة خوضها وعدم الفوز فيها •

وقد باشر السيد رئيس المجلس التنفيذي في الاقليم السوري
بنفسه ابلاغ جميع الوزراء السوريين رغبة مقام الرئاسة بترشيح
أنفسهم لانتخابات الاتحاد القومي ، وظل يتابع المسعى ، حتى آخر
لحظة ، الى أن تأكد لديه تقديم طلبات الترشيح من زملائه جميعا •

ولكن في جو الدعاية والتشويش الذي رافق الحملة الانتخابية
منذ البداية ، والتي نشطت فيها أجهزة المباحث والمخابرات نشاطا
عجيبا باثارتها الاشاعات والاقاويل حول بعض الوزراء ، وبشكل
خاص ضد من فاز بالامس القريب بثقة الجمهور الدمشقي وأصبح
نائبا عن العاصمة السورية بارادة الشعب ، ولقناعتي بحقيقة الاتحاد
القومي ، حسب ما تراءى لي من خلال تجربتي في الحكم ، وبأن
الانتخابات من أجله لم تكن الا ألهية للشعب ، لم أسهم بأي نشاط
انتخابي ، ولم أشترك في أية قائمة انتخابية ، ولم أحضر أي اجتماع ،
ولم أقم بأي زيارة لجمهور الناخبين في حي المهاجرين حيث ورد اسمي
في عداد المرشحين عنه لعضوية الاتحاد القومي • ولم أبد أي اكرات

لمجرى المعركة الانتخابية ، ولا لسير عملية الاقتراع في اليوم المحدد للانتخاب . ومع ذلك كانت تردني الى داري أخبار التلاعب الخطير والتزييف المكشوف الذي كان يجري جهارا وعلنا بشكل لم يسبق له مثيل في دنيا الانتخابات .

وكنت أتسنى من كل قلبي أن تقترن المهزلة باعلان سقوطي في الانتخاب كي أضع حدا لمهزلة اشتراكي في الحكم ، لان عدم فوزي كان سيعطيني الفرصة لاعتزال الوزارة . ولكن أعلنت النتائج بفوز الوزراء قاطبة ، من كان منهم معروفا في أوساط الحي الذي جرى ترشيحه عنه أم لم يكن . كما فاز عدد من المرشحين الذين لولا الطريقة التي اتبعت في تسير الانتخابات وفي التحكم بنتائجها ، لما نال بعضهم عشر الاصوات التي أعلن عن فوزه بها . وبذلك لم يكن من المستغرب أن يحتل عضوية الاتحاد القومي أشخاص كانوا من صميم أجهزة المخابرات ، وبعضهم كان مشهورا بانحرافه الوطني . وفي لجنة حي المهاجرين كان الناجحون خليطا عجيبا من البشر ، فيهم السيد رئيس المجلس التنفيذي وبعض زملائه الوزراء ، وفيهم الموظفون الاكفاء ، والى جانبهم عملاء محترفون ، وكان السيد رئيس الجمهورية نفسه ، نعت بعضهم بهذه الصفة ، لدى بحثه موضوع الصحافة معي عند تشكيل الوزارة . وكنت دائما ، وبحكم طبعي ومزاجي ، آنف من مجالسة المنحرفين المشبوهين ، ولذلك رفضت حضور اجتماعات لجنة الحي للاتحاد القومي . وقد توالى على توجيه الدعوة الي لحضور جلساته عدد من أعضائه البارزين ، ومن بينهم السيد نصوح الدقاق الذي أبدى استغرابه أن أتمرد كوزير على النظام السياسي الذي كنت جزءا منه ، فطمأنته سلفا على أنني لن أظل ذلك الجزء ، في وقت قريب وقريب جدا . فأتاني بعده السيد رئيس المجلس التنفيذي الى مقر الوزارة ، ملحا على ضرورة حضوري

ولو جلسة واحدة من جلسات اللجنة المحلية ، لتغطية المظاهر على الأقل ، فأجبت بآني كما لا أحب أن أضحك على نفسي ، فلن أسهم في لعبة قدرة يراد منها الضحك على الشعب وخداعه .



ثم جاءت الاحداث بعد ذلك سريعة متتابعة ، فقد وجدت من الضروري احاطة المجلس التنفيذي بحقيقة الازمة التي تمر بها قضية الصحافة عامة ، وموضوع الجرائد التي تولت الدولة اصدارها وهي « الوحدة » و « الجواهر » و « الحرية » ، بعد أن أصم المسؤولون في القاهرة آذانهم عن تلبية أي نداء أو رجاء ، لمعالجة الازمة ضمن السياسة التي رسمها السيد رئيس الجمهورية عند تشكيل الوزارة الثانية قبل أقل من عام .

وقد بعثت بصورة عن تلك المذكرة الى وزارة الدولة لشؤون الرئاسة لمجرد الاطلاع . ولكن المذكرة لما تضمنته من كشف صريح للحقائق ، أحدثت ضجة واضطرابا في اجتماع المجلس التنفيذي ، اذ اعتبرها بعض المبالين للقصر بأنها تطاول على مقام الرئاسة .

وقد أعلنت في الاجتماع عن تصيمي على الاستقالة من الوزارة لتعذر استمراري في معالجة شؤونها عامة ، وشؤون الصحافة بخاصة ، بعدما وضع في طريقي من عراقيل ذكرتها مفصلا في المذكرة . وقد أبدى السيد وزير العدل ملاحظة بأن المجلس التنفيذي ليس هو المرجع المختص لتعيين الوزراء وقبول استقالاتهم . فأجبت بأنه ما دامت القاهرة تتجاهل الازمة القائمة في دمشق ، فمن حق الانسان الحر مثلي أن يتجاهل أيضا أولئك القابعين في مراكز القوة ، والذين بات همهم اذلال الشعب ودوس كرامة أبنائه ، مؤكدا على أن كرامة الوزراء هي من كرامة المواطنين ، كما أن كرامة المواطنين تتصل بكرامة

مثليهم في الحكم ، وان أي مساس بهذه الكرامة يشكل اعتداءا
سافرا على الشعب نفسه . ولم أكد أخرج من اجتماع المجلس ، الا
وكانت الصحافة اللبنانية والاذاعة الاسرائيلية قد بدأت تروج خبر
الاستقالة بشكل مثير ؛ ولم تكد تمضي فترة وجيزة الا وصدر عن
رئاسة الجمهورية قرار باعفائي من مناصبي كوزير عجز عن الانسجام
مع أساليب الحكم . وقد فرحت لقرار الاعفاء أكثر من فرحي يوم
أفرج عني من السجن . وصدق أن سلم والذي روحه الطاهرة ،
في نفس اليوم الذي أبلغت فيه قرار الرئاسة باعفائي من مناصبي .
وكان والذي واقعا منذ أيام ، وبسبب تفاقم مرض تصلب الشرايين
المصاب به والناتج عن الشيخوخة ، في غيبوبة لم يفق منها الا صباح
يوم وفاته ، حيث وقفت أمام فراش مرضه قبل ذهابي الى الوزارة،
ففتح عينيه ؛ ولما رأي جاثيا أمامه بخشوع ، قال لي وبعد صمت دام
عدة أيام : « يا رياض ، الله يرضى عليك » . وكان من دواعي ذاك
الرضى أن تلقيت في ذات اليوم قرار رئاسة الجمهورية ، وفيه
صك تحريري من القيود والاغلال التي حاولت الديكتاتورية المقنعة
برداء الوحدة تكييلي بها قرابة عام واحد ، كان من أسوأ أيام عمري .



وفي ذلك الظرف العصيب ، وفي جو الصمت الرهيب الذي كان
يسود بلدنا الحبيب ، ارتفع من الشمال صوت مواطن حر أبي وشاعر
فحل عربي ، له من صفاء نفسه وأصاله محتده ، ما يجعل شعره مرآة
ناصعة تعكس آمال شعبنا وأماننا أمتنا ، فكانت قصائده ، على الدوام،
أناشيد حلوة تتردد على شفاة أبناء جيلنا ، تعكس شعاع الامل
الذي يختلج في نفوسهم وهم يتطلعون الى مستقبل مشرق مجيد .
انه واحد من شعراء الامة العربية الذين شاركوا فعلا بتحمل آلام
شعبهم ، فكان من حقهم أن يحملوا آمال أمتهم عبر كفاحها الشاق

المريـر ؛ انه الشاعر الوطني الغيور الاستاذ سليمان العيسى ؛ فقد بعث الي برسالة شعرية مؤلفة من سبعة أبيات ، جاءت تعبيراً عن نظرة ابن الشعب لمناضل غنيد تعودت جبهته على تلقي السهام ابان اندفاعه في الدفاع عن حرية الشعب وكرامة المواطن* . وكان في تلك القصيدة الصادقة الرد الكافي على جميع التخرصات التي راحت تروجها الصحف والاذاعات المعادية لكفاحنا الوطني ، بمناسبة إعفاء الوزير المتسرد على سياسة القمع والارهاب .

★ ★ ★

وبعد عام ونيف تلقيت من أمانة سر اللجنة التنفيذية للاتحاد القومي ، كتاباً خطياً تعلن فيه قبول استقالتني من عضوية الاتحاد^(١) .

✽ الملحق رقم (٦) .

(١) نص الكتاب :

الرقم ١/٨١٦ دمشق في ١٩٦١/٣/٢٦

سيادة الاستاذ رياض المالكي المحترم

تحية عربية وبعد :

اشارة الى استقالتكم من اللجنة التنفيذية للاتحاد القومي في القسم الاول المسطرة بتاريخ ١٩٦٠/٩/٢٦ ، على كتاب اللجنة التنفيذية المؤرخ في ١٩٦٠/٩/٢٤ .

اتخذت اللجنة التنفيذية لمحافظة دمشق في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٦١/٣/١٢ ، القرار ذا الرقم ٨/٧ بقبول استقالتكم استناداً الى الفقرة ٢ / من المادة ٦ / من نظام سير العمل في الاتحاد القومي .

وتفضلوا بقبول الاحترام .

نائب رئيس اللجنة التنفيذية

لمحافظة دمشق

أنيس شباط

وقد بني الكتاب في الحقيقة ، لا على استقالة خطية من جانبي ، بل على شرح الشرطي الذي أوفد لتبليغي رقعة الدعوة لحضور اجتماعات لجنة الحي الذي انتخبت عنه ، فذيلها بحاشية تفيد امتناعي عن التبليغ ، اذ أنني بقيت مصرا على رفض حضور اجتماعات الاتحاد القومي الذي كانت أخباره ترد من كل الجهات وعلى مختلف المستويات ، بأنها مهزلة المهازل ، وكانت أشبه ما تكون بالمرحيات الهزلية تمثلها الفرق الكوميديّة المصرية على المسارح العربيّة للترفيه عن جمهور المتفرجين .

وعندما أعلن عن تشكيل مجلس الامة بعد مضي أكثر من عامين على قيام الوحدة ، برز الاستخفاف بارادة الشعب والاستهتار بأحكام الدستور المؤقت ، بشكل جعل المواطنين يدركون المرامي البعيدة للسياسة المثقفة التي خدعتهم وجعلتهم بأكثرتهم الساحقة ، بقواعدهم وقياداتها ، بأحزابهم وزعاماتها ، بسجلهم النيابي وحكومتهم ورؤسائها ووزرائها ، بقواتهم المسلحة وضباطها وجنودها ، يرمون وبشكل أعمى في أحضان من اعتقدوا أنه سيحمل الراية باخلاص ويقود الشعب الى تحقيق انتصاراته الكبرى في شتى الجبهات ، في الداخل والخارج .

ولكن مهزلة مجلس الامة الذي جرى تشكيله بقرار من رئاسة الجمهورية ، وبشكل مخالف تماما لاحكام المادة الخامسة من الدستور المؤقت ، لم تكن بأرقى من مهزلة الاتحاد القومي . وباء بهزء الشعب من وقع عليهم الاختيار ليكونوا ممثلين غير شرعيين عن الشعب في المجلس التشريعي ؛ لان المجلس نفسه لم يكن الا مجلسا سوريا ، كانت التشريعات الهامة التي تصدر في غيابه أوفر وأخطر من تلك التي كان يُلتهى أعضاؤه الميعنون بدراستها واصدارها .

ومرة أخرى تكشفت للشعب الحقيقة المرة وهي وقوعه من

جديد في حبال الخداع ، واغلال الديكتاتورية ، وسلاسل العبودية .



أخذت الامور بعد ذلك تتفاقم يوما بعد يوم ، وبدأت النعمة تزداد حدة في أوساط الشعب ولم يجد أي نفع ، ايفاد السيد نائب رئيس الجمهورية القائد العام للجيش والقوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر ليتولى الاشراف بنفسه على سير الامور في الاقليم السوري ، في محاولة لرأب الصدع .

وزاد الازمة تعقيدا قدوم السيد رئيس الجمهورية بحرا الى الشاطئ الشرقي للبحر الابيض المتوسط وتصديه ، فور أن وطئت قدماه اليابسة في مرفأ اللاذقية ، لتهديد معارضي حكمه بدوسهم « بالجزم » . وكل حاكم يفكر بدوس الشعب ، لابد وأن يتحمل نتائج هذا التفكير الخاطيء ، وردة الفعل الشعبية القاسية .

وكانت ردة الفعل قوية عارمة ، وبدأت الاضطرابات تعم صفوف الشعب ، فمن اضرابات عالية ، الى مظاهرات طلابية ، الى تمرد في صفوف أجهزة الامن والمباحث نفسها ، الى غليان في صفوف العسكريين .

وفجأة وجد الحكم نفسه في واد ، والشعب كله بجماهيره الواسعة في واد آخر .

والقوة هي دائما سلاح الحكم الضعيف ، فما كان من نائب رئيس الجمهورية الا أن لجأ الى استخدام القوة حيث تحركت قطعات الجيش ، وأغلقت بأمره مكاتب الاتحاد القومي وأوكر المباحث نفسها ، ثم ما لبثت الآية أن انعكست ، فانقلبت القوة كسابق

عدها على أصحابها ، وقامت حركة الانقلاب في الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ ، فكان الانفصال المشؤوم •

★ ★ ★

لقد سبقت حركة الانقلاب حادثة ذات أهمية خاصة يجدر الاتيان على ذكرها ، لانها تساعد على القاء الضوء على حقيقة موقف القادة المصريين من حركة الانفصال ودورهم فيها • فقد أعدّ نائب رئيس الجمهورية والقائد الاعلى للجيش والقوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر بالاتفاق مع السيد ميشيل عفلق في بحر عام ١٩٥٩ ، خطة تستهدف القيام بحركة عصيان في الاقليم السوري بزعم الضغط على السيد رئيس الجمهورية لتنفيذ اصلاحات سياسية ودستورية • وكان صلة الوصل بين القائد العسكري والرجل السياسي ، ضابط مصري اسمه السيد داود عويس • ولكن نائب رئيس الجمهورية السيد أكرم الحوراني حذر زميله السيد ميشيل عفلق من مغبة الاسترسال في متابعة الخطة ، لسببين ، الاول وهو الخشية من أن تكون الخطة المعدة مقلبا من مقالب المخابرات العامة ، والثاني الحرص على كيان الجمهورية العربية المتحدة ووحدة اقليمها • واثّر ذلك ، قابل السيد الحوراني السيد رئيس الجمهورية ، وانتقد الاسلوب الذي يتبعه أعوانه ، وربما بتوجيه منه ، للايقاع بقائد سياسي وحزب منحل ، عن طريق تليفق مؤامرة سيكون ضحيتها الشعب نفسه ووحدة جمهوريته •

ولكن السيد رئيس الجمهورية فوجيء بالخبر ، وأبدى ان المفاجأة جاءت قاسية على نفسه لجهله حقيقة الموضوع الذي فاتحه فيه نائبه •

وقد اضطر السيد عفلق لمغادرة أراضي الجمهورية العربية

المتحدة ، قاصدا البرازيل ، حيث ظل بعيدا عن موطنه وأهله لحين وقوع الانفصال ، في حين أوفد المشير عبد الحكيم عامر بعد ذلك ، معتمدا من قبل السيد رئيس الجمهورية لادارة شؤون الاقليم الشمالي .

★ ★ ★

ولذلك عندما قامت حركة الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ بقيادة المقدم عبد الكريم النحلاوي ، كاتم أسرار القائد العام للقوات المسلحة ، لم يخف عن أعين المبصرين الدور الذي لعبه القادة المصريون في التهديد لقيام حركة الانقلاب ، وما أعقبها من انفصال الاقليين السوري والمصري .

كانت القيادة الكاملة في يد الضباط المصريين ، وكانت لهم السيطرة التامة على معظم القطاعات الضاربة في الجيش الاول ، ومع ذلك لم يحرك أي منهم ساكنا ، ولم تتحرك أية قطعة من القطاعات العديدة الخاضعة لامرتهم ، لدك القوات الانفصالية والقضاء على حركة الانقلاب في مهدها ، ولم تطلق رصاصة واحدة في سبيل الدفاع عن الوحدة الغالية .

لقد وقعت حركة الانفصال في الحقيقة ، ضمن مخطط استعماري صهيوني قديم يستهدف تمزيق وحدة العرب ، يؤكد ذلك أن أخبار تلك الحركة المشبوهة كانت تملأ الآفاق الشعبية وتبلغ مسامع الدوائر الرسمية ، التي هيأت الجو لقيامها ، وأعطت الفرصة لحدوثها على يد ضباط أغرار لم يكونوا ليدركوا خطورة الفخ المنسوب لهم ولبلدهم .

كان المقصود زج الشعب العربي السوري كله ، بعد دمهغه طبعا ، هو وجيشه ، بعار الانفصال ، في أتون من الخلافات المصطنعة

والمعارك الجانبية ، لالهائه مرة جديدة عن الخطر المحدق به وبالإمالة العربية كلها ، تسهيدا للاحاق هزيمة جديدة به واحتلال بغيض سيتناول هذه المرة بقعة من أعز وأخصب أراضي القطر العربي السوري •

ان الذين أقاموا الوحدة على عجل وبدون ايمان هم الذين حطوها ، وجروا ، بسكر بارع ، وتصميم وامعان ، بعض فصائل الجيش السوري لتقارف جريمة الانفصال •



وكان مخططا سلفا لعهد الانفصال أن يكون عهد فوضى وتنزق؛ وقد ارتكب فيه قادته من الاخطاء والحماقات مالا يحصى • وكان أول تلك الاخطاء تسليم زمام الحكم في فترة الانتقال ، لواحد من أيتام ديكتاتورية الشيشكلي البائدة ، وريب لطبقة أثرياء الحرب ، وخادم لمصالح الرأسمالية البغيضة ، ولذلك لم يتجل الحرص ، منذ البداية، على اقامة نظام دستوري سليم ، يعتمد على توطيد سيادة الشعب وتدعيم كلمة القانون •

وفي ظل غياب الشعب ، الواجب تعبته ضمن منظمات شعبية وأحزاب سياسية مرخصة ، جرت الانتخابات النيابية العامة ، فكانت فرصة لاقطاب السياسة وفلول الاحزاب السابقة لاقتسام الغنائم والمناصب •• وجيء الى رئاسة الجمهورية برجل كان يفترض فيه ، نظرا لعلسه وثقافته وماضيه السياسي ، أن يكون حارسا أميناً للدستور وحاميا مخلصا للنظام الديمقراطي • ولكن في ظل المزايدات السياسية وانوحدوية الطائشة ، وفي زحمة تناحر العسكريين على السلطة ، انهار النظام البرلماني الهزيل • ولم يقف الرئيس المنتخب من قبل مجلس النواب والذي أقسم في الامس القريب « بالله العلي العظيم ، أن يحترم دستور البلاد وقوانينها ، وأن يكون أميناً على حريات

الشعب ومصالحه وأمواله » ، لم يقف وقفة قائد أمين لشعبه وحريص على تنفيذ عهده وعلى احترام نفسه بحماية الدستور الذي انتخبه النواب ليكون رمزا له • ولم يكن معظم أولئك النواب أكثر جرأة منه وأشد تمسكا بالنظام الدستوري ؛ وقد أسهموا بناوراتهم ومزايداتهم ، في التعجيل بانتهاء دولتهم وبإفلات الزمام من يدهم ، ليبدأ في البلاد عهد جديد ، عهد الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣ • ولم يخل هذا العهد من الصراع العنيف على السلطة ، كما سيأتي تفصيله لدى التحدث عن حزب البعث العربي الاشتراكي في كتاب مقبل •



لقد اکتوى أبناء الشعب في القطر العربي السوري ، بنار الانقلابات العسكرية المتعددة • وقد انقلب الصراع بين العسكريين على السلطة ، خلال اثنين وعشرين عاما ، الى صراع دموي وحشي راح ضحيته الكثيرون من ضباط الجيش وأفراده ، ومن أبناء الشعب ، في الشوارع والساحات العامة ، وفي المواقع العسكرية والثكنات الحربية ، بعيدا عن خطوط النار •

وفي الوقت الذي كان فيه الشعب يقدم الغالي والنفيس في سبيل تقوية الجيش وتسليحه ، كانت الاسلحة المشتراة بمال الشعب على حساب غذاء أبنائه ، ومع مرارة الحرمان الذي عاشوا فيه طيلة هذا الزمن الطويل ، كانت تلك الاسلحة غالبا ما توجه الى صدور الابطناء من دون الاعداء •

لقد أنفق الشعب على تسليح جيشه ألوف الملايين من الليرات ، لتحسين حدوده ، وتزويد جنوده بالعتاد والسلاح ؛ ولكن بفعل الانقلابات العسكرية ذهبت كل تلك النفقات هباء منثورا ، ولم يجن

الشعب الا عبث قادة الجند ، وتكرار الانقلابات ، ونشوء الديكتاتوريات ، وانقلاب القوة المسلحة في أغلب الاحيان الى وسيلة قمع وأداة ارهاب •

وعندما داهم الخطر حدود هذا القطر العربي المجاهد ، وأراضيه الغالية المقدسة ، لم يجد العدو أمامه جيشا مستعدا للقتال ، وشعبا مهيبا للصمود ؛ لان الجيش قد ألهته الانقلابات عن واجباته الاساسية، ولان الشعب قد أنهكته الديكتاتوريات المنحرفة والمقنعة ، تارة تحت شعارات التحرير ، وطورا تحت شعار الوحدة المباركة ، وتارة أخرى تحت شعار الاشتراكية •

لقد كانت اليهود تقطع ، والمواثيق تعقد ، والأيمان تقسم على تحرير الجزء المغتصب من فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ؛ ولكن النتيجة كانت أن اغتصبت فلسطين بكاملها ، وان شمل الاغتصاب جزءا كبيرا من الاراضي السورية ، كما حل بأجزاء أخرى من الاراضي العربية •• جرى ذلك بعد عقدين من الزمن ، أضحى للدول العربية خلالهما جيوش ضخمة جرارة ، وبعد أن بلغ التبجح لدى بعض تلك الدول ، أن كانت زعامتها تدعي أنها كانت تملك لوحدها أقوى قوة ضاربة في الشرق الاوسط ••

نهاية المطاف

« ما الهزيمة ؟ »

انها درس هام لا ضرر منه لكل
 طموح مجتهد ، فهي الخطوة الاولى
 في طريق التحسن ونحو طريق
 الكمال » .

« وندل فلبس »

وهكذا تكشف الفصول السابقة ، بصراحة ودون مواربة ، عن حقيقة دامغة وهي أن شعبا يدأب حكامه على سحق كرامته «بالجزم» وعلى دوس مصالحه بالنعال ، وتمنع قياداته المنحرفة أو الزائفة في ارهاقه واذلاله ، وفي خداعه وتضليله ، وفي دفع أبنائه وجنوده في الطرق الموحلة والشعاب المتلوية والمسالك المعكوسة ، لا يمكن أن يتحقق له النصر ، وهو وان ظل ، في مثل هذه الاحوال ، بريئا من مسؤولية الهزيمة ، عند وقوعها ، الا أنه هو وحده الذي يدفع ثمنها الباهظ ، ويتحمل نتائجها المخزية المذلة ..

لقد استمررنا طيلة عشرين عاما نلقي مسؤولية هزيمة عام

١٩٤٨ على عاتق حكومات عربية سبع ، كان معظم حكامها لا يملكون من زمام حكم بلادهم شيئاً لأنها كانت مكبلة بقيود الاحتلال ، ولم يكن هؤلاء الا أدوات ، طيعة أو مكرهة ، أسهت بغناء في تنفيذ مخططات الصهيونية والالاعيب الاستعمارية .

أما هزيمة عام ١٩٦٧ التي حلت بعد استقلال الاقطار العربية جميعها ، فإن مسؤوليتها الكاملة تقع على كاهل من تصدوا بعد الاستقلال لحمل أعباء الزعامة والريادة ، وممارسة التوجيه والقيادة ، في أوساط الشعب أو في صفوف القوات المسلحة .

انهم بسطحتهم وانتهازيتهم قد مهدوا السبيل للعدو ، كي يسعن في عدوانه ، وبتخاذلهم وجبنهم ، قد مكنوه من الحاق الهزيمة بجيوشهم وشعبهم .



في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، لم يهزمن العدو في ساحات الوغى وميادين القتال ، والواقع يؤكد أنه لم يخض مع جيوشنا العربية الجرارة ، ومع جنودنا الاشداء الذين خذلتهم قياداتهم ، معارك حربية حاسمة ، ليتقرر في نهايتها من هو المنتصر ومن هو المنكسر .

لقد اقتحم العدو حدودنا ودخل أراضيها ، بعد أن وجد الحصون أمامه خالية ، والقلاع خاوية ، والاجسام متداعية ، والنفوس متهاوية ، فتسلل الى عقر دارنا ، كما يتسلل الجرثوم الخبيث الى الجسم الهزيل يفتك فيه ، دون أن يلقي منه مقاومة تحبط مسعاها الهدام وتصد اعتدائه الظالم على الحياة والوجود .

لقد تسرب الوباء الصهيوني الى كيان وطننا لانه وجد فيه

جسما ضعيفا ، أنهكته الخلافات الداخلية وأرهقته الانقلابات العسكرية وشوهرته الديكتاتوريات المنحرفة ؛ وكان من شأن سياسة الظلم وأساليب القمع والارهاب والتتكيل التي سارت عليها ، أن جعلت المواطن يعيش في دوامة من الخوف والفرع ، ومزقت الوحدة الوطنية ، وقضت على روح الخلق والابداع لدى الانسان ، وأكرهت الكثيرين من أصحاب الفعاليات والكفاءات على هجر الوطن والاغتراب عن الديار ، ضمن سياسة مرسومة ومخطط لها من قبل الدول الامبريالية وزعماء الصهيونية العالمية ، ترمي للسيطرة على أرجاء الوطن العربي الكبير .



وماذا صنعنا نحن مقابل هذا المخطط الرهيب ؟

الواقع يؤكد أننا صنعنا الهزيمة بأنفسنا .. هزمنا من خلال الزعامات الهشة والقيادات المتخاذلة التي لا تصمد أمام الاغاصير ، وتتجى بسرعة وسهولة عن مسؤولياتها ومبادئها وأهدافها ، أمام أبسط الاخطار ، ولا هم لها عندئذ الا النجاة بالنفس .

هزمنا من خلال جيل كامل من أشباه الرجال ربه تلك القيادات على العنتریات والبهلوانييات والفسطاط الكلامية في حالة السلم ، حتى اذا ما داهمه الخطر ، ولى الادبار واختفى بخسة ونذالة من خطوط النار .

هزمنا من خلال عدم قدرتنا على بناء حياتنا السياسية ومؤسساتنا الدستورية ، وعدم حرصنا على حماية ما نبنيه منها ، وعدم احترامنا لموايقنا وعهودنا ، نقطعها لثعبنا وسرعان ما نحنث بها .

هزمنا من خلال عدم تفريقنا بين السلطات التنفيذية والتشريعية

والقضائية ، ومن خلال تكرار تسلط السلطة التنفيذية على سائر السلطات •

هزمتنا من خلال طغيان الفرد على الجماعة ، والاعتداء السافر والمتكرر على سائر الحريات العامة والخاصة وكرامة الانسان •

هزمتنا من خلال أجهزة الامن الدائبة على ملاحقة المواطنين وتتبع نشاطاتهم وتسقط أخبارهم والتسلي بأسرارهم ، دون توجيه كبير اهتمام الى أعداء الوطن يتسربون الى أعلى القيادات وأخطر المراكز ليمارسوا عن طريقها دورهم التخريبي كجواسيس أو أعضاء في الطابور الخامس •

هزمتنا من خلال شريعة الغاب تسود مجتمعنا ، ينهال في ظلها الجلادون بسياطهم على أجساد الاحرار من بني قومهم ، ويسرح في ربوعه الاشرار والفجار واللصوص دون رادع أو وازع ، في حين يحتل العدو الدخيل جزءا هاما من أرض الوطن •

هزمتنا من خلال أجهزة الاعلام يسخرها الحكام للدعاية الرخيصة لاشخاصهم ، دون الالتفات لتعبئة الشعب تعبئة قومية وسياسية وعسكرية ونفسية صحيحة ، ودون التورع عن تسخيرها لنشر السموم والاضاليل وخداع الرأي العام •

هزمتنا من خلال أرتال من المثقفين ، لا يرون كبير حرج في السير في ركاب الطغاة وخدمة أغراضهم ، بتسخير الثقافة والعلم والادب والفن ، يزينون بها الانحراف ، ويررون الجرائم ، ويفلسفون المظالم، ويحيطون الديكتاتوريات بمراسم التعظيم والتبجيل ، استمطارا للمنافع والعطاءات يسترقونها من أموال الشعب وخزينة الدولة •

هزمتنا من خلال أصحاب الرؤوس الرخوة ، والضمائر الرخيصة،

والنفوس الجشعة ، والايادي المبسوطة لقبض المال الحرام والارتشاء على حساب الوظيفة والواجب والوطن ، لافرق بين أن يأتي هذا المال من أيادي الاعداء أو ينتزع من جيوب المواطنين أو يقتطع من أفواه الاطفال الجياع والانااس المحرومين •

هزمتنا من خلال القادة المنحرفين الذين لم يحجم بعضهم عن عقد الصفقات المشبوهة في الظلام لاختلاس أموال الشعب والارتشاء على حساب صفقات الاسلحة ، والذين بلغوا في مروقهم حد التآمر على الاحرار من بني وطنهم وبيع رقاب الوطنيين منهم واباحة دمائهم •

هزمتنا من خلال الديكتاتوريين العسكريين وصنائعهم الذين يتبجحون بدوس القوانين والدستور الذي يقرون بسخرية بأنه أب القوانين ، ولا يتورعون عن تهديد أبناء شعبهم بسحقهم « بالجزم » ولا بأس عندهم بعدئذ ان تخرى يوم المعركة قادة وجنود « زحفهم المقدس » للعدو لا عن المواقع والاسلح فقط بل وحتى عن «الجزم» •

هزمتنا من خلال قادة الجند يديرون ظهرهم للعدو ويزحفون بدباباتهم وآلياتهم المدرعة والمجنزة ليسيظروا على دار الاذاعة ، ويذيعوا عبر الاثير بلاغاتهم الثورية المنمقة والمرقمة ، ويحتلوا سراي الحكومة ومراكز السلطة ويحكموا شعبهم بالحديد والنار ، ويقهروا الانسان ، ويذلوا المواطن ، ويفقدوا شعبهم وجيشهم أية قدرة على خوض المعارك الحاسمة ، وأي استعداد للقتال والدود عن الحمى والدفاع عن أرض الوطن •

هزمتنا من خلال سكوتنا عن الحق ، وتخاذلنا أمام الجبابة ، وخضوعنا للطغاة المستبدين ، وقد بتنا مهددين بالتخاذل أمام الاعداء وبالخضوع لعدوانهم الشرس وطغيانهم الذميم •

★ ★ ★

هذه كلها بعض من أسباب الهزيمة ، وهي أسباب كانت وما زالت تنخر في جسدنا كالسوس ، حتى جعلت من المواطنين ، الحكام منهم قبل المحكومين ، هياكل بشرية تسري في عروقها الدماء ، وفي خلاياها الحياة ، ولكنها أضحت في واقع الامر ، كأنها الدمى تحركها الايادي الخفية التي تجيد ممارسة « لعبة الامم » والعبث بمقدرات الشعوب .

انها أسباب خطيرة ، ولكن ليس من العسير علينا التخلص منها والقضاء عليها ، فيما لو توفرت لدينا الارادة القوية واستطعنا ، بحزمنا وعزمنا ، مجابهة أخطائنا ، وتقويم الاعوجاج في نفوسنا وسد الثغرات في صفوفنا .



اننا بحاجة لثورة تقوم على مجاهدة النفس ومجابهة الاخطاء، ومراجعة الحساب ، وتهدف لبناء مجتمع حر كريم ، تكون الكلمة فيه للشعب ، مصدر جميع السلطات ، مجتمع تسوده الحرية والديمقراطية بالفعل ، لا بالكلام والشعارات ، ولا يكون فيه أثر لظغيان مواطن على مواطن ، أو فئة على أخرى ، أو طائفة على غيرها ، ولا وجود فيه للاستغلال من أي نوع كان .

علينا مراجعة جميع أخطائنا بشجاعة ، وتشخيص عللنا وعيوبنا بحزم ، والانصراف لمعالجتها بدون تلكؤ أو كلل وبشعور كامل من المسؤولية .

علينا اليوم قبل غد ، أن نعطي كل مواطن حقه ، ودوره في بناء المجتمع ، وخوض معاركه القومية والسياسية والعسكرية ؛ وعلى المواطنين جميعا وبدون استثناء الاسهام في اشادة هذا البناء والبذل في ميدان التضحية والشرف بكل سقاء .

لا تمييز بين أبناء الشعب الواحد ، ولا تفريق بين الطوائف والفئات ؛ فلكل مواطن حقوقه في هذا الوطن ، وعليه بالمقابل واجباته التي لا مناص له من الالتزام بها وأدائها •

ان أسباب القوة وعوامل المنعة متوفرة في بلادنا بكثرة ، ولكن علينا أن نحسن استخدامها • فالقوة هي في وحدة الصف ، واتحاد الكلمة ، وتعبئة جميع القدرات والطاقات والامكانيات •

نحن أقوى من أعدائنا ان استطعنا أن نعد لهم العدة ، وان صممنا على دحرهم من بلادنا وطردهم من ديارنا •

ان ذلك يمكن أن يكون بضمان الحرية للمواطن ، وبحمائية كرامته ، وتوفير جميع الضمانات الاجتماعية له ولاسرتة ، في العمل والصحة والشيخوخة ، ليحيا حياة حرة كريمة تجعله يشعر بأهمية دوره في المجتمع ، وبقدرته على القتال لحماية الوطن والذود عن الحياض •

ان الامبريالية الامريكية ليست قدر العالم ، وان اسرائيل ليست بالقلعة المنيعه التي لا تقهر ؛ وهما لم تتوصلا الى الحاق الهزيمة بنا في بلادنا ، والى اذلالنا في ديارنا الا في ظل الخلافات التي نصطنعها فيما بيننا ، وتغذيها مخابراتهما الذكية ، وأموالهما السخية التي غالبا ما ينهبونها من خيرات أرضنا وثروات بترولنا •

انه من الخطأ الكبير أن نعتبر المعركة الراهنة معركة الفلسطينيين وحدهم ، كما تحاول أجهزة الاعلام العربية ايهام العرب بذلك ، بل انها معركة العرب جميعهم • وقد أضحي من العار أن يبقى العرب منزقين الى دويلات ، ومنقسمين على أنفسهم ومتناحرين فيما بينهم ، بينما تتوافد شراذم اليهود من أنحاء العالم لتبني ، على أعز بقعة

من وطننا ، دولة عصرية يتسلح رعاياها على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم الفكرية والسياسية والاجتماعية ، بالعلم والمعرفة قبل المال والسلاح ، ويجعلون منها قلعة خطيرة تواصل الاعتداءات المتكررة على الدول العربية ، ويشردون الالوف المؤلفة من أبنائها الاصلاء ، ليحل محلهم فيها خليط من أقوام هجاء ، وأشخاص دخلاء يأتون كعبيدين غاصبين •

ان دول أوروبا الغربية تضي بسرعة وتصميم في بناء وحدتها السياسية والاقتصادية الكاملة بالرغم مما نشب فيها بينها ، في الماضي القريب ، من حروب ذهب ضحيتها عشرات الملايين من الضحايا ، بينما تتفنن الدول العربية وحكوماتها في التناحر والتهرب من السير في طريق الوحدة الذي هو الطريق الاوحد والاقصر لقهر الاعداء ودحرهم وطردهم من بلادنا •

ان الوحوش المفترسة ذاتها ، عندما تقع في خطر مداهم ، تنسى خصوماتها التقليدية ، وغرائزها الوحشية ، وتسعى للوقوف في وجه الخطر وقمة واحدة •

فما بال العرب يسدرون في غيهم ، تتنازعهم الالهواء ، وتتقاذفهم التيارات الدخيلة على حياتهم وتقاليدهم ، وتجعلهم يتخاصمون بغباء ، ويتناحرون بحقد أعى ، ويمزقون صفوفهم بأيديهم ، ويزهقون أرواح بعضهم بعضا ، في معارك جانبية لا تخدم الوطن وليست في مصلحة القضية العربية اطلاقا ؟•

ان العدو هو الذي يستغل التناقضات ، ويزرع الاحقاد ويغذي الخصومات ، ويجني ثرة المعارك التي يخوضها العرب ضد بعضهم البعض •

فعلينا أن ندرك هذه الحقيقة ، وأن نسعى لتدارك الاخطاء

ومجابهة الاخطار بسنطق الوحدة الوطنية في داخل أقطارنا وبسنطق الوحدة القومية في وطننا العربي ، لان المعركة هي معركة تحرر وطني، يجب أن يخوضها جميع أبناء الشعب ضد العدو الخارجي والمغتصب الدخيل .

ليس المطلوب طبعاً أن يتخلى أصحاب المبادئ عن مبادئهم ، وأن يتنازل ذوو العقائد عن عقائدهم ، ولكن ما ليس لجميع هؤلاء وأولئك أي حق فيه ، هو تسويق صفوف الشعب بحجة الصراع الطبقي أو الخلاف الفكري .

ان العدو هو الذي يبذر بذور التفرقة في صفوفنا ؛ فعلينا أن نحبط خطته ونقضي على شروره وآثامه ، باتحادنا وتضامننا كشعب واحد يريد الحياة والبقاء .

انه من الحق والغباء أن نسترسل فيما نحن عليه من تراخ وتهاون ، نكتفي بخدر الدعاية البلهاء ، يري في أوصالنا ، بفعل ما تردده أجهزة اعلامنا ، وتوهننا به أننا نبني المجتمع الثوري التقدمي ، أو مجتمع العدالة والكفاية .

ان الثورة الحقيقية هي ثورة الفلسطيني الشجاع الذي هب بعد عشرين سنة من الخداع والضياع ، ليحمل السلاح ويندفع للموت على ثرى فلسطين ، كي يكتب لامته الحياة .

ان الفدائي الشجاع الذي يقاتل على ربي فلسطين وفي ميادين الكفاح والتضحية هو البطل القومي والثائر الحقيقي ، والطالب الذي ترك دراسته وضحي بمستقبله وخاض المعركة بثبات ، ليتلقى بصدوره رصاص العدو المغتصب الدخيل ، يجب أن يكون هو القدوة والمثال .

والعامل الذي تخلى عن عمله وأسرته وأطفاله ليلتحق بكتائب
العداء ويسكب دمه في الاغوار ، في غزة والخليل ، في حيفا والجليل ،
هو شهيد الامة العربية جمعاء ، لانه بتصميمه على الكفاح والتضحية ،
لا يقابل عدوا لشعب فلسطين وحده ، بل أعداء يكيّدون للوطن
العربي كله ويهددون العرب جميعهم بالذل والعبودية ، لا بل بالابادة
والفناء •

ولن يغير من اشراقة حركة المقاومة الفلسطينية بعض الاخطاء
والانحرافات الطفيفة ولا موقف جميع الحكومات العربية المخادع
في بعض الاحيان ، والمعادي في احيان أخرى ، والباهت في معظم
الاحيان ، حتى باتت المقاومة محاصرة ومطوقة من العرب أنفسهم
تعاني من مناوراتهم وخذلانهم أكثر مما تخشى من كيد الاعداء
وغدرهم وورصاتهم •



والحقيقة التي يجب أن يجاهر بها في هذا الظرف العصيب ،
ويؤكد عليها مرارا وتكرارا ، هي أن المعركة أضحت معركة العرب
كل العرب ، فعليهم يقع العبء الكامل في تعبئة الصفوف وحشد
الحشود والانقضاض ، دون هوادة أو تأخير على قواعد الاعداء
وتجمعاتهم البشرية وحشودهم العسكرية وتدميرها وتشتيتها •

فالارض التي احتلها الصهاينة بطريق الخداع وشراء الضمائر ،
وبدعم من الدول الكبرى ، وفي غفلة من الجماهير العربية ، المكبلة
والمغلوبة على أمرها ، ليست أرضا اسرائيلية ، ولن تكون ملكا
خالصا للاسرائيليين المعتدين ، ولا بد من مواصلة القتال معهم ، كل
وقت وفي كل حين ، مهما بلغت التضحيات البشرية والخسائر المادية •

يجب الاحداق بإسرائيل من كل جانب ، وتوجيه الضربات المتتالية اليها من الداخل والخارج ، في الليل والنهار ، حتى يشعر الغاصبون الدخلاء أن لا قرار لهم في أرض ليست أرضهم ، ولا استقرار لدولة مصطنعة حاكت وجودها أيدي التآمر ونسجت بقاءها أصابع الخيانة ، فأصبحت كيانا قدرا لحتمته الظلم وسداه العدوان •

يجب تنزيق إسرائيل بقتال متواصل ومعارك مستمرة ، وجعل أرض فلسطين مقبرة للغزاة ؛ فما من شعب في العالم يقبل باحتلال أراضيهِ ويسكت عن تشريد أبنائه بحجة الحرص المخادع والرغبة الكاذبة في احلال السلام •

وان دعوة السلام التي تدعو اليها الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية زعيمة الامبريالية العالمية في العصر الراهن، ومن يدور في فلكها من دول أخرى ، ومن يتواطأ معها على اقتسام مناطق النفوذ في العالم ، هي دعوة مريية ومرفوضة ولا يمكن أن يقبل بها العقل السليم أو يسلم بها العدل الصحيح • وكل سلم لا يبنى على الحق المطلق والعدل التام ، هو سلم زائف وزائل •

فعلى العرب أن يدركوا هذه الحقيقة قبل فوات الاوان ؛ فهم ليسوا جناء ولا ضعافا ، انما أقعدتهم عن مجابهة أعدائهم أنظمة القمع التي تسود معظم أقطارهم وأنهكتهم الخلافات المصطنعة تهدر طاقاتهم وتبدد امكاناتهم •

ان الاخطار الشديدة تحيط بالعرب من كل جانب ، وهي تهدد وطنهم ووجودهم • فعلى أحرار العرب في كل مكان ، في المشرق والمغرب ، في آسيا وافريقيا ، في مصر وسورية ، في السودان والعراق، في ليبيا والسعودية ، في تونس والاردن ، في المغرب ولبنان ، في

الجزائر واليمن ، في موريتانيا والجنوب العربي ، أن يشكلوا جبهة
تحرير عربية واحدة يحتشد فيها الملايين من المقاتلين الشجعان ،
ينتظمون في كتائب فداء تخوض المعركة تحت لواء قيادة موحدة الى
جانب المقاتلين الفلسطينيين الابطال ، لتحقيق هدف واحد ، هو
تحرير الارض العربية كلها من برائن الاعداء وقواعد الاحتلال وأدران
النفوذ الاجنبي •

ان اختلاط الدم العربي في أرض المعركة خلال مقارعة الاعداء
هو السبيل لتحقيق آمال الامة وأهدافها ، وما يطمح اليه كل عربي
حر شريف في بناء وطن عربي واحد تسوده الحرية والديمقراطية
والعدالة • واذا ما سارع العرب للسير في هذا الطريق ، فلن يبقوا فيه
لوحدهم ، لان أحرار العالم جميعهم شعوبا وحكومات سيقفون وبكل
تأكيد الى جانب الحق العربي •

ان هذا العصر ليس عصر الجيوش الاستعمارية والغزو المسلح،
والاحتلال الاجنبي ، بل هو عصر الشعوب المستقلة والتضامن في
سبيل انتصار الحرية واردة الشعوب •

وما على العرب الا أن ينسجموا مع روح العصر ، ومنطق
التاريخ ، ومبادئ الوجود والبقاء ، ليظفروا بحياة حرة كريمة
ويتعايشوا مع شعوب العالم التي لا تحترم الا الشعب الشجاع
المكافح في سبيل وجوده وكرامته • ولن يتحقق للعرب ما يصبون
اليه من آمال وطنية وأهداف قومية الا بنفض غبار التراخي والتكاسل
والنهوض سريعا للذود عن الحياض وطرده كل غاصب دخيل •

أفيقوا يا عرب ،
هبوا من رقادكم ،

لقد حان الوقت ، فحي على الجهاد ...
انه نداء الآباء والامهات ، ودرس الاجداد ، وأمل الاحفاد ،
وعليه يتوقف مستقبل هذه الامة ومصيرها وبقاؤها .

★ ★ ★

الملحق رقم (٢)
شهادة بحق الجلود

NOM DE L'ÉTABLISSEMENT

مدرسة اللغة الفرنسية

CLASSE DE PREMIÈRE B.

تعليم فرنسي - عربي

Damas

APPRÉCIATIONS GÉNÉRALES ET OBSERVATIONS (Facultatives).

PROFESSEURS DE :		Signatures des Professeurs :
Français (M.)	Capable. Doit réussir	129
Histoire (M. Bay Say)	Bon élève ; soigne et travaille	Bay
Langues vivantes Anglais (M. Jorgues)	Très bon élève	A. Jorgues
Arabe (M. Khalani)	متميز في اللغة العربية والعمل	أ. خليل
Mathématiques (M.)	Très bon élève	M. Pelle'
Sciences physiques (M.)	Résultats très satisfaisants. Peut réussir	Phin
LE CHEF DE L'ÉTABLISSEMENT	Élève en très bonne voie	

le 10 mai 1940.

Vu :

Le Président du Jury

Chauvy

اما اذا كانت الحقبة في أن الجبهة السورية التي تترجمه في أهل الجبال النائية لهجات شتى
مفرقة وغير موحدة ، هي بحاجة ماسة للتغوية وانما يجب للذود عنه صياغة الوطنية وهد
كيد أعدائه ، فان هذه الحقبة يتأقصر الوضع الحالي في الجبهة الذي أصبح مرجحاً
وإدارياً أكثر ما يكون لهذا جدياً ، فمع في أوضاعه مع حدود وظائفه الرئيسية فوقع
وأوقع الحدود منه في كارتته الحالية التي وإن دلت على شيء فانها تدل ههنا على أن
الجبهة بتفهم أوضاعه قد رافقتها استقرار الوضع الحالي ، وكذلك الشعب ناته
غير راضيه وليس يرضى عن ذلته الوضع لما فيه من عدم كرامة الأمة وتزويد المعاني الوطنية
وان في مورد بناء على هذا السبب على هذا الوضع الشاذ وسادته :

- ١ - فقه دستور البلاد وتحمي إدارة الأمة بتعطيل
- ٢ - إكراه رئيس الجمهورية على الاستقالة وتبطل الحياة السياسية الحرة ،
- ٣ - إتاحة نظام حكم استبدادي لم تقعه البلاد ولا الجبهة فيه
- ٤ - نصب رئيس للدولة بأمر عسكري صادر عنه وعن عسكري له عليه ولا يجوز أن يكون هذا السلطان
- ٥ - خضوع الحياة العامة فتنقلم تهرده السور من في ظل الاستعمار
- ٦ - تعطيل الصحافة الحرة تعطيل تعسفياً كيفاً وشراء الصحف الصغار لشكره إرادة تطبيق وتنفيذ
- ٧ - سحق الوطنية على أديم يحميه باسم الوطن ، الذي جزء أو مؤسس سياسي ومنه الأفضلية
- ٨ - حمل الاعجاب بجميع ما يفيض الدواب العقائرية التي تشمل جميع حدود وسائله ووسائله الفكرية
- ٩ - تأسيس حزب جديد فاقته الوحدة رغم نظام الحكم الحالي وتفتتت هضبة الأمة يوم يظلم (وقد التزم)
- ١٠ - رعدة الموظفين في الدرجة الأولى للأنباء إلى هذا الوضع ، وأكرامهم على الخسائر السياسية
- ١١ - ترغيب المواطنين للأنباء إلى الحزب باعترافهم بولايته الدولة الكبرى ذات هبة الرئسية .
- ١٢ - مشاركة أعضاء بعض الأحزاب التقدمية وتعميمهم وشتمهم في الصحافة والاعمال الرئسية
- ١٣ - اختطاف أبناء السور المذمومة ، ومنهم في السجون وتغديبهم وانكسارهم لمجرد عدم تأييدهم الوضع الراهن
- ١٤ - زرع بذور الفتنة والتفرقة بين أبناء الوطن الواحد وإثارة النفاق الطائفي والقبلي كبحر في الأرض ذات
- ١٥ - مساعدة الانتداب عليه والأساليب وتجميع على الاحتكاك وسبب الاستعمار
- ١٦ - مهاجمة كبار الصحابة بحجة على حساب المستقلة التفكير بحجة تشجيع الفتنة وإنه خطر على البلاد
- ١٧ - إهمال عدد التعليم واجبا رسم على القيام بأعمال السخرة وهدمهم وتغديبهم في الثكنات والمخيمات والصفوف
- ١٨ - إتاحة نظام بوليسي حاكم يترجم في الذبح والخنق في نفس سلطان الرئسية المظلمة
- ١٩ - حشد المواهب في مراكز الشرطة المظلمة وحمايتها في قسم المركز الرئيسي في سجن الزاوية والفرقة الأولى
- ٢٠ - زعمه الصناعات واستنساخها جبراً مختلف الاستعمال والأشكال لاغراضه المصطنعة والمظلمة
- ٢١ - التناضح مع أدوات دجالهم بفضله الأشخاص من المفسرين وذلك في حال الاستغلال لهم على غاربه
- ٢٢ - إتاحة الفتنة وتبليط الموكبات وتبليط السيد دهاش ان سر عند سبها بشخصية الأذلة
- ٢٣ - تشجيع جهود الحكومة والمكائيات الدولة لتبليط أعمال " حولة القبر " التي هي حولة قومية مؤنونة على قبة
- ٢٤ - تشجيع الأمة بكامل مؤسساتها وإطاعتها لحدة الجبهة في عهد أمة الجبهة فهدم هذه الأمة والوطن
- ٢٥ - إهمال التعليم وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة وتشجيعها على الفتنة وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة
- ٢٦ - إهمال التعليم وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة وتشجيعها على الفتنة وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة
- ٢٧ - إهمال التعليم وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة وتشجيعها على الفتنة وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة
- ٢٨ - إهمال التعليم وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة وتشجيعها على الفتنة وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة
- ٢٩ - إهمال التعليم وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة وتشجيعها على الفتنة وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة
- ٣٠ - إهمال التعليم وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة وتشجيعها على الفتنة وإتاحة الفتنة تشجيعها على الفتنة



الملحق رقم (٥) محضر استجواب قضائي

ص ١٩٧

٢٥

أخيراً بتاريخ ١٩٥٢/٦/٨ استغفرت المدة المحكوم حيث كانه المدينين رباح المالك المرفقة قيد التفاوض وقررت
 بالتصويت له كى طبق
 انكى رباح يتسكن المالك ساهل وسته عمري ٢٠ سنة من غير محكوم سابقاً الخ ب حتم موصوع
 تتفاوض لدهام البند التذمة مدة المدة ٦٩ منه احوال المحاكمات الجزائية اتمرا استمرارية المراجعة بوجهه
 سم: يمينه اليه جميع محاماة انقضاء سلطة عمكم والملازمة على ارتكاب افعال ارتكبتها واستغفرت احدى القياداة في حوزة
 بدالة
 ٢: انتج في حالة توقيف غير مشروط في تخطي مدلول المحم وقتاً لدهام المستور والقانونه بما ارفق الاجابة عليه بما ان يرجع
 اليه مه اية جهة او سلطة لاثنت

طبعت على المائدة عندها بدها بتوقيع

١٩٥٢/٦/٨

حفظ

لم يعل

قيد المحفنة

نصفه المدينين الذي يتبع عليه اذبح

تخطي المحفنة

الملحق رقم (٦) الى الأمانة العربية ..

الأستاذ رياض المالكى ..

من سليمان ..

كنت في عيني ومضاً ثائراً

منذ أيام ، ونضاً في دمي

جبهة النـر .. ومرت غيمة

فوقها تحمل كبر الأسم

وتلقيت نبعاً صافياً

في مآهات الطريق المظلم

نحن أحلام الذرى في أمي

فليعط الثورك رب القمم

يا أبا عدنان .. ماضى الضحى

بالغيوم السود إن يلتئم

عودتنا فكرة عشنا لها

صبيحة الجرح على الجرح الطمي

جبهة النـر .. على لألائها

ألف سهم صاغير منظم

سليمان

١٩٥٩/٩/٢٠

حلب

الفهرس

رقم الصحيفة

٣		الاهداء
٥		المقدمة
٩		البيت الابوي
٣١		على مقاعد الدراسة
٥٢		في رحاب العدالة
٦٧		الى الساحة الدولية
٩٧		صراع الديكة
١٠٣		محام وراء القضبان
١٣٢		كفاح على جبهتين
١٥٧		تحطم الاغلال
١٧٣		جناية كبرى وطابور خامس
١٩٧		تحت القبة الفضية
٢٢٤		حلم في عالم الارواح
٢٤٨		وجهاً لوجه مع مراكز القوة
٢٦٦		التراب المقدس والتراث التليد
٢٧٨		تداعي الهرم العتيد
٣٠٧		نهاية المطاف

اللاحق :

٣٢٠		شهادة بحق الجلاد
٣٢١		شهادة بحق المجلود
٣٢٢		محضر استجواب اولي
٣٢٣		صحيفتان من التقرير المسطر في السجن
٣٢٥		محضر استجواب قضائي
٣٢٦		قصيدة الشاعر سليمان العيسى

ت.م.و. رقم ۴۴۱۰
تاریخ ۱۹۷۲/۷/۱۲

ایستاد

صدر عن دار دمشق
للنشر والتوزيع في دمشق

—*—

١ - مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في
العصر الوسيط

تأليف : د. طيب تيزيني

٢ - حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم
الثالث

تأليف : د. طيب تيزيني

٣ - دور العنف في التاريخ

تأليف : انجلز

٤ - القضايا الأساسية في الماركسية

تأليف : بليخانوف

٥ - في سوسيولوجيا ماركس وفلسفته
الاجتماعية

تأليف : بوتومور و م. ربل

٦ - في المسيرة الطويلة مع الرئيس ماو

تأليف : شن نانغ - فنغ

٧ - بؤس الفلسفة

تأليف : كارل ماركس